الكنيسة في الشرق (٩)

الأعمال والرسائل المنحولة

★★

ترجمة

اسكندر شديد

تقديم ومراجعة

أ. جوزف قزّي - أ. الياس خليفة

دير سيّدة النصر

نسبيه - غوسطا

١٩٩٩

الأعمال والرسائل المنحولة

http://kotob.has.it

الكنيسة في الشرق (٩)

الأعمال والرسائل المنحولة

★ ★

ترجمة

اسكندر شديد

تقديم ومراجعة

أ. جوزف قزّي - أ. الياس خليفة

دير سيّدة النصر

نسبيه - غوسطا

١٩٩٩

مصادر ترجمة المنحولات:

1° - Les Évangiles de l'ombre - Éd. Lieu commun, 1983.
2° - Évangiles apocryphes - Éd. Seuil, 1983.
3° - Écrits apocryphes chrétiens - Éd. Gallimard, Bibliothèque de la Pléiade, 1997.

المحتوى

المقدِّمـة

١ ـ ركّـزت «**الأناجيل المنحولة**»[١]، موضوع الجزء الأوّل من «المنحولات». على يسوع الإله - الإنسان، فعالجت أعماله العجائبيّة الخارقة التي ملأت الدنيا شفاءات مرضى، وإقامة موتى، ومعارف غيبيّة. . . ، منذ طفولته، مروراً بحياته العلنيّة، حتى موته وقيامته. . . هذا في اختصار مضمون هذه الأناجيل وأسلوبها. إنّه مألوف ذاك الزمان في فهم أُلوهيّة المسيح وفي طريقة إقناع المؤمنين به.

٢ ـ كذلك هو أيضاً شأن «**الأعمال والرسائل المنحولة**»، موضوع الجزء الثاني من «المنحولات». إنّها، في مضمونها وأسلوبها، أعمال الرسل والتلاميذ الخارقة. مِثلُها مثل أعمال المعلِّم الخارقة. لقد ركّزت، شهادةً لإيمانهم به، على شفاءات كثيرة جرت على أيديهم، وإقامة موتى، ومعارف غيبيّة؛ فأقنعوا بها حُكّاماً كافرين أوقعوهم في شِباك إيمانهم؛ ودلّوا على أنّ الكنيسة التي أسّسوها هنا وهناك هي كنيسة رسوليّة جامعة. . . إنّه أيضاً مألوف ذاك الزمان في الكرازة وتبشير الكافرين وتثبيت المؤمنين.

٣ ـ وكذلك هو أخيراً شأن «**الرؤى المنحولة**»، موضوع الجزء الثالث من «المنحولات». أسلوبها أيضاً هو أسلوب رؤيوي، أَبوكالِپتي،

---

١ ـ راجع كتاب "الأناجيل المنحولة"، سلسلة «الكنيسة في الشرق»، رقم ٨؛ دير سيّدة النصر، نِسْبَيْه ـ غوسطا؛ سنة ١٩٩٩؛ ٢٤٠ صفحة.

أُخـرَوي ؛ ومـضـمـونهـا هو مـا يحـدث للأبرار في آخـر الأزمـان وفي السـمـاوات . هذه "الرؤى" ، بمضـمـونهـا وأسلوبهـا ، لا يجب أن تُربك ضمير القارئ ، وتُشكِّكه في إيمانه ؛ إنّها ، أيضاً ، من مألوف أسلوب ذاك الزمان في فهم سعادة السماويّين ، وفي إقناع أهل الأرض بإيمانهم .

٤ ـ فبالإضافة إلى ما قلناه مطوّلاً في «مقدّمة المنحولات» العـامّة ، في رأس الجزء الأوّل ؛ ما زلنا نرى ونلمس أهميّة ترجمتها ونشرها في اللّغة العربيّة . إذ ليس على الكنيسة في هذه اللّغة أن تبقى في منأى عن مصدرٍ مهمٍّ جداً للكثير من تعاليمها وطقوسها وعباداتها ، ومن مبهمات بعضِ مراحل التـاريخ الكنيـسي والمدني التي أضـاءت جـوانبـهـا هذه «المنحولات» .

نِسَّيْه في ١٦/ ٧/ ١٩٩٩

أ . جوزف قزّي

أعمال بطرس

تشمل هذه الأعمال أربعة نصوص:

أً ـ إبنة بطرس وبطليموس: تجري حوادثه في أُورشليم. عُثِر عليه بالقبطية عام ١٩٠٣.

٢ً ـ إبنة البستاني: مرتبط بالنص الأول. اختصرته مقالة لاتينية في العذريّة أصلها بريسّيليانيّ[١]، وألمح إليه القدِّيس أُوغسطينوس.

٣ً ـ أعمال بطرس: نجا القسم الأهم منه في ترجمة لاتينية. وهو الجزء الروماني من هذه الأعمال. مكان وضعه مجهول. لكنه يعرِّفنا إلى المسيحية في القرنين الثاني والثالث م. شهد شعبية سريعة وواسعة. تبنّته شيع مسيحية، مما أدى إلى حظره كنسياً. نُثبِت هنا نصاً جامعاً لأعمال بطرس وبولس.

٤ً ـ إستشهاد القدِّيس بطرس الرسول: النص الوحيد الباقي من أعمال بطرس في اللغة اليونانية الأصلية. تُرجِم إلى كلّ اللغات الليتورجية القديمة.

---

١ ـ راجع «أعمال يوحنا».

إبنة بطرس وبطليموس

في اليوم الأول من الأسبوع، الأحد، التقى الجمع وجيء إلى بطرس بمرضى كثر ليشفيهم. والحال ان أحدهم في الجمع تجاسر على القول له: «يا بطرس، في حضورنا جعلت عمياناً كثراً يُبصِرون، وجعلت صُمّاً يسمعون، وجعلت كُسَحاء يمشون، وساعدت ذوي عاهات وأعدت إليهم قِوىً، إذاً لِمَ ابنتك التي هي عذراء، التي نمت بجمال رائع وآمنت باسم الله، لم تُنجِدها؟فها انها في الواقع مشلولة الجنب كلِّيّاً، وترقد مُعاقةً هناك، في الزاوية. اننا نرى الذين شفيتهم، لكنك لم تهتم بابنتك.»

إذاك ابتسم بطرس وقال له: «يا بُنَيّ، الله وحده يعلم لِمَ جسدها لم يشفَ. إعلَمْ ان الله لا يمنح ابنتي عطايا عن عجز أو ضعف. إنما لتكون مقتنعاً بذلك بقوّة وليؤمن الناس الموجودون هنا أكثر، مستديراً نحو ابنتي أقول لها: "قومي وحدك، سيري أمام كلّ هؤلاء، في صحة تامة، وتعالي إليّ."»

إذاك قامت ومضت إلى بطرس. فاغتبط الجمع بما حدث. وقال لهم بطرس: «ها ان قلبكم اقتنع بأن الله ليس ضعيفاً أمام أيٍّ من طلباتنا.» عندها فرحوا أكثر بَعْدُ وسبّحوا الله. وقال بطرس لابنته: «إرجعي إلى مكانك، أُرقدي وعودي عاجزة، لأن ذلك مفيد لك ولي[1].» ورجعت الصبيّة إلى حيث كانت، ورقدت في مكانها وعادت كما كانت.

---

١ ـ موقف بطرس مُستغرَب، إنما ينبغي التذكُّر ان الفتاة كانت في العصور القديمة رهن أبويها طالما لم تتزوّج.

١ . لمَ إبنة بطرس عاجزة

كلّ الجمع بكى وتوسّل إلى بطرس ليتصرّف بحيث تشفى ابنته. فقال لهم بطرس: «بالربّ الحيّ، ذلك مفيد لها ولي. فيوم رُزقت بها عرضت لي في الواقع رؤيا، وقال لي الربّ: "يا بطرس، وُلِدت لك اليوم محن عظيمة. لأن هذه ستؤلم نفوساً كثيرة، إذا احتفظ جسدها بصحّته." إنما أنا لم أحمل الرؤيا على محمل الجد.

«وعندما بلغت الفتاة العاشرة من العمر، غدت حجر عثرة لجمع من الرجال؛ وأرسل بطليموس، وهو رجل ثري في هذا العالم، يطلبها للزواج وقد رأى الفتاة في الحمّام[١] مع أمها. ولم توافق أمها. فجدّد مساعيه مرّات عدة. ولم يستطع [...][٢] وقد وضع رجال بطليموس الفتاة الصغيرة أمام باب المنزل ومضَوا. وحين علمنا بذلك، نزلنا أُمها وأنا ووجدنا ابنتنا الصغيرة وجانب كامل من جسدها مشلول ومتصلِّبة من أصابع القدمَين إلى الرأس. فحملناها ممجِّدَين الربّ الذي صان خادمته من العار، والدَّنس والهلاك. هاكم لأي سبب تبقى الفتاة الصغيرة في هذه الحال حتى اليوم.

٢. إهتداء بطليموس

«الآن ينبغي لكم أن تعرفوا أيضاً ما فعل بطليموس. لقد عاد إلى ذاته حزيناً ليلاً نهاراً لما حدث له، وبسبب الدموع المسكوبة بغزارة، أصبح أعمى وقرّر أن يمضي ويشنق نفسه. وإذا به في الساعة التاسعة من ذلك اليوم، وفيما كان وحيداً في غرفة نومه، يرى نوراً

١ ـ هذا الحافز موجود في العهد القديم، لكنه غالب خصوصاً في الرواية اليونانية، حيث يُقدَّم الجمال عطية مشؤومة، وترد حوادث خطف ومشاريع انتحار.

٢ ـ يروي النص الناقص خطف الفتاة وكيف شلَّت بصلاة الرسول لانقاذ بكارتها.

عظيماً أضاء كلّ المنزل وسمع صوتاً كان يقول له: "يا بطليموس، ان الله لم يخصِّص أنيته[١] للفساد والعار. وبما أنك آمنت أنت بي، كان عليك ألا تلطِّخ العذراء التي هي خاصتي والتي عليك أن تتعرّف فيها إلى أُخت لك[٢]، لأنني أصبحت بالنسبة إليكما روحاً واحدة. إنما قُمْ وامضِ على عجل إلى منزل الرسول بطرس وسوف ترى مجدي، وسيُخبِرك.»

«والحال ان بطليموس لم يبدُ مُهمِلاً، فأعطى رجاله الأمر ليُرشِدوه ويقودوه إليّ. وحين قَدِم إليّ، قال كلّ ما حدث له بقدرة يسوع المسيح ربّنا. إذاك رأى بعينَي جسده وعينَي نفسه، ورجا جمعٌ في المسيح؛ وصنع لهم صالحات وقدّم لهم عطيّة الله. وبعد ذلك دخل بطليموس راحته، فغادر هذا العالم ومضى إلى ربّه.

«والحال انه حين أوصى، كتب قطعة صغيرة باسم ابنتي التي بفضلها آمن في الواقع بالله وشفي. وأنا الذي عُهِد إليّ بالقُوامة، قمت بما عليّ كرجل غيور، فبعت الحقل، والله شاهد على ذلك، فلا أنا ولا ابنتي [...][٣] نعم، بعت الحقل من دون أن أحتفظ بشيء من ثمن الحقل، إنما خصّصت المبلغ كاملاً للحزانى.

«إعلَمْ إذاً، يا خادم[٤] يسوع المسيح، ان الله يتعهّد الذين هم له ويهيىء ما هو صالح لكلّ واحد، بينما نعتقد بأن الله نسينا. الآن إذاً، أيها الإخوة، لنتحسَّرْ، ونسهَرْ ونصلِّ. ورأفة الله ترمقنا، هي التي ننتظرها.»

---

١ ـ إستعارة تشير إلى المرأة، وإلى الجسد البشري أو الشخص عموماً.

٢ ـ تلميح إلى فرض المتعفِّفين الطهارة بعد المعمودية، حتى بالنسبة إلى الأزواج الذين عليهم أن يعيشوا إخوةً وأخوات.

٣ ـ في النص الناقص القصير ان بطرس وابنته لم يحتفظا بالمال.

٤ ـ الذي طرح السؤال في البدء.

وألقى بطرس خطباً كثيرة في حضورهم كلّهم، ممجِّداً إسم المسيح الربّ، وأعطاهم كلّهم خبزاً[١]. وبعدما وزّعه، قام وعاد إلى بيته.

عمل بطرس[٢].

١ ـ خبز الإفخارستيّا.

٢ ـ العنوان الموضوع في المفرد في آخر النص، يفيد في الإشارة إلى فصل مأخوذ من كتاب.

إبنة البستاني

سأل بستاني كانت له إبنة عذراء - كانت الولد الوحيد لأبيها - بطرس أن يتلو صلاةً من أجلها. وبعدما صلّى، أجابه الرسول بأن الربّ سوف يمنح هذه الأخيرة ما يناسب نفسها. وعلى الفور ماتت الفتاة. {يا للمكسب الملائم والمُستحَبّ دوماً عند الله الإفلات من عجرفة اللحم وكبرياء الدم!}[1]

لكن ذلك الشيخ، المرتاب وغير المعترف بعظمة نعمة السماء هذه، والجاهل إذاً خيرات الله، توسّل إلى بطرس أن يقيم ابنته الوحيدة. والحال ان رجلاً ادّعى بأنه مؤمن جاء يقيم في منزل الشيخ بعد أيام قليلة من قيامتها. فأغوى الفتاة، وما عاد الإثنان إلى الظهور أبداً.

١. خطاب بطرس[2]

قال بطرس، مجيباً على أحدهم الذي كان يشكو بمرارة موت ابنته: «أه كم من هجمات الشيطان، أه كم من صراعات ضد الجسد، أه كم من مصائب هذا العالم تحاشت. وتذرف دموعاً، كما لو انك لم تكن تعلم ما ربحت أنت بالذات من ذلك.»

---

١ - المقطع شرح على الأرجح، ومن تأليف واضع النص.

٢ - لدينا هنا جزء من جواب بطرس على تأوّهات البستاني.

أعمال بطرس وبولس

مؤلَّف هذا المنحول، الذي يبدو من القرن الثالث م. جمع أعمال بطرس وأعمال بولس في نتاج جديد، مهذَّب من عناصر الهرطقة التي يحتويها النصان الآنفان. جزء من النص مخصَّص لمقاومة سمعان الساحر، أحد قدامى معلِّمي الغنوصية.

إذ جاء الرسول بولس إلى روما، عندما كان نيرون امبراطوراً، قام خصام عظيم بين اليهود والمُشركين الذين سمعوا كلام الرسول. وكان اليهود يعيبون على المُشركين تعلُّقهم بأفكار جديدة بدلاً من أن يكونوا أُمناء لشريعة أوصى بها الربّ على لسان موسى، وكانوا يلومونهم قائلين: «إنكم تظلون في عمى موازٍ لعمى عبدة الأوثان، ومثلهم، تبقون مكروهين لدن الربّ.»

وعندما كان اليهود يقولون هذه الأشياء وأخرى شبيهة، كان المُشركون يجيبون: «ما أن سمعنا الحقيقة، حتى تبعناها وتخلَّينا عن أخطائنا؛ أما أنتم، فقد قرأتم فضائل آبائكم، ومعجزاتِ الأنبياء، وتلقّيتم الشريعة، وقطعتم البحر من دون أن تبلّلوا أقدامكم، ورأيتم أعداءكم مُبتَلَعين، وظهر عمود سحاب في السماء خلال النهار وآخر من نار خلال الليل، وأُعطيتم المنّ من السماء، وجرت مياه من الصخر لأجلكم، وبعد كلّ ذلك، صنعتم لكم وثناً برأس عجل وعبدتم هذه الصورة. ونحن، إذ لم نجد أي معجزة، اعترفنا بالله ذاك الذي رذلتموه، في كفركم.»

١. وعد إبراهيم

وعندما كانوا يتخاصمون على هذه الصورة، قال لهم بولس الرسول إن عليهم ألا يستسلموا هكذا لشجارات في ما بينهم، بل عليهم أن يعتبروا بالأحرى أن الوعد الذي أقامه الله لإبراهيم قد تمّ؛ فقد وعده بأن كلّ الأمم ستكون لها حصة في ميراث نسله، فلا تفضيل لأحد لدى الله. لأن كلّ الذين يكونون قد خطئوا ضد الشريعة سيُحاكَمون بحسب القانون، والذين يكونون قد أخلّوا بالواجب بلا شريعة يهلكون بلا قانون، فثمة في مشاعر الإنسان قداسة إلى حد أنه يُثني طبيعياً على ما هو خير وينبذ ما هو شر، من أجل أن يعاقب مَنْ هم منبوذون ويكافىء مَن استحقوا فعلاً.

٢. فرح إبراهيم

وإذ قال بولس هذه الأشياء وأخرى مماثلة، نتج من ذلك أن اليهود والمُشركِين لانوا. لكن زعماء اليهود كانوا يُلِحّون، وقال بطرس للذين كانوا يضغطون عليه ليحرّم دخول معابدهم: «إسمعوا، يا إخوتي؛ إن الروح القدس وقد وعد الأب داوود بأن يُجلِس على كرسيه وريثاً آتياً من ثمرة بطنه، مَنْ قال له الآب من أعلى السماء: "أنت ابني، لقد ولدت اليوم"، إنه هو الذي صلبه أُمراؤكم حقداً عليه. ومن أجل إتمام الخلاص الضروري للجنس البشري، أراد أن يتألّم كلّ هذه الأمور، وكما أن حواء صُنِعَت من ضلع آدم، كذلك من ضلع يسوع الموضوع على الصليب يجب أن تُصنَع الكنيسة التي لا عيب فيها ولا تغضُّن.

«إن الله فتح هذا المدخل لكلّ أبناء إبراهيم، وإسحق ويعقوب، من أجل أن يكونوا في إيمان الكنيسة وليس في نكث العهد. اهتدوا إذاً

وادخلوا فرح إِبراهيم أبيكم، فما وعده به الله تمّ. لذا هتف النبي: "الربّ عاهد على ذلك ولن يندم، أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكيصادق." وأصبح كاهناً على الصليب عندما قدّم من أجل العالم بأسره قربان جسده وذبيحة دمه.»

وإذ قال بطرس وبولس هذه الأشياء وأخرى مماثلة، آمن قسم كبير جداً من الشعب وقليلون جداً اتخذوا قراراً برفض تعاليم الرسولَين وتحذيراتهما علانيةً.

٣. إهتداء كثر

لكن زعماء المعبد وكهنة المُشركِين، وقد رأوا سلطتهم يدمّرها وعظ الرسولَين، تصرّفوا عبر أقوالهم بحيث أثاروا تذمّر الشعب من بطرس وبولس. وشكوهما لدى نيرون، وعظّموا سمعان الساحر أمام الامبراطور. ففيما اهتدى إلى الربّ عدد لا يُحصى من الأشخاص عبر خطابات بطرس، حدث أن ليفية، امرأة نيرون، وأَغريبين، امرأة الحاكم أَغريبا، اهتدتا، وابتعدتا عن زوجَيهما. ومن جراء وعظ بولس تعلّق ناس كثر بالربّ، متخلّين عن الخدمة العسكرية؛ وكان يأتي إليه ناس من غرفة الملك، ولا يريدون استئناف الخدمة، وقد أصبحوا مسيحيين، ولا العودة إلى القصر.

٤. سحر سمعان

وتجرأ سمعان، يدعمه تذمُّر الشعب المؤذي، على الإكثار من اغتياب بطرس، مؤكداً أنه كان ساحراً ودجّالاً. وكلّ الذين كانوا يرَون باندهاش الآيات التي يصنعها سمعان كانوا يؤمنون به. كان يحرّك ثعباناً من فولاذ وتماثيل من فولاذ؛ ويُظهِر نفسه راكضاً عبر الفضاء.

٥. وآيات بطرس

لكن بطرس كان يشفي المرضى بكلمته، ويجعل العميان، بمواعظه، يرون، ويطرد الشياطين بأمره ويقيم الموتى. وكان يقول للشعب ينبغي ليس فقط تحاشي الافتتان بسمعان، بل أيضاً اكتشاف احتيالاته خوفاً من الظهور على انتماءٍ إلى الشيطان.

٦. امام نيرون

وحدث إذاً أن كلّ الرجال الوَرِعين كانوا يكرهون الساحر سمعان ويؤكدون أنه كان رجلاً فاسداً، فيما الذين كانوا يؤمنون بسمعان يؤكدون أن بطرس كان مولعاً بالسحر وأن سمعان كان إلهاً. وبلغت هذه الأقوال الامبراطور نيرون، فأمر بأن يأتي سمعان إليه. وإذ كان سمعان في حضرة الامبراطور، بدأ يغيّر هيئته، بحيث ظهر في البدء طفلاً، ومن ثمّ شيخاً، وبعد ذلك يافعاً. وكان يغيّر جنسه وعمره، وبوساطة الشيطان، يتّخذ هيئات مختلفة كثيرة. وعندما رأى نيرون ذلك، ظنّ بأن سمعان كان ابن الله. لكن الرسول بطرس كان يقول إنه كان لصّاً كاذباً، وساحراً حقيراً، عدوّ كلّ وصايا الله، وخصم الحقيقة، وإن إرادة الله سوف تبيّن إثمه أمام أنظار الجميع.

٧. تحريض الامبراطور

إذاك قال سمعان، وقد أتى إلى نيرون: «استمعْ إليّ، أيها الامبراطور السامي. أنا ابن الله وقد نزلت من السماء. طالما بطرس، الذي يدّعي بأنه رسول، كان وحيداً، كنت أحتمله. الآن تضاعف الشر. فبولس، الذي يتكلّم مثله ويتهمني كذلك، يبشّر مثل بطرس. وإذا لم تُقدِم على إهلاكهما، فمن المؤكّد أن إمبراطوريتك لن تثبت».

عندها أمر نيرون، ملؤه القلق، بأن يؤتى ببطرس وبولس إلى أمامه. وفي الغد، مثل رسولا المسيح والساحر سمعان أمام نيرون، فقال سمعان: «ها هما تلميذا ذلك الناصري من نسل اليهود.» وقال نيرون: «ما هي الناصرة؟» فأجاب سمعان: «إنها مدينة في اليهودية قاومتكم دوماً، ومنها خرج معلّمهما.» وقال نيرون: «إن الله يعلّم كلّ البشر ويحبّهم، فلِمَ تضطهدهما؟» فقال سمعان: «إنه جنس من البشر أفسد اليهودية كلّها، لئلا يؤمَن بي.» فقال نيرون لبطرس: «لِمَ تتصرّفون بهذا الغدر ضد أصلكم؟»

عندها قال بطرس لسمعان: «لقد استطعتَ خداع الجميع، إنما أنا أبداً، وبوساطتي، أخرج الله من ضلالهم الذين غرّرت بهم. وعندما تحقّقت من أنك لا تستطيع التغلُّب عليّ، استغرب بأي جسارة تتجرّأ على المثول أمام قيصر، كما لو انك تعتقد بأنك قادر على الانتصار بفنّك السحري على تلاميذ المسيح.»

وقال نيرون: «ما هو المسيح؟» فقال بطرس: «إنه مَنْ يدّعي سمعان الساحر بأنه هو؛ لكنه ليس سوى رجل من الأكثر شراً، وأعماله شيطانية؛ إنما إذا أردت أن تعلم، أيها الامبراطور السامي، ماذا حدث في اليهودية في شأن المسيح، فتناول الرسالة التي بعث بها بيلاطس البنطي إلى كلوديوس، تعلم هكذا كلّ تلك الأمور.» فأمر نيرون بتناول تلك الرسالة وقراءتها في حضرته.

٨. إمتحان سمعان

وعندما قُرِئت الرسالة، قال نيرون: «قُلْ لي، يا بطرس، أَهكذا حدثت تلك الأمور؟» فأجاب بطرس: «نعم، أنا لا أُخادع، هكذا كان، أيها الامبراطور السامي. إن سمعان هذا، ملؤه الأكاذيب ويحيط به

النفاق، يعتبر نفسه إلهاً، على رغم أنه ليس سوى إنسان. إن في يسوع المسيح الانتصار الكامل بالله والإنسان، لأن جلاله الذي لا يُدرَك ارتدى الإنسان، متنازلاً بالمجيء لنجدة البشر. لكن في سمعان جوهرَي الإنسان والشيطان، وعبر الإنسان يجهد لإيذاء البشر.»

وقال سمعان: «إنني مستغرب، أيها الامبراطور السامي، أن يكون لديك اعتبار ما لهذا الرجل الذي ليس سوى خاطىء جاهل، كاذب جداً، ولا يملك موهبة الكلمة، ولا العلم، ومجرَّد من كلّ قدرة. إنما لئلا احتمل أكثر هذا العدو، سوف آمر ملائكتي بالمجيء والانتقام لي منه.» فقال بطرس: «أنا لا أخشى ملائكتك؛ إنهم هم على العكس الذين عليهم أن يخشونني في القدرة والثقة اللتين للمسيح ربّي الذي تريد باطلاً الظهور بمظهره.»

وقال نيرون: «يا بطرس، ألا تخشى سمعان الذي يُثبِت أُلوهته بوقائع؟» فقال بطرس: «إذا كانت فيه الأُلوهة التي تسبر أسرار القلب، فليقُلْ لي الآن بماذا أُفكِّر أو ماذا أعمل. وسوف أُسِرُّ إلى أُذنَيك بفكري، لئلا يجرؤ على الكذب، قائلاً ما أُفكِّر به.» وقال نيرون: «اقترب وقُلْ لي ما تفكِّر به.» فقال بطرس: «مُرْ بأن يأتوني برغيف من الشعير ويُعطوني إياه خفيةً.» وعندما نُفِّذ هذا الأمر وأُعطي الرغيف سرّاً، قال بطرس: «ليقُلْ سمعان ما فُكِّر به، ما قيل أو ما عُمِل.» فقال نيرون: «كيف تريد أن أصدّق أن سمعان يجهل ذلك، هو الذي أقام ميتاً وظهر حيّاً تماماً بعد ثلاثة أيام من قطع رأسه والذي أتمّ كلّ ما قال إنه سيفعله؟» وقال بطرس: «لكنه لم يفعل هذه الأمور أمامي.» فقال نيرون: «لكنه فعلها في حضرتي، لأنه أمر ملائكته بالنزول من السماء والمجيء إليه، وقد جاؤوا.» وقال بطرس: «إذا فعل ما هو الأكثر

إدهاشاً، فلِمَ لا يفعل ما هو أقل من ذلك؟ فليقُلْ ما فكّرت به.» فقال نيرون: «ما رأيك، يا سمعان؟ إنني لا أستطيع أن أُوفِّق بينكما.»

وأجاب سمعان: «ليقُلْ بطرس ما فكّرت به أو ما عملت.» فردّ بطرس: «سوف أبرهن على أنني أعلم ما يفكّر به سمعان عندما أكون قد قلت ما فكّر به.» وقال سمعان: «تعلم، أيها الامبراطور، أن ما من أحد يعرف أفكار البشر، إلا الله وحده؛ ومع ذلك، إن بطرس يكذب.» فأجاب بطرس: «أنت الذي يدّعي بأنك ابن الله، قُلْ إذاً ماذا أُفكِّر به؛ أُكشِفُ، إذا استطعت ذلك، ما عملتُ سرّاً.»

وبارك بطرس رغيف الشعير الذي أخذه وكسره ووضعه في كُمّه الأيمن وفي كُمّه الأيسر. عندها صاح سمعان، ساخطاً لعدم تمكُّنه من الإفصاح عن سرّ الرسول: «لتأتي كلاب كبيرة، وتلتهمه في حضرة قيصر.» وعلى الفور ظهرت كلاب خارقة البنية، وانقضّت على بطرس. لكن بطرس أرى الكلاب الخبز الذي باركه، باسطاً يدَيه للصلاة، فما أن لمحته، حتى اختفت على الفور. فقال بطرس لنيرون: «ها إنني أريتك ليس بكلمات بل بأفعال أنني كنت أعلم ما كان يفكر به سمعان، لأن الذي وعد بأن يستدعي ملائكة ضدي أظهر كلاباً، مبرهناً هكذا على أنه يملك لخدمته، لا ملائكة إلهيين، بل كائنات من طبيعة الكلب.»

عندها قال نيرون لسمعان: «ما هذا يا سمعان؟ أعتقد بأننا هُزِمنا.» فقال سمعان: «هذا الرجل تصرّف بهذا الشكل حيالي في اليهودية، في فلسطين وفي قيصرية، وسبق أن تعلّم وهو يقاتل غالباً ضدي، ما كان مناقضاً له، لهذا السبب يلجأ إلى هذه الوسيلة للإفلات مني. فما من أحد يعرف أفكار البشر إلا الله.»

عندها قال بطرس لسمعان: «أنت تكذب بالتأكيد بظهورك بمظهر إله. فلِمَ إذاً لا تكشف أفكار البشر؟»

٩. برهان الألوهة

إذاك قال نيرون ملتفتاً نحو بولس: «لِمَ لا تقول شيئاً، يا بولس؟» فأجاب بولس: «إعلَمْ، يا قيصر، أنك إذا تركتَ هذا الساحر يُنجِز أموراً بهذه الجسامة، فسوف تنتج من ذلك أضرار عظيمة على الدول، وسوف يقلب امبراطوريتك.» فقال نيرون لسمعان: «بماذا تجيب على ذلك، يا سمعان؟» فقال سمعان: «إذا لم أُبرهن أمامك على أنني إله، فما من أحد يُظهِر لي التكريم الواجب.» وأجاب نيرون: «ماذا تنتظر، ولِمَ لا تبرهن على أنك إله حتى يُعاقَب هذان الرجلان؟» فقال سمعان: «مُرْ بأن يُصنَع بخشبٍ برجٌ عالٍ جداً. وسوف أصعد إلى رأسه وأُنادي ملائكتي، وآمرهم بأن يحملوني، في حضور الجميع، إلى السماء، نحو أبي. وبما أن هذَين الرجلَين لا يستطيعان القيام بمثل ذلك، سوف تُحسِن معاقبتهما على جهلهما.»

١٠. حيلة الكبش

وقال نيرون لبطرس: «لقد سمعتَ، يا بطرس، ما قاله سمعان؛ وسينتج من ذلك أننا سنحصل على إثبات القدرة التي يملكها أو التي لإلهه.» فقال بطرس: «أيها الامبراطور السامي، يمكنك أن تفهم، إذا أردت، أن سمعان مملوء بالشيطان.» وقال نيرون: «لِمَ تتكلّم هكذا مواربةً؟ إن يوم غدٍ سوف يختبرك.» وقال سمعان: «أَتعتقد، أيها الامبراطور السامي، بأنني كنت ساحراً، عندما متّ وقمت؟» لأن سمعان الغادر قال لنيرون، مستخدماً حظوته: «مُرْ بأن يُقطَع رأسي في الظلمات، وإذا لم أقُمْ في اليوم الثالث، فسوف تدرك أنني ساحر؛ إنما إذا قمت، فسوف تدرك أنني ابن الله.» وبعدما أعطى نيرون أوامر تبعاً لذلك، تصرّف سمعان، بفنّه السحري، بحيث قُطِع رأس كبش

ظهر بمظهر سمعان فيما كان يُقطَع رأسه. وعندما حمل الجلاد الرأس إلى النور، رأى أنه رأس كبش، لكنه لم يُرِدْ أن يقول شيئاً للملك.

١١. هجوم بولس

كان سمعان يقول إنه سيقوم في اليوم الثالث، لأنه أخذ رأس الكبش وأعضاءه، ودمه تجمّد. وفي اليوم الثالث، أظهر نفسه لنيرون وقال: «إغسِلْ دمي الذي أُريق؛ فأنا، الذي قُطِع رأسي، قمت في اليوم الثالث، كما وعدتك بذلك.» وعندما قال نيرون: «إن يوم غدٍ سيُخضِعك للامتحان»، التفت نحو بولس وقال: «لِمَ، يا بولس، لا تقول شيئاً؟ مَنْ هو المعلِّم الذي ظفرت به، أو في أي مدنٍ تابعت دروس الفلاسفة؟ أعتقد بأنك مجرّد من كلّ علم، وأنك لا تستطيع إنجاز أي شيء عظيم.» فأجاب بولس: «أَتتصوّر أن عليّ أن اتكلّم ضدّ رجل غادر وساحر لعين، وشقيّ وقف نفسه للموت وسوف يحلّ هلاكه قريباً؟ إنه يتصنّع ما ليس هو، ويخدع الناس بفنّه السحري. إذا أردتَ الاستماع إلى أقواله والتقيُّد بها، فسوف تخسر نفسك ودولك. فهذا الرجل فاسد جداً، وكما الساحران المصريان جانِّيس ومامْبرِيْس، اللذان ضلّلا فرعون وجيشه، سائقَينهما إلى أن يبتلعهما البحر، كذلك هذا الأخير يُقنِع الناس ببراعة أبيه الشيطان، ويُنجِز أموراً كثيرة باستحضار الموتى وبالأسرار المجهولة بين البشر، ويُغري هكذا عدداً كبيراً من الناس غير المحتَرِسين. أما أنا، فأُقاتل في تأوّهات قلبي ومع الروح القدس ضد كلام الشيطان الذي أراه ينتشر بواسطة هذا الرجل، وسرعان ما سوف يُظهِر نفسه بما هو. وكلما تصوّر أنه رُفِع إلى السماوات، كلما غاص في الجحيم.

١٢. عقيدة المسيح

«أما عقيدة معلِّمي التي سألتني في صددها، فليس سوى الذين اعتنقوا الإيمان في طهارة قلبهم مَنْ يمكنهم فهمها؛ لأنني علّمت كلّ ما يمسّ السلام والمحبّة، وفي سفري، من أُورشليم حتى إيلِّيرية، أذعت كلمة السلام، معلِّماً الناس أن يتحابّوا. علّمتهم أن يحترموا بعضهم بعضاً. علّمت المقتدرين والأغنياء عدم التكبُّر وعدم الأمل بتقلُّب رخائهم، بل الأمل بالله. علّمت الناس الاكتفاء بالمأكل والملبس. علّمت المعوزين الاغتباط بعوزهم. علّمت الآباء تهذيب أبنائهم في علم مخافة الله. علّمت الأولاد طاعة أهلهم واتِّباع نصائح شافية. علّمت مَنْ يملكون سداد ما يتوجّب عليهم تماماً. علّمت التجار دفع الضرائب لمأموري الجمهورية. علّمت النساء حُبّ أزواجهن ومخافتهم أسياداً. علّمت الأزواج الحفاظ لزوجاتهم على الإيمان الذي يريدون أن يحافظن تماماً عليه حيالهم؛ فكما يعاقب الزوج زوجةً زانية، كذلك الزوج الزاني تعاقبه يد الله، خالقه. علّمت الأسياد معاملة عبيدهم برفق. علّمت العبيد خدمة أسيادهم بأمانة وكما لو كانوا يخدمون الله. علّمت كنائس المؤمنين عبادة إله واحد كلّي القدرة، غير مرئي ولا يُدرَك.

«إن العقيدة التي علّمتها لم تأتني من أيّ إنسان، بل أعطاني إياها يسوع المسيح، أبو المجد، الذي كلّمني من السماء. وحين أرسلني ربّي يسوع المسيح أُبشِّر، قال لي: إمضِ، وسوف أكون فيك روح الحياة لكلّ الذين سيحيَون فيّ، وسوف أُثبِّت ما كنت لتقوله أو تفعله.»

١٣. إهتداء بولس

وأصاب الذهول نيرون، الامبراطور، وقد سمع هذه الأمور؛ وقال، ملتفتاً نحو بطرس: «وأنت، ماذا تقول؟» فقال بطرس: «كلّ ما قاله بولس هو الحقيقة. فمنذ أعوام كثيرة تلقّيت رسائل من أساقفتنا المنتشرين في الامبراطورية الرومانية كلّها، وأساقفة المدن كلّها تقريباً كتبوا إليّ في صدد أفعاله وأقواله. فعندما كان في عداد مضطهدي إيمان المسيح، ناداه صوت من السماء وعلّمه الحقيقة، إذ لم يكن عن خبث، بل عن جهل عداؤه لإيماننا. لقد كان قبلنا مسحاء كذبة، مثل سمعان، ورسل كذبة وأنبياء كذبة وأرادوا مقاومة الحقيقة، معارضين الأوامر المقدَّسة. ومن الضروري أن يقاومهم هذا الرجل الذي لم يكن له درس آخر، منذ طفولته، سوى سبر أسرار القانون الإلهي، والذي وجد فيه سبلَ أن يكون المدافع عن الحقيقة ومناهض الكذب. وبما أنه كان يضطهد عقيدتنا عن غيرة في الدفاع عن الشريعة، كلّمته الحقيقة من السماء، قائلةً: أنا الحقيقة التي تدافع عنها، كُفّ عن اضطهادي، لأنني أنا التي من أجلها يرَونك تحارب. وعندما تحقّق من أن الأمر كذلك، تخلّى عما كان يدافع عنه، وأخذ يدافع عن درب المسيح هذه، التي هي طريق الذين يسيرون في الطهارة، الحقيقية للذين لا يجهلون أنفسهم، والحياة الأبدية للمؤمنين.»

١٤. حنق نيرون

فقال سمعان: «أيها الامبراطور السامي، أَدرِكْ مؤامرة هذَين الرجلَين ضدي. لأنني الحقيقة وهما يقاومانني.» وقال بطرس: «ليس فيك أي حقيقة، بل كلّ ما تقوله وتفعله آتٍ من الكذب.» فقال سمعان:

«أيها الامبراطور السامي، إن هذَين الرجلَين خدعا حلمك ويريدان غشك.» فقال نيرون: «لكنك لم تُعطِني بَعْدُ البراهين التي وعدتني بها.» وأجاب سمعان: «لقد أثبتّ قولي بآياتٍ وأمور مُدهِشة إلى حد أنني أستغرب أنك لا تزال تبدو ولديك شكوك.» فقال نيرون: «ليس لدي شكوك، ومع ذلك لا يمكنني أن أُعطي موافقتي على ما تقولان كلاكما، إنما أجِبْ على الأسئلة الأخرى التي سأُوجّهها إليك.» وقال سمعان: «لن أُعاود إجابتك.» فأجاب نيرون: «تتكلّم هكذا لأنك تكذب. وإذا كنتُ لا أستطيع أن أفعل شيئاً حيالك، فإن الله، القادر، سيفعل ذلك.» وقال سمعان: «لم يَعُدْ عليّ أن أجيب.» فقال نيرون: «لم يَعُدْ عندي تقدير لك، واعتقد بأنك خدّاع في كلّ الأمور. وماذا بعد؟ أنتم الثلاثة كذبتم عليّ، وأوقعتموني في شكوك إلى حد أنني لا أجد مَنْ يمكنني تصديقه.» قال بطرس: «أنا، أُبشِّر بإله واحد، الآب وبيسوع المسيح ابنه، الذي خلق، مع الروح القدس، كلّ الأشياء، الذي صنع السماء والأرض، والبحر، وكلّ ما تحتويها؛ هو الإله الحقيقي، ولن يكون لملكه انقضاء.» فقال نيرون: «مَنْ هو هذا الملك؟» فأجاب بولس: «إنه مخلِّص الأُمم كلّها.» وقال سمعان: «أنا مَنْ تتحدّثان عنه، واعلما، يا بطرس وبولس، أن ما ترغبان فيه لن يتمّ، ولن أُكرِمكما بالشهادة.» فقال بطرس وبولس: «لا نتمنّى لكَ شيئاً خيِّراً أبداً، لك أنت، يا سمعان، أيها الساحر والمليء فظاظة.»

١٥. برج الامتحان

وقال سمعان: «استمِعْ إليّ، أيها القيصر نيرون؛ حتى تعلم أن هذَين الرجلَين خدّاعان وأنني أُرسِلت من السماء، غداً سوف أصعد إلى السماء لأُسعِدِ مَنْ يؤمنون بي، لكنني سأُظهِر غضبي على الذين

تجرأوا على نكران قدرتي.» فقال بطرس وبولس: «إن الله دعانا إلى مجده؛ أما أنت، فالشيطان دعاك، وأنت تركض نحو العذابات.» وقال سمعان: «أيها القيصر نيرون، إستمعْ إليّ. أَبعِدْ عنك هذَين الأحمقَين، حتى أستطيع عندما آتي إلى أبي في السماء، أن أكون متعطِّفاً عليك.» فقال الامبراطور: «وكيف نحصل على برهان على أنك تصعد إلى السماء؟» قال سمعان: «مُرْ بتشييد برج عالٍ بأخشاب وعوارض؛ وسوف أصعد إليه، وعندما أصبح في أعلاه، يأتي ملائكتي نحوي في الفضاء، لأنهم لا يستطيعون المجيء إليّ على الأرض وسط الخطأة.» فقال نيرون: «أريد أن أرى إنْ كنت ستُنجِز ما تقول.»

١٦. تهديد بطرس

عندها أمر نيرون بتشييد برج عالٍ في ساحة مارس، وفرض على الشعب كلّه وعلى عليّة القوم المجيء لحضور ما سوف يحدث. وفي الغد، أمر نيرون، أمام كلّ هذا الجمع، بطرس وبولس بالمجيء أيضاً، وقال لهما: «اليوم سوف تظهر الحقيقة.» فقال بطرس وبولس: «لسنا نحن مَنْ سيفضح سمعان، سيكون ربّنا يسوع المسيح، ابن الله، الذي يعتبر زوراً أنه هو.» وقال بولس وقد التفت نحو بطرس: «لي الحق بالابتهال إلى الله جاثياً، ولك بالأمر إذا رأيته يقوم بأمرٍ ما؛ لأن الربّ اختارك قبلي.» وكان بولس يصلّي وقد ركع. لكن بطرس قال، ناظراً إلى سمعان: «أَنْهِ ما بدأته؛ إن ارتباكك يقترب، وكذلك البرهان على دعوتنا. لأنني أرى المسيح، ربّنا، الذي يدعوني كما بولس.» فقال نيرون: «وإلى أين تذهبان ضد إرادتي؟» فقال بطرس: «سوف نذهب إلى حيث يدعونا ربّنا يسوع المسيح.» قال نيرون: «مَنْ هو ربّكما؟» فأجاب بطرس: «إنه يسوع المسيح الذي أراه يدعونا.» وقال نيرون:

«هل ستذهبان إلى السماء؟» فقال بطرس: «سوف نذهب إلى حيث يطيب للذي يدعونا.» عندها قال سمعان: «حتى تعلم، أيها الامبراطور السامي، أن هذَين الرجلَين خدّاعان، عندما أكون قد صعدت إلى السماء، سوف أُرسِل ملائكتي إليك، وآتي بك إليّ.» فقال نيرون: «إفعَلْ ما تقول.»

١٧. سقوط الساحر

عندها صعد سمعان إلى البرج، في حضور الشعب كلّه، وأخذ يطير، باسطاً يدَيه، مكلَّلاً بالغار. وعندما رآه نيرون على هذه الصورة، قال لبطرس: «إن سمعان هذا يقول الحق؛ أنت وبولس تخدعان الناس.» فأجاب بطرس: «سوف تعرف من دون أي تأخير أننا صادقان، وأننا تلميذا المسيح، فيما ليس هو المسيح، بل ساحر وصانع رُقىً مؤذية.» وقال نيرون: «أَتثابران على ما تقولان؟ ها إنكما تريانه يدخل السماء.» وعندها إذ نظر بطرس إلى بولس، قال له: «يا أخي بولس، إرفَعْ رأسك وانظُرْ.» وإذ رفع بولس عينَيه ملؤهما دموع، رأى سمعان يطير، فقال: «يا أخي بطرس، ماذا تنتظر؟» أَنْهِ ما بدأته؛ إن الربّ يسوع المسيح يدعونا.» فابتسم نيرون، وقد سمعهما، وقال: «لقد وجدا نفسهما مغلوبَين، ولا يدريان ما يقولان.» فقال بطرس لنيرون: «سوف تتحقّق قريباً من أننا لم نفقد رشدنا.» وقال بولس لبطرس: «أَتِمّ سريعاً ما عليك القيام به.» فقال بطرس، ناظراً إلى ناحية سمعان: «أُناشدكم، يا ملائكة الشيطان، الذين تحملونه في الفضاء، لتُضَلِّلوا قلوب الناس الكافرين، وباسم الله، خالق كلّ الأشياء، ويسوع المسيح الذي قام في اليوم الثالث من بين الأموات، آمركم بأن تكفّوا عن حمله وبأن تُفلِتوه.» وعلى الفور سقط سمعان في

الموضع الذي يُدعى الدرب المقدَّسة، وإذ تحطّم قطعاً أربع، وُجِدت، في الموضع نفسه، أربع حجارة ضخمة بقيت حتى اليوم الحاضر شهادةً على انتصار الرسولَين.

١٨. قطع رأس وصلب

عندها أمر الامبراطور بتكبيل بطرس وبولس، وحرس بعناية جسد سمعان خلال ثلاثة أيام، معتقداً بأنه سيقوم في اليوم الثالث. وقال بطرس: «لن يقوم، لأنه ميت، وهو محكوم بعذابات أبدية.» فقال نيرون: «مَنْ سمح لك بارتكاب جريمة كهذه؟» فقال بطرس: «إنها مقاومة سمعان، ويمكنك أن تُدرِك، أيها الامبراطور، أن هلاكه كان مُجزِياً جداً له، لئلا يزداد عذابه بسبب التجديفات المتكاثرة جداً التي كان يتلفّظ بها ضد الله.»

قال نيرون: «لقد ملأتما عقلي شكوكاً، وسوف أُهلِككما لتكونا عبرةً.» فقال بطرس: «ليست إرادتك التي ستتمّ، بل الوعد الذي أُعطي لنا.» وقال نيرون لواليه أَغريبا: «ينبغي أن يهلك الكافران في العذابات؛ مزِّقْ إذاً هذَين الرجلَين بأمشاطٍ حديدية، وأَحرِقْهما بعد ذلك في مسرح المعارك البحرية، وليتقاسَمْ مصيرهما كلّ الذين يحذون حذوهما.» فقال الوالي أَغريبا: «أيها الامبراطور الفائق القداسة، إنك لا تعاملهما كما يستحقان.» قال نيرون: «لِمَ؟» فأجاب أَغريبا: «لأن بولس يبدو بريئاً؛ بطرس هو مرتكب الجريمة، وهو الكافر.» وقال نيرون: «بأي طريقة يجب أن يهلكا؟» فأجاب أَغريبا: «في ما يبدو لي، من العدل أن يُقطَع رأس بولس، ومُرْ بأن يُصلَب بطرس، الذي ارتكب الجريمة.» وقال نيرون: «إن حكمك ممتاز.»

واقتيد بطرس وبولس إلى خارج حضرة نيرون. وفُصِل رأس بولس على درب أُوستية. وعندما قادوا بولس إلى الإعدام وأُبعِد عن المدينة نحو ثلاثة آلاف خطوة، كان مقيّداً بسلاسل حديدية، ويحرسه ثلاثة جنود، رجال شرفاء المولد. وعندما خرجوا من الباب، صادفتهم صبيّة ورعة على مسافة رمية سهم، وإذ رأت أنهم يجرّون بولس مُثقَلاً بسلاسل، أشفقت عليه، وسكبت الكثير من الدموع. كانت هذه المرأة تُدعى بِرْبِتْوَة، وكانت حولاء. فقال لها بولس، وقد رآها تبكي: «أعطِني خِمارك، وحين أعود، سأُعيده إليك.» فسارعت هذه المرأة إلى إعطاء بولس خِمارها. وقال الجنود، ساخرين منها: «لِمَ تريدين، يا امرأة، خسارة خِمارك؟ ألا ترين أننا نقوده إلى الإعدام؟» فأجابت بِرْبِتْوَة: «أُناشدكم، بسلام قيصر، تغطية عينَيه بهذا الخِمار، عندما تقطعون رأسه.» وهكذا فعلوا. وقُطِع رأسه في الموضع المدعو المياه المخلِّصة، قرب صنوبرة. وبإرادة الله، قبل أن يعود الجنود، الوشاح، الذي أعارته المرأة، أُعيد إليها، ملطَّخاً بقطرات دم، وما أن استخدمته، حتى انفتحت ثانيةً العين التي فقدتها.

١٩. قلب الصليب

وحين وصل بطرس إلى قرب الصليب، قال: «بما أن معلّمي يسوع المسيح نزل من السماء على الأرض، من المُحقّ أن يُرفَع على الصليب، أما أنا الذي يتكرّم بدعوتي من الأرض إلى السماء، فيجب أن يُظهِر صليبي رأسي قرب الأرض وقدماي متجهتان نحو السماء. وبما أنني لست أهلاً لأن أكون على الأرض مثل ربّي، أُقلبوا إذاً صليبي.» فقلبوه إذاً ووضعوا قدمَي الرسول إلى أعلى ويدَيه إلى أسفل. وتجمّع جمهور لا يُحصى لاعناً القيصر نيرون ومليئاً حنقاً إلى حد أنه كان

يريد إحراق الامبراطور نفسه، لكن بطرس كان يمنعهم من ذلك، قائلاً: «منذ أيام قليلة وقد ابتعدت، مستسلماً لطلبات إخوتي، التقيت الربّ يسوع المسيح، وسجدت له، وقلت له: "يا ربّ، إلى أين تذهب؟" فقال لي: "إتبَعْني، لأنني ذاهب إلى روما، لأُصلب هناك ثانيةً." وعدت إلى روما، تابعاً إياه، وقال لي: "لا تخَفْ، لأنني سأكون معك حتى أُدخِلك منزل أبي." إذاً، يا أبنائي، لا تضعوا عراقيل أمام سفري. إن قدمَيّ تطآن الدرب السماوية. لا تحزنوا، بل اغتبطوا معي، لأنني أجني اليوم ثمر أعمالي.»

وعندما تكلّم هكذا، قال: «أشكرك، أيها الراعي الصالح، لأن النعاج التي عهدت بها إليّ تُشفِق عليّ. أطلب منك أن تُشرِكها معي في نعمتك. إنني أُوصيك بالنعاج التي عهدت بها إليّ لئلا تشعر بأنها لم تعد تملكني، لأنك راعيها وبفضلك استطعت تدبُّر هذا القطيع.»

وأسلم الروح، وقد تكلّم هكذا. وعلى الفور ظهر في ذلك الموضع قدّيسون لم يرَهم أحد أبداً من قبل ولا نجح في رؤيتهم من بعد. كانوا يقولون إنهم جاؤوا من أُورشليم لأجل بطرس، وانضمّ إليهم رجل نبيل اسمه مارسيل، تبع بطرس؛ وحملوا جسده سرّاً، ودفنوه تحت بطمة، قرب مسرح المعارك البحرية، في موضع يُدعى الفاتيكان.

٢٠. إهتداءات

والتقى الجنود الذين قطعوا رأس بولس، وقد عادوا إلى نيرون ذلك اليوم بالذات في الساعة الثالثة، بِرْبِتْوَة وقالوا لها: «ما هذا، يا امرأة؟ ها إنك خُدِعت وفقدت خِمارك.» فأجابت: «لقد استرجعت خِماري، واستعادت عيني النظر. والربّ، إله بولس، حيّ؛ وقد رجوته أن أكون أهلاً لأُصبح خادمته.»

ونظر الجنود ورأوا أن خِمارها كان على رأسها، وأن عينها استعادت النظر، فقالوا كلّهم معاً، بصوتٍ عالٍ: «نحن أيضاً عبيد ربّ بولس.»

وابتعدت بِرِبِتْوَة وحملت إلى قصر نيرون خبر أن الجنود الذين فصلوا رأس بولس كانوا يقولون: «لسنا عائدين إلى المدينة؛ لقد آمنا بالمسيح الذي يبشِّر به بولس، ونحن مسيحيون.» عندها أمر نيرون، مُفرِطاً في الغضب، بإلقاء بِرِبِتْوَة في السجن وتكبيلها بالسلاسل. وأمر بقطع رأس أحد الجنود، وشطر آخر ورجم الثالث. وكانت بِرِبِتْوَة في السجن، وفي ذلك السجن نفسه كانت مُعتقَلة عذراء وَرِعَة، اسمها پُوْتانْسِيينَّة، قالت: «أترك أهلي وكلّ أموال أبي، وأريد أن أكون مسيحية.» وروت لها بِرِبِتْوَة كلّ ما كان يتعلّق ببولس، وجاهدت بشجاعة من أجل الإيمان المسيحي. وكانت امرأة نيرون أُخت پُوْتانْسِيينَّة وكانت تعلّمها سرّاً في خصوص يسوع المسيح، قائلةً إن الذين يؤمنون به يتمتّعون بالفرح الأبدي وبما أن كلّ أشياء الأرض فانية، ليس سوى التي للسماء باقية، فهربت امرأة الامبراطور من القصر كما نساء شيوخ عدة.

٢١. موت نيرون

عندها عذّب نيرون بِرِبِتْوَة عذابات عظيمة، وأمر برميها في البحر بعد ربط حجر ضخم إلى عنقها. ورفاتها قرب باب نُوْمانْتَة، وبعدما تحمّلت پُوْتانْسِيينَّة أيضاً تعذيباً قاسياً أُحرِقت في اليوم نفسه. والرجال الذين كانوا يدّعون بأنهم وصلوا من أُورشليم قالوا للشعب كلّه: «اغتبطوا واستبشروا، لأنكم استحققتم نيل شفيعَين عظيمَين هما رسولان قديسان وصديقان للربّ يسوع المسيح. اعلموا أن نيرون

هذا، هذا الملك الشرير جداً، لن يستطيع المحافظة على الامبراطورية بعد قتل الرسولَين.»

وحدث بعد ذلك أن نيرون سبّب لنفسه حقد جيشه والشعب الروماني، فأمروا بتقييده علناً وإهلاكه بميتة كما يستحق ذلك. وإذ بلغه هذا النبأ، استولى عليه فزع غير عادي وهرب وما رُؤِي بَعْدُ ثانيةً. وثمة مَنْ قالوا إنه مات برداً وجوعاً، وقد فرّ إلى الغابات، وإن الذئاب افترسته.

٢٢. الدفن في الغرب

وإذ كان اليونانيون ينقلون جسدَي الرسولَين القدِّيسَين لحفظهما في الشرق، حدث زلزال رهيب، فهرع الشعب الروماني وأوقفهم في موضع يُدعى دياميس، عند الميل الثالث من الدرب الأَپيانية، وأُبقي جسدا الرسولَين هناك عاماً وسبعة أشهر إلى أن أُقيم مدفنان لاستقبالهما. ونُقِلا في موكب يصحبه ترتيل الأناشيد؛ ووُضِع جسد القدِّيس بطرس في الڤاتيكان، وجسد القدِّيس بولس على درب أُوسْتِيَة، على بعد ميلَين من روما؛ هناك تتمّ منافع التضرُّعات إلى أبد الآبدين آمين.

نهاية آلام القدِّيسَين الرسولَين بطرس وبولس.

إستشهاد القدِّيس بطرس الرسول

١ . التبشير بالعفّة

٣٣ كان بطرس في روما، مغتبطاً بالربّ مع الإخوة، وكان يحمد ليلاً ونهاراً للعدد الكبير الذي كان يؤتى به يومياً إلى الإسم القدُّوس[1] بنعمة الربّ يسوع. وحتى خليلات الحاكم أَغريپا كن يذهبن معاً إلى بطرس؛ وكن أربعاً: أغريپينا، نيكاريا، أُفيميا ودوريس. وقد تأثّرن قلبياً إذ سمعن التبشير بالعفّة وكلّ كلمات الربّ، وتوافقن على البقاء نقيّات وعدم تقاسم سرير أَغريپا بعد الآن. لكنه كان يُزعِجهن.

وكان أَغريپا المرتبك والحزين بسببهن ـ لأنه كان مُغرَماً جداً بهن ـ، يراقبهن حتى باقتفاء أثرهن سرّاً إلى حيث يقصدن، فعلم ان ذلك كان إلى قرب بطرس. وقال لهن إذاً عند عودتهن: «هو هذا المسيحي الذي علّمكن عدم إقامة علاقات معي بعد الآن. إعلَمْن انني سوف أُهلِككن وأُحرِق هذا حيّاً.» لكنهن قبلن تحمُّل كلّ المحن[2] من جانب أَغريپا، بدلاً من الاضطرار إلى الخضوع بَعْدُ لنزقه، وقد تقوّين بقدرة يسوع.

٢ . إهتداءات إلى العفّة وتآمر على بطرس

٣٤ إلا أن امرأة خارقة الجمال، هي زوجة أَلبينوس، صديق قيصر، وتُدعى كزانتيپ، كانت تقصد هي أيضاً بطرس مع سيِّدات أُخريات وابتعدت أيضاً عن أَلبينوس. وكان هذا الأخير، المغرم بجنون بكزانتيپ، يستغرب إذاً انها ما عادت تنام في سريره نفسه؛ وغدا

[1] ـ إسم الربّ.

[2] ـ يذكّر هذا الموقف بروايات الحبّ اليونانية التي تمجِّد الوفاء للحبيب في أقسى التجارب والمحن.

حانقاً مثل حيوان متوحِّش، راغباً في قتل بطرس بيده. لأنه علم أنه سبب هذا الانفصال.

إنما كان هناك أيضاً كثير من النساء الأُخريات اللواتي كن ينفصلن عن أزواجهن، يثيرهن التبشير بالعفّة؛ ورجال أيضاً كانوا يبتعدون عن سرير نسائهم، لأنهم كانوا يريدون أن يؤدّوا لله عبادة عفيفة ونقيّة.

لذا كشف أَلبينوس لأَغريبا ما كان يتعلّق به، بما ان صخباً عظيماً جداً كان يرتفع في روما، وقال له: «إما أن تنتقم لي من بطرس، الذي فصل امرأتي عني، أو أنتقم بنفسي.» وقال أَغريبا إنه كانت له المشاكل نفسها بسببه: «لقد فصل عني خليلاتي.» فردّ عليه أَلبينوس: «إذاً ماذا تنتظر يا أَغريبا؟ لنجِدْه ونُعدِمْه باعتباره ساحراً[1]، لنفوز بنسائنا، ولننتقم كذلك للذين لا يملكون سلطة قتله، وفصل عنهم نسائهم أيضاً.»

٣ . تردُّدٌ وهرب بطرس

٣٥ وفيما كانا يفكّران بذلك، أرسلت كزانتيب وقد علمت بنقاش زوجها وأَغريبا، تُنبىء بطرس بالأمر، ليخرج من روما. وكان كلّ الإخوة، كما مارسيلّوس، يضغطون عليه للخروج. لكن بطرس قال لهم: «أَأكون إذاً هارباً[2]، يا إخوتي؟» وكانوا هم يقولون له: «لا، بل المسألة انك لا تزال تستطيع خدمة الربّ.» وخرج وحيداً، طائعاً إذاً إخوته، وهو يقول: «ألا لا يخرج أحد منكم معي، وسوف أخرج وحيداً، بعد أن أُغيِّر لباسي.»

---

١ ـ كان القانون يعاقب بالموت كلّ من استخدم الشعوذات لافتعال علاقة او عرقلة قيامها.

٢ ـ مسألة هرب بطرس وعودته التي تبدو شجباً للفرار من الاضطهاد، موضع جدل في الكنيسة.

انما فيما كان يجتاز باب المدينة، رأى الربّ يدخل روما. فقال له، وقد رآه: «يا ربّ، إلى أين تمضي هكذا؟» وأجابه الربّ: «أدخل روما لأُصلَب فيها.» فقال له بطرس: «يا ربّ، هل ستُصلَب مجدداً؟» قال له: «نعم يا بطرس، سأُصلَب مجدداً.»

ورجع بطرس إلى نفسه وقد رأى الربّ يصعد ثانيةً إلى السماء؛ وعاد إلى روما، مغتبطاً وممجِّداً الربّ لما قاله: «سأُصلَب مجدداً[١]»؛ الأمر الذي سيحدث لبطرس.

٤ . توقيف بطرس والحكم عليه

٣٦ وإذ عاد إلى الإخوة، قال لهم ما رآه. وكانوا هم يحزنون في قلبهم، ويقولون ذارفين الدموع: «نرجوك يا بطرس، إهتمّ بنا نحن المُهتَدين مجدداً[٢].» فقال لهم بطرس: «إذا كانت مشيئة الربّ، فسوف تتحقّق حتى على رغمنا. أما أنتم، فللربّ القدرة على تثبيتكم في الإيمان به، على تأسيسكم عليه وسوف ينمّيكم فيه، أنتم الذين زرعكم، حتى تزرعوا آخرين به، أنتم أيضاً. أما أنا، فطالما شاء الربّ أن أحيا في الجسد، لن أعترض على ذلك قط. وإذا شاء على العكس استردادي، فإنني أغتبط وأنا في الحبور.»

وفيما كان بطرس ينطق بهذه الكلمات وكلّ الإخوة يبكون، إذا بأربعة جنود حنطة[٣] يُمسِكون به ويقودونه إلى أغريپا. وقد أمر هذا الأخير، في شهوته المجنونة، بصلبه بتهمة الإلحاد[٤].

---

١ ـ العبارة للربّ على الأرجح، سابقة أعمال بطرس، وتشير إلى امتداد آلام المسيح عبر آلام الشهداء. أعمال بولس تُثبِت العبارة نفسها.

٢ ـ لا يكفّ المسيحيون عن التذكير بأنهم مبتدئون.

٣ ـ جنود مكلّفون أصلاً بتموين الجيوش ثم التجسُّس ونشاطات الشرطة.

٤ ـ الإلحاد هو عنصر اتهام المسيحيين.

إذاك هرع كلّ جمع الإخوة، أغنياء وفقراء، يتامى وأرامل، ذوي عاهات ومتعافين. كانوا يريدون رؤية بطرس وخطفه، فيما لم يكن الشعب يتوقّف عن الصراخ بصوتٍ واحد: «أي جريمة ارتكبها بطرس يا أغريپا؟ أي شر ألحقه بك؟ قُلْ ذلك للرومان. [لا تحكُمْ عليه][1] لسبب آخر: خوفاً من أن يُهلِكنا الربّ، إذا مات هو.»

لكن بطرس هدّأ الجمع قائلاً، وقد وصل إلى المكان[2]: «أيها الرجال الذين انخرطتم جنوداً للمسيح، أيها الرجال الذين يرجَون في المسيح، تذكّروا العلامات والآيات التي رأيتموني أُحقّقها، تذكّروا رأفة الله، العدد الكبير جداً من الشفاءات التي صنعها لكم. إنتظروا عودته ومجازاته كلاً بحسب أعماله. والآن لا تغضبوا على أغريپا، لأنه في خدمة عمل أبيه[3]، وكلّ شيء يجري كما كشف لي الربّ ان ذلك سيحدث. إنما لِمَ التأخير وعدم تقديمي إلى الصليب؟»

٥ . مقدِّمة خطاب الكشف

وإذ تقدّم إذاً ووقف قرب الصليب، بدأ يقول: «يا إسم الصليب، السر الخفي، أيتها النعمة الفائقة الوصف المعبَّر عنها باسم الصليب. يا طبيعة الإنسان التي لا يمكنها الإنفصال عن الله، أيتها الصداقة التي لا توصف ولا تنفصم، التي لا تستطيع شفاه مدنّسة كشفها. انني أُمسِك بك بقوة، وقد اقتربت من نهاية خلاصي الدنيوي. سوف أُعلِن مَنْ أنت، ولن أكتم قط سرّ الصليب، المخفي قديماً والمحجوب في نفسي.

---

١ ـ العبارة أُعيدت إلى النص موضوع الترجمة.

٢ ـ المقطع سيىء النقل. والمقصود مكان التعذيب الذي يجعله التقليد في ملعب نيرون.

٣ ـ الشيطان.

«ألا لا يكن الصليب ما هو ظاهر بالنسبة إليكم أنتم الذين ترجَون في المسيح. انه في الواقع أمر ما يختلف عما هو ظاهر. وأنتم الذين تملكون القدرة على الإنصات[١]، خصوصاً الآن ولكم إمكان ذلك، أنصِتوا إليّ في الساعة الأخيرة والأهم من حياتي. أُفصلوا نفوسكم عن كلّ ما هو محسوس، لأن كلّ ما هو ظاهر ليس صحيحاً[٢]. إنفصلوا عن الرؤى، إنفصلوا عن السماع، هذه الأفعال الظاهرة. وسوف تعرفون ما حدث للمسيح وكلّ سر خلاصكم. وليكن كلّ ما قيل لكم، أنتم الذين تسمعونه، كأنه لم يكن.

«لكن الساعة أتت بالنسبة إليك يا بطرس، لتُسلِم جسدك للذين سيأخذونه. خذوه إذاً، أنتم الذين وظيفتكم هذه[٣]. لكنني أطلب منكم، أنتم الجلادون، أُصلبوني هكذا: الرأس إلى أسفل، وليس خلاف هذا؛ لِمَ ذلك، سوف أقول الأمر للذين يُنصِتون إليّ.»

٦. كشف السر[٤]

٣٨ وحين عُلِّق بالطريقة التي طلبها، استأنف الكلام: «أيها الرجال، الذين دورهم الإنصات، الآن خصوصاً وقد عُلِّقت، أرهِفوا الأُذن إلى ما سأُعلِنه لكم. إعرفوا سر الطبيعة بأسرها وما كان أصل كلّ الكائنات. ان الإنسان الأول في الواقع، الذي أُمثِّل ذريّته، اظهر وقد

---

١ ـ كما في المذاهب السرية، التلقين مخصَّص للذين هم جديرون بتلقّيه.

٢ ـ نتعرّف هنا إلى العقيدة الأفلاطونية وضرورة رذل شهادة الحواس.

٣ ـ الملاحظة نفسها أبداها سقراط.

٤ ـ هذا العرض غامض جداً. إستوحى المؤلِّف أسطورة في اصل الكون، لا يقدِّم منها سوى بعض العناصر. الإنسان الأول ليس هنا آدم سفر التكوين، بل كائن سماوي، سابق خلق العالم المادي، كما نصادفه في مباحث هرمسية وغنوصية. الصليب ذكّر المؤلِّف بالحد الذي يطوِّق العالم العلوي الذي انحنى الإنسان من فوقه نحو الهاوية.

احتُجِز ورأسه إلى أسفل، مخلوقاً[١] لم يكن موجوداً في ما مضى؛ وفي الحقيقة كان هذا الأخير ميتاً، لعدم امتلاكه حركة.

ذاك إذاً، وقد انجذب نحو الأسفل[٢] وقذف رأسه[٣] نحو الأرض، رتّب كلّ هذا الوجه لنظام العالم، الذي {وهو المُعلَّق نزعةً[٤]} حدّد فيه يساراً ما هو إلى اليمين ويميناً ما هو إلى اليسار، وقلب كلّ علامات طبيعته[٥]، بحيث رأى حسناً ما لم يكن حسناً، وصالحاً ما كان في الواقع سيئاً. في هذا الشأن يقول الربّ بالسر: "إنْ لم تضعوا إلى اليسار ما هو إلى اليمين، وإلى اليمين ما هو إلى اليسار، إلى أسفل ما هو إلى أعلى وإلى الأمام ما هو إلى الوراء، لا، لن تعرفوا الملكوت أبداً." هذه هي الفكرة التي عرضتها أمامكم، والوضع الذي ترونني فيه مُعلَّقاً هو صورة الإنسان الذي أتى أولاً نحو المخلوق[٦].

«أنتم إذاً يا أحبائي، أنتم الذين تُنصِتون الآن كما أنتم الذين سوف تُنصِتون، ينبغي لكم أن تعودوا على عجل إلى الوراء، تاركين الخطيئة الأصلية. ومن المناسب في الواقع ارتقاء صليب المسيح، الذي هو الكلمة المبسوط[٧]، واحداً ووحيداً، الذي يقول الروح عنه: "ما هو الصليب، إنْ لم يكن الكلمة صدى الله[٨]؟" هكذا ان الخشبة المنصوبة

١ ـ هذا المخلوق كُوِّن على صورة الإنسان الأول، وكان يرقد خارج العالم العلوي.

٢ ـ بصورة أم بحيلة؟ النص لا يقول بأيٍّ منهما.

٣ ـ رأسه وذكاءه وقدرته. ذاك أصل الحياة والمبدأ الإلهي في المخلوق.

٤ ـ النص مشوّه.

٥ ـ الإنسان الأول وفق بطرس لعب دوراً مشؤوماً. لذا لا يمكن أن نرى فيه المسيح الإنسان المخلِّص.

٦ ـ أي نحو الكائن الذي على صورته، ونحو العالم الآتي. المؤلِّف يشاطر أفلاطون رؤيته العالم المادي سيئاً.

٧ ـ الصليب هنا مُجسَّد ومُشبَّه بالعقل الأول الرواقي الذي بتوزُّعه في الكون، يؤمِّن لحمة الأخير ووحدته.

٨ ـ الكلمة غير المادي، المعنى الصافي، متميِّز عن الصوت الذي ينقله ومنتسب إليه معاً.

المصلوب أنا فوقها، هي الكلمة، والعارضة هي الصدى، الطبيعة البشرية. أما المسمار الذي يُثبِّت العارضة من وسطها بالخشبة، فهو اهتداء الإنسان وتوبته.

٧ . فعل شكر

٣٩ «هوذا ما عرّفتني إليه وكشفته لي، أيها الكلمة الحيّ، الذي دعوته حالاً «خشبة منصوبة». أشكرك لا بهاتَين الشفتَين المُسمَّرتَين، ولا باللسان الذي تأتي منه الحقيقة والكذب، ولا بالكلمة التي يُنتِجها فن طبيعة مادية؛ بل أشكرك، أيها الملك[1]، بهذا الصوت الذي يُفهَم عبر الصمت[2]: انه لا يُسمَع جهاراً، لا تُرسِله أعضاء من الجسد، لا يدخل آذاناً من لحم، لا تسمعه المادة القابلة الفساد، ليس في العالم ولا يُرسَل إلى الأرض، لا يُكتَب في الكتب، ليس لواحد من دون أن يكون للآخر.

«نعم، بهذا الصمت الذي هو صوتك أشكرك، يا يسوع المسيح. هو الذي به تُحِبُّك الروح التي فيّ، تكلِّمك وتراك، أنت الذي يمكن أن تفهمك الروح وحدها. أنت أبي، أنت أمي، أنت أخي، صديقي، عبدي، مدبِّري[3]. أنت كلّ شيء، وكلّ شيء فيك. أنت الكائن[4]، ولا يوجد شيء آخر سواك وحدك.

«أنتم أيضاً، يا إخوتي، فتِّشوا إذاً عن ملاذ فيه، إفهموا انكم فيه وحده توجَدون، فتنالون ما يقوله لكم، ما لم تره عين ولا سمعته أُذن،

---

١ ـ اسم الذكاء الخلاق لدى أفلاطون والممنوح للعقل الأول عند الرواقيين.

٢ ـ الصمت يشير في الغنوصية والهرمسية إلى دهر، وحتى إلى الأُلوهية الأسمى. تُكرِمه خصوصاً المدرسة الفيثاغورية.

٣ ـ يجمع المسيح فيه كلّ العلاقات العائلية والاجتماعية.

٤ ـ عقيدة وحدة الوجود التي نجدها في الغنوصية والهرمسية.

ولم يرتفعْ إلى قلب الإنسان. لذا نطلب منك ما وعدت بإعطائنا إياه، يا يسوع البلا دنس. اننا نسبِّحك ونشكرك، اننا نمجِّدك، نحن البشر الذين لا نزال ضعفاء، ونعترف بأنك الإله الوحيد وان لا إله إلاّك، ليكن له المجد الآن وفي كلّ الدهور. آمين.»

٨ . موت الرسول ودفنه

٤٠ وفيما كان الجمع الحاضر يردِّد بصوت قوي جداً «آمين»، أسلم بطرس روحه للربّ في لحظة هذه الآمين نفسها. إذاك أنزله مارسيلّوس[١] عن الصليب بيدَيه بالذات، من دون أن يأخذ رأي أحد ـ الأمر الذي لم يكن مسموحاً ـ، وقد رأى أن بطرس المغبوط قضى، وغسله في حليب وخمر. ثم طحن خمسين رطلاً من المسك مع خمسين رطلاً آخر[٢] من المرّ، وعود الطِّيب والعطر، وحنّط الجثة؛ وإذ ملأ ناووساً عسلاً أتّيكياً غالي الثمن، وضعها في مدفنه الخاص.

لكن بطرس قال لمارسيلّوس، وقد ظهر له ليلاً: «أَلَمْ تسمع الربّ يقول: "دعوا الموتى يدفنون موتاهم"؟» وإذ أجاب مارسيلّوس «بلى»، قال له بطرس: «كلّ ما خصّصته للميت، خسرته إذاً. فأنت الحيّ، مثل ميتٍ اهتممت بميت[٣].» ولدى استيقاظه، روى مارسيلّوس للإخوة ظهور بطرس[٤]، وكان باقياً معهم، هم الذين ثبّتهم بطرس في الإيمان بالمسيح، وهو نفسه أكثر ثباتاً بَعْدُ حتى عودة بولس إلى روما.

---

١ ـ يلعب دور يوسف الرامي، إنما من دون طلب إذن من أحد.

٢ ـ المجموع مئة رطل، كما للمسيح (يو: ١٩، ٣٩).

٣ ـ يبدو المؤلِّف شاجباً، على لسان الرسول، البذخ الذي يحيط بطقوس الموت.

٤ ـ بعد "بطرس"، حُذِفت نهاية الجملة على يد المترجم اللاتيني.

٩ . كابوس نيرون[1]

٤١ وإذ علم نيرون لاحقاً أن بطرس غادر هذه المدينة، عنّف الحاكم أَغريپا لإهلاكه إياه من دون أن يطلب رأيه. فقد كان يريد في الواقع إخضاعه لعقاب أكثر استثنائيةً.وأطول لأن بطرس علّم أيضاً بعضاً من العبيد في خدمته وجعلهم يبتعدون عنه[2]. لذا غضب على أَغريپا وما عاد كلّمه خلال مدّة طويلة. وكان يسعى حتى إلى إهلاك كلّ الإخوة الذين علّمهم بطرس.

لكنه رأى، ذات ليلة، أحدهم يجلده ويقول له: «يا نيرون، أنت لا تملك السلطة الآن لاضطهاد خدام المسيح أو قتلهم. حاذِرْ.إذاً لمسهم.» فخاف نيرون من هذه الرؤيا إلى حد انه عفا عن التلاميذ في الفترة التي فارق فيها بطرس هذه الحياة. ومذاك كان الإخوة في حبور وكانوا يغتبطون في الربّ، ممجِّدين بقلب واحد إله ربّنا يسوع المسيح وأباه مع الروح القدس. له المجد إلى دهر الداهرين. آمين.

---

١ ـ هذا الفصل مدسوس بالتأكيد.

٢ ـ هذه الإهتداءات هي التي أطلقت إضطهاد نيرون.

أعمال يوحنا

مؤلَّف يوناني من القرن الثاني م. مخصَّص لنشاط يوحنا الرسول وموته في آسيا الصغرى. وصمه بعض الآباء بالهرطقة، واعتبره نُسّاخ طويلاً جداً. لم يحافظ على محتواه كاملاً ويجب إعادة تركيبه إنطلاقاً من وثائق مختلفة. التأليف ليس متماسكاً، فثمة جزء مصدره حلقات غنوصية (الفصول ٩٤ ـ ١٠٢ و١٠٩)، أُعيد إلى النص غير الهرطوقي بالتأكيد، إنما يشير إلى تصوُّر للمسيحية عميق الروحانية[١].

بعدما قرأوا ثلاثة مقاطع من أعمال يوحنا، أعلن الأساقفة المجتمعون في نيقيا عام ٧٨٧ م. (المجمع المسكوني السابع) ان الكتاب تجديفي ويجب إحراقه. هذه الإدانة التي تلي أحكاماً نقدية للاهوتيين كنسيين[٢] من القرن الرابع م. يمكن أن تفاجىء قراء اليوم. وهي تسمح على الأقل بفهم سبب عدم وصول هذا المؤلَّف إلينا كاملاً.

---

١ ـ تتميّز هذه الروحانية بتماهي يسوع بالله وغياب الفائدة من مصير أرضي للمسيح، وأولوية حياة النفس والتفسير الروحاني للمعجزات.

٢ ـ أُوسابيوس القيصري هو أول مَنْ أكّد وجود أعمال يوحنا وأدرجها في كتابه "التاريخ الكنسي" بين الكتب الحمقاء والكافرة تماماً، الرائجة لدى الهراطقة والتي لم يستخدمها أي كاتب كنسي.

حامت حول أعمال يوحنا شبهة الارتباط بالهرطقة، فقد يكون مؤلّفوها أو محرّفوها هراطقة، وتداولتها حلقات من أصحاب البدع. لذا لم يكن ممكناً الإعتراف بها روايةً مسموحاً بها لحياة يوحنا وموته. وقد هُمِّشت إذاً واستُبعِدت لصالح مؤلَّفات أحدث عهداً وتتوافق في شكل أفضل مع مواصفات سِيَر القدِّيسين المستقيمة: «أعمال يوحنا» للمزعوم بروكور (القرن الخامس م.) في العالم البيزنطي، «فضائل يوحنا» (القرن السادس م.) في العالم اللاتيني، «القصة السريانية ليوحنا» (القرن الرابع م.) في كنيسة سوريا.

المؤلَّف صمد في أشكال رئيسية ثلاثة: أولاً مستقلاً، كما يؤكِّد مخطوط فريد يحتوي الفصول ٨٧ إلى ١٠٥، ثم بين القراءات التي تحفظها الكنيسة للاحتفال بعيد الرسول. هكذا حُفظت قصة موت يوحنا في مخطوطات سِيَر قدِّيسين يونانية وشرقية. أخيراً من ضمن قصص عن يوحنا حلّت محلّ الأعمال القديمة، كما «أعمال يوحنا» للمزعوم بروكور، و«فضائل يوحنا».

يشهد ذلك على أن أعمال يوحنا لم تُرذَل في شكل إجماعي، واحتفظت طويلاً بقراء في حضن الكنيسة بالذات. ونعرف ان المفسِّر المصري ديديم الأعمى استند إليها في نهاية القرن الرابع م. وان القدّيس أوغسطينوس المتحفّظ جداً حيالها، لم يتردّد في استخدامها مرةً في دعم حجته، وان الأساقفة البيزنطيين في مجمع هييريا عام ٧٥٤ م. ذكروها في ملفّهم الخاص بالمراجع المؤيِّدة لمحاربة الأيقونات.

لكننا نعرف أكثر عن القراء الهراطقة لأعمال يوحنا، بدءاً بالحلقات المانوية الأولى. فنحن نجد أصداء لها في أربعة أناشيد من «كتاب المزامير المانوي» المنقول إلى القبطية انما الذي يعود أصله السرياني إلى نهاية القرن الثالث م. ومردّ اهتمام الجماعات المانوية بهذا المؤلَّف وبأعمال منحولة أخرى إلى ان الأخيرة تعظِّم شخصيات رسولية وأفراداً في محيطها يقاتلون من أجل العِفّة ويتخطّون تجارب الألم.

الأسباب نفسها تفسِّر تأييد تيارات مسيحية أخرى هامشية أو هرطوقية للمؤلَّف: أوساط

مـختلفة من المسيحـيـة القديمة في سوريا؛ التيارات التقشُّفية المنشقّة في آسيا الصغرى في القرن الرابع م.؛ التيارات البريسّيليانية[١] في أَسبانيا وجنوب بلاد الغول منذ نهاية القرن الرابع م.

بقي من المؤلَّف خمسة أجزاء تمثّل نحو ثلثيه أو ربما أقل. وهو يروي تنقُّلات الرسول ونشاطاته في مدن عدة من آسيا الصغرى. تلعب أَفسس دوراً مركزياً في النص وعند أسوارها يحفر الرسول القبر الذي سيُدفن فيه.

بداية القصة مفقودة كلّها. تتضمّن إقامة يوحنا في ميلة، ولا بد انها تحتوي مشهد إرسال يوحنا في بعثة إلى آسيا، أو قصة اهتداء الرسول إلى العذريّة. وثمة فجوة في الفصل ٣٦، ثم أخرى عند خطبة طويلة له،

---

١ ـ شيعة أسّسها الأسپاني بريسّليان ـ Priscillien (٣٣٥ أو ٣٤٥ ـ ٣٨٥ م.). وهو علماني غني ومثقّف، عاش حياة تقشُّف نحو العام ٣٧٠. اشتهر ولحق به تلاميذ بينهم نساء ورجال دين منهم أساقفة. عقيدته ثنائية غنوصية ومانوية. اتُّهم برفض المنازلة وبممارسات لا اخلاقية وإدانة الجسد والزواج والنصح بقراءة الكتب المنحولة. سيم أُسقفاً على أَڤيلا ـ حورب. أعدمه الإمبراطور ماكسيم ضد إرادة البابا سيريس. أول هوطوقي يواجه حكم الموت في التاريخ. كرّمه تلاميذه شهيداً. صمدت شيعته حتى القرن السادس م.

وثالثة قصيرة، ورابعة أخيرة تتناول نهاية إقامته في سميرنة وبقية سفره في "المدن الأخرى" الآسيوية.

ينقل مخطوط البَهْنَسا ٨٥٠ (القرن الرابع م.) بقايا واقعتَين ليوحنا نجدهما كاملتَين في منحول إيرلندي من القرن الخامس عشر، إلى واقعة ثالثة.

يعيد علماءٌ التأليف إلى أحد أشكال المسيحية الشعبية التي لا تهتم بصفاء العقيدة. لكن آخرين يرَون فيه صيغةِ غنوصية. يعني ذلك عدم إمكان إلحاق الكتاب بتيار فكري واحد.

الجزء الغنوصي وُضِع في سوريا وفق بعض مؤشرات النص الذي يتوجّه في مجمله إلى جمهور واسع، بلغة بسيطة واضحة، من دون استشهادات وإسنادات. يستلهم المؤلّف أدب عصره، ونصوص الحُبّ اليونانية، والجدلية الفلسفية.

يبدو المؤلّف مسيحياً وثني الأصل، من وسط مثقَّف، متأثّر بالديانة الروحانية التي تميّز وثنية القرنَين الثاني والثالث م. وربما مصري من النصف الثاني من القرن الثاني م.

[....][1]

١ . من ميلة إلى أَفسس

١٨ كان يوحنا يتعجّل الذهاب إلى أفسس، تدفعه رؤيا. فوجد ديمونيكوس، ونسيبه أرسطوديموس، ورجل ثري جداً اسمه كليوبيوس وامرأة مارسيلّوس صعوبة إذاً في إبقائه يوماً إضافياً في ميلة حيث كانوا يعيشون معه في راحة.

وكانوا رحلوا عند بزوغ النهار، وقطعوا نحو أربعة آلاف ميل عندما جاء صوت من السماء وقال ـ وقد سمعناه كلّنا ـ: «يا يوحنا، عليك أن تمجِّد ربّك في أفسس تمجيداً سوف تُعلَم به أنت وكلّ الإخوة الذين يرافقونك وبعض الذين سوف [يؤمنون][2] هناك بواسطتك.» وكان يوحنا يفكِّر بما يجب أن يحدث في أَفسس، ملؤه فرح داخلي، وقال: «يا ربّ، بحسب مشيئتك ها أنا سائر: ليحصلْ ما تشاء!»

٢. ليكوميد وكليوپترا

١٩ وفيما كنا نقترب من المدينة، جاء للقائنا قاضي أَفسس الأول ليكوميد، الذي كان يُعَدّ بين الرجال الأثرياء؛ وارتمى عند قدمَي يوحنا وتوسّل إليه: «يوحنا هو اسمك. لقد أرسلك الله الذي تبشِّر به لخير امرأتي المشلولة منذ سبعة أيام والتي ترقد، لا شفاء لها. والحال هذه، مجِّدْ إلهك بشفائها والإشفاق علينا! كنت أتهيّأ بالفعل لاتخاذ قرار

١ ـ بداية النص مفقودة ويصعب إعادة تركيبها بدقّة. قبل وصوله للمرة الأولى إلى أَفسس، أقام يوحنا في ميلة. وبعض رفاقه اهتدَوا خلال هذه الإقامة، وأرادوا بقاءه من أجل تثقيفهم هم والإخوة الآخرين، لكن هذه الرغبة عاكستها ضرورة متابعة العمل الرسولي في مكان آخر.

٢ ـ الكلمة أُعيدت إلى النص موضوع الترجمة.

مشؤوم حين أتى أحدهم إلى جانبي وكلّمني هكذا: "يا ليكوميد، توقّفْ عن هذه الفكرة التي تحاربك، انها شريرة؛ لا تبْقَ تحت سيطرتها! لأنني أشفقت على خادمتي كليوپترا وأرسلت من ميلة رجلاً اسمه يوحنا سوف يُنهِضها ويعيدها إليك معافاة.» لا تتأخّرْ إذاً يا خادم الله الذي كشف لي شخصك، بل سارِعْ إلى امرأتي التي لم تعُدْ سوى نَفَس!»

وعلى الفور غادر يوحنا باب المدينة مع كلّ الإخوة الذين كانوا يرافقونه وليكوميد، ليقصد بيت هذا الأخير. إلا ان كليوبيوس قال لخدامه: «أُمضوا إلى عند قريبي كالّيپ واحصلوا منه على استضافة مُمتِعة ـ فأنا أصل في الواقع مع ابنه ـ من أجل أن نجد كلّ الأمور مُحَضَّرة جيداً.

٢٠ ودخل ليكوميد مع يوحنا المنزل حيث كانت ترقد امرأته؛ وأمسك بقدمَيها مجدداً وهو يقول: «أُنظُرْ، يا سيِّد، الجمال الذابل، أُنظُر الشباب، أُنظُرْ في امرأتي المسكينة الزهرة المُمجَّدة جداً التي كانت أفسس كلّها تفتتن بها. يا لي من مسكين، لقد كنت ضحية الحسد، عرضةً للإذلال؛ ان عين أعدائي أصابتني. انني لم أُسىء أبداً إلى أحد ـ وكان في إمكاني مع ذلك إيذاء كثيرين ـ، لأنني كنت منتبهاً إلى ذلك: كنت أسهر على عدم مقاساة مصيبة أو نكبة من هذا النوع. فيم أفادني إذاً هذا الحذر، يا كليوپترا؟ ماذا ربحت بتصرُّفي حتى الآن تصرُّف رجل ورع؟ ان عذابي أرهب من عذاب الكافر حين أراك، يا كليوپترا، راقدةً في هذه الحال.

«لا، ان الشمس في جولتها لن تراني بَعْدُ بما أنك لم تعودي رفيقتي. سوف أتقدّمك، يا كليوپترا، مُنهِياً حياتي. لن أوفِّر حياتي،

على رغم انها لا تزال شابة. سوف أُدافع عن نفسي في مواجهة العدالة، فلي الحق، أنا الذي خدمتها بإنصاف، بأن أُقيم دعوى بسبب حكم ظالم. سوف أُعاقبها بتقديم نفسي لها شبح حياة. سأقول لها: "أنت التي انتزعت مني النور بخطف كليوپترا مني! لقد جعلت مني ميتاً بفرض هذه المصيبة عليّ! لقد أرغمتني على إهانة العناية بحرماني عِلّة حياتي!"».

٢١ وتابع ليكوميد شكواه في شأن كليوبترا، ثم بدأ بالنحيب عالياً، وقد تقدّم نحو السرير. لكن يوحنا جذبه إلى الوراء وقال: «أَوقِفْ هذه الدموع وهذه الأقوال غير المناسبة. لا يليق عدم الثقة حيال الذي بدا لك. إعلَمْ انك سوف تستعيد زوجتك فعلاً. قِفْ إذاً معنا، نحن الذين جئنا لأجلها، ووجِّه الصلاة إلى الله الذي ظهر لك في الحلم ليكشف عني. ماذا يا ليكوميد؟ إستيقِظْ أنت أيضاً. وافتَحْ نَفْسك! أَلقِ بعيداً عنك هذا السُبات العميق. صلِّ إلى الله، توسَّلْ إليه لصالح زوجتك، فيُنهِضها.» انما هو سقط أرضاً واستمرّ في النحيب إلى حد أن قضى.

عندها هتف يوحنا باكياً: «يا للخيانة الجديدة لرؤياي! يا للتجربة الجديدة المُعَدَّة لي! يا للمؤامرة الجديدة للذي تآمر عليّ! ذلك الصوت الذي جاءني من السماء حين كنت في الطريق، أَهو ذلك ما دبّرته على حسابي؟ ما سوف يحدث هنا، حين تسلِّمني لهذا الجمع بسبب ليكوميد، أَهو ذلك ما تنبَأت لي به؟ ان الرجل راقد فاقد الحياة، وأما أنا، فأعلم جيداً انهم لن يدعوني أخرج حياً من المنزل. لِمَ تتأخّر، يا ربّ؟ لِمَ أبعدت عنا وعدك الخيّر؟ لا يا ربّ، أرجوك، لا تدَعْه يبتهج مَنْ يغتبط لمصاب الآخر! لا تدَعْه يرقص مَنْ لا يتوقّفْ عن الهزء بنا!

فليُسرِعْ إسمك القدُّوس ورحمتك! أَقِمْ هذَين الجسدَين الميتَين اللذين أصبحا إثباتاً ضدي!»

٢٢ وفيما كان يوحنا يهتف هكذا، هرعت أفسس كلّها إلى منزل ليكوميد لأنه كان ميتاً. إذاك خاطب يوحنا الربّ، وقد رأى الجمع الكبير الذي جاء: «ها هو الآن وقت التعزية والثقة بك، يا أيها المسيح. ها هو الوقت، بالنسبة إلينا نحن الذين نتعذّب، لتلقّي نجدتك، أيها الطبيب الذي يشفي مجاناً. إحفَظْ من السخرية مجيئي إلى هذا المكان! أرجوك، يا يسوع، أنجِدْ هذا الحشد ليمضي إليك أنت ربّ كلّ الأشياء! أُنظُرْ إلى هذه الشدّة، أُنظُرْ إلى هذَين الكائنَين اللذين يرقدان! أَعِدّ آنية مقدَّسة لخدمتك بين أولئك بالذات الذين تجمّعوا، ما ان يرَوا العطيّة الآتية منك. لأنك أنت بنفسك قلت، يا أيها المسيح: «أُطلبوا تُعطَوا.» لن نطلب منك إذاً، يا أيها الملك، لا ذهباً، ولا فضّة، ولا ثروةً، ولا ملكاً، ولا شيئاً أرضياً وفانياً، بل نفسَين سوف تهدي بهما الذين سيؤمنون بدربك، بتعليمك، بثقتك، بوعدك الممتاز. وحين يكتشفون في الواقع سلطانك بفضل قيامة هذَين الكائنَين الميتَين، سوف يخلص بعضٌ من بينهم. أَمِدّ إذاً بنفسك الرجاء بك! هكذا سوف أقترب من كليوپترا وأنا أقول لها: "قومي باسم يسوع المسيح!"

٢٣ وتقدّم، ولمس وجهها وقال: «يا كليوپترا، هاك كيف يكلّمك مَنْ يملأ هلعاً كلّ والٍ وكلّ مخلوق، كلّ قوة، كلّ هوّة وكلّ ظلمات، الموت المشؤوم، ذُرى السماوات وفجوات الجحيم، قيامة الأموات ونظر العميان، كلّ قوة سيِّد العالم وغطرسة الوالي؛ يقول لك: "قومي، كُفّي عن أن تكوني ذريعة سيئة للحشد العازم على عدم الإيمان، سبباً

لشدّة بالنسبة إلى النفوس القادرة على الرجاء والخلاص."» وعلى الفور صاحت كليوپترا بصوتٍ عالٍ: «انني أقوم، يا ربّ. خلِّصْ كليوپترا التي لك.» وقامت بعد سبعة أيام، وأثار هذا المشهد المُدهِش مدينة أفسس.

واستعلمت كليوپترا عن زوجها ليكوميد. فأجابها يوحنا: «يا كليوپترا، إذا لبثت نَفْسك هادئة وثابتة، فسوف تستعيدين فوراً زوجك ليكوميد، هنا إلى جانبك [...] طالما انك تتجنّبين الإضطراب أو الإثارة بما حدث، لأنك تكونين قد آمنت بإلهي الذي سيُعيده إليك حياً بوساطتي. رافقيني إلى غرفة نومك الأخرى: سوف ترينه ميتاً، ثم قائماً من الموت بقدرة إلهي.»

٢٤ وعندما دخلت كليوبترا مع يوحنا غرفة نومها ورأت نيكوميد ميتاً بسببها، فقدت صوتها، وصرّت بأسنانها، وعضّت لسانها؛ وأغمضت عينَيها وبكت؛ وكانت لابثةً في صمتها منتبهةً إلى الرسول. وأشفق يوحنا على كليوپترا وقد رأى انها لم تكن مجنونة ألماً ولا ثائرة، وابتهل إلى الرأفة الكاملة والخالية من الكبرياء: «أيها الربّ يسوع، أنت ترى هذا الاعتدال، أنت ترى الضغط الذي تفرضه على نفسها، أنت ترى كيف ان كليوپترا تصرخ في نفسها، بصمتها. انها تحبس في داخلها جنون ألمها الذي لا يُطاق. يا ربّ، ان نفسي تُنبىء بذلك: اعلم ان هذه المرأة على وشك الموت بدورها بسبب ليكوميد.» فأجابت يوحنا بهدوء: «من أجل ذلك اتهيّأ يا ربّ، وليس من أجل شيء آخر.»

إذاك تقدّم الرسول نحو السرير حيث كان يرقد ليكوميد، وأمسك بيد كليوپترا وقال: «يا كليوپترا، لأجل الجمع الحاضر هنا وأقربائك الذين جاؤوا كذلك، قولي لزوجك بصوت قوي: "قُمْ ومجِّد اسم الله،

لأنه يُعيد الأموات إلى الأموات!"» وتقدّمت، وإذ خاطبت زوجها كما أُعلِمت، أقامته على الفور. وما ان قام ليكوميد، حتى ارتمى أرضاً وقبّل قدمَي يوحنا. لكن هذا الأخير أنهضه وقال: «لا تقبِّلْ قدمَيّ، يا رجل، بل قدمَي الله الذي بقدرته قمتما كلاكما من الموت.»

٢٥ وقال ليكوميد ليوحنا: «أحثُّك وأستحلفك، بالله الذي أقمتنا باسمه، ان تبقى معنا، أنت وكلّ الذين يرافقونك [...].» ولمست كليوپترا بدورها قدمَيه وسألته الطلب نفسه. فأجابهما يوحنا: «غداً سأكون عندكما.» لكنهما ألحّا: «لن يكون لنا رجاء بإلهك - نكون حتى قد أُقِمنا عبثاً - إذا لم تبقَ عندنا.» وتأثّر كليوبيوس بنفسه، كما أرسطوديموس وديمونيكوس تماماً، وقالوا ليوحنا: «لنَبْقَ قربهما ليبقيا قرب الربّ من دون أن يعثرا.» إذاك لبث هناك مع الإخوة.

٣ . حكاية الرسم

٢٦ والتقى جمع غفير لأجل يوحنا؛ وفيما كان يخاطب الذين كانوا حاضرين، هرع ليكوميد الذي كان له صديق رسّام موهوب إلى عنده وقال له: «أنت ترى انني كلّفت نفسي بالذات عناء الذهاب إلى عندك. تعال سريعاً إلى منزلي وارسُمْ مَنْ سوف أدلّك إليه بغير علمه.» وسلّم الرسّام إذاك أحدهم الأدوات والألوان التي كان يحتاج إليها، ثم قال لليكوميد: «دلّني إليه، ولا تحمِلْ أي هم بالنسبة إلى الباقي.» وأرى ليكوميد الرسّام يوحنا، وأدناه وحبسه في حجرة كان يمكن أن يُرى منها رسول المسيح. ولبث ليكوميد من بَعْدُ مع المغبوط ينعم بالإيمان وبمعرفة إلهنا. لكنه كان يبتهج أكثر بَعْدُ بما سوف يراه عنده رسماً.

٢٧ في اليوم الأول، خطّط الرسّام ملامحه ومضى. وفي الغد، أضاف الألوان وسلّم الرسم لليكوميد الذي امتلأ فرحاً؛ وعلّقه هذا

الأخير في غرفة نومه وكلّله. وهكذا قال له لاحقاً يوحنا الذي كان يعلم الأمر: «يا إبني الحبيب، ماذا تفعل عندما تنفرد في غرفتك لدى العودة من الحمام؟ حين أصلّي، أَليس معك ومع الإخوة الآخرين أفعل ذلك؟ أَتُخفي نفسك عنا؟» ودخل معه غرفة النوم، وهو يتكلّم ويمزح هكذا، فرأى رسماً مكلّلاً لشيخ، وأنواراً ومذابح موضوعة أمام الرسم. وسأل ليكوميد: «يا ليكوميد، ما معنى قصة الرسم هذه؟ أيٌّ من آلهتك مرسوم هنا؟ انني أرى أنك لا تزال تعيش في الواقع وثنياً.» فأجابه ليكوميد: «لي إلهاً وحيداً مَنْ أيقظني من الموت مع زوجتي. إنما إذا كان يجب أن يُدعى الرجال المُحسِنون إلينا آلهةً، بعد الله، فأنت الرجل المرسوم في هذا الرسم، أنت الذي أُكلِّلك، أُقبِّل وأُكرِم بما أنك أصبحت بالنسبة إليّ مُرشداً صالحاً.

٢٨ فقال له يوحنا، الذي لم يكن قد رأى وجهه أبداً: «أنت تسخر مني، أيها الولد الصغير! أَهذا هو شكلي؟ بربّك، كيف ستُقنِعني بأن هذا الرسم يُشبِهني؟» إذاك حمل إليه ليكوميد مرآة. فنظر إلى نفسه فيها، ثم تأمّل الرسم وقال: «بحياة الربّ يسوع المسيح، هذا الرسم يشبهني؛ أو بالأحرى لا، يا ولدي، ليس أنا، بل صورتي الجسدية. فإذا أراد هذا الرسّام الذي حاكى مظهري أن يمثّلني في رسم، فلن يتوصّل إلى ذلك بهذه الألوان التي منحني أياها، بلوحات خشبية، خطٍّ، ثوبٍ، شكلٍ، وجهٍ، مظهرِ شيخوخة أو شباب، وبإيجاز، بكلّ ما هو مرئي.

٢٩ «انما أنت يا ليكوميد، كُنْ رسّاماً جيداً لي. انك تملك ألواناً يمنحك إياها بوساطتي مَنْ يرسمنا كلّنا لنفسه، يسوع، هو الذي يعرف الوجوه، الملامح، الأشكال، ترتيب نفوسنا وصورها. ها هي الألوان التي سأقول لك أن ترسم بها: الإيمان بالله، المعرفة، المخافة

الدينية، الصداقة، المشاركة، اللطافة، الطّيبة، الحُبّ الأخوي، العفّة، النقاوة، غياب الاضطراب، الخوف، الحزن، عزّة النفس، كلّ جمع الألوان الذي يؤلّف نفسك؛ هذا الجمع هو الذي يُنهِض من الآن اعضاءك الصريعة ويهدّئ تلك التي ثارت، [...]، التي تعالج كلومك، تشفي جروحك، ترتّب شعرك الفوضوي، تغسل وجهك، تهذّب نظرك، تطهّر أحشاءك، تنظّف بطنك، تبتر أعضاءك الجنسية. وباختصار، حين يكون مجموع هذه الألوان المُركّبة والممزوجة قد اتجه نحو نفسك، يقودك ثابتاً، صقيلاً وصلباً نحو ربّنا يسوع المسيح. إنما ما صنعته تافه وناقص، فقد رسمت رسماً ميتاً لميت، بدلاً من رسم حيّ في نفس حيّة. لا، لتَبْقَ هذه الأمور في عيوننا غير جديرة بالسعي إليها، فكلّ ذلك مُضحِك! لنهتَمّ بالأحرى بتلك التي هي حقاً جديرة بالسعي إليها!»

٤ . شفاء عجوزات مسرح أَفسس

٣٠ إذاك أمر ڤيروس، الأخ الذي كان يخدمه، بأن يأتي بكلّ عجوزات مدينة أَفسس كلّها، وبدأ يحضّر مع كليوپترا وليكوميد ما كان ضرورياً للاعتناء بهن. وعاد ڤيروس وهو يقول له: «يا يوحنا، بين عجوزات الموضع اللواتي يتعدّين الستين عاماً، لم أجِدْ سوى أربعٍ جسدهن في صحة جيدة؛ أما الباقي، فبعضهن مشلولات، والأُخريات صمّاوات، وبعضهن مصابات بالتهاب المفاصل أو بأمراض مختلفة أيضاً.» وحين سمع يوحنا ذلك، لبث طويلاً صامتاً وفرك وجهه[1]؛ ثم قال: «آه، يا انحطاط سكان أَفسس! آه، يا حال الانحلال، آه، يا حسوراً حيال الله! آه، كم انتهيت إلى خداع مؤمني أَفسس، أيها

[1] حركة ارتباك.

الشيطان! ان يسوع الذي يمنحني حظوته وموهبة القدرة على التحادث وإياه بكلّ اطمئنان، يصرِّح لي الآن بصمت: "أَرسِلْ في طلب العجوزات المريضات، إذهَبْ معهن إلى المسرح واشفِهن بواسطتي."»

٣١ كان الجمع كلّه قد التقى عند ليكوميد لأجل يوحنا؛ وقد استأذنه هذا الأخير إذاً بهذه الكلمات: «إذهبوا كلّكم إلى المسرح، أنتم كلّكم الذين تريدون ان تظهر أيضاً قدرة الله!»

وفي الغد، فيما كان الوقت لا يزال ليلاً، احتشد الجمع في المسرح؛ وحتى الوالي سارع، وقد أُحيط علماً، واتخذ مكاناً مع الجمع كلّه. وكان قاضٍ أول - وجيه لدى الأفسسيين آنذاك - يصرِّح علناً بأن يوحنا يقطع وعوداً مستحيلة وغير معقولة. وكان يقول: «انما إذا كان قادراً على القيام بما أسمع به، فليدخُلْ هذا المسرح العام عند فتحه، فليدخُلْه عارياً، من دون أن يحمل شيئاً في يدَيه ومن دون أن ينطق بذلك الإسم السحري الذي سمعت بأنه يستخدمه!»

٣٢ وحين علم بذلك أمر يوحنا، وقد أغضبه الأمر، بأن تُقاد العجوزات إلى المسرح. وبعدما أُدخِلن كلّهن إلى وسط الشعب الهارع - بعضهن فوق أسرّة، والأُخريات ممدّدات فريسة خمودهن -، حلّ صمت عظيم، وفتح يوحنا فمه وأخذ يخطب:

٣٣ «أيها الأفسسيون، إعلموا أولاً لأي سبب أنا في مدينتكم [...] وأي ثقة عظيمة لي أمامكم، بحيث تظهر لكم جميعاً، حتى في هذا التجمُّع العام. والحال هذه، إذا كنت قد أُرسِلت، فليس من أجل مهمة بشرية، ولا من أجل سفر تافه. ولست كذلك تاجراً يهتمّ بالبيع والمقايضة، بل لهديكم جميعاً، أنتم الذين يسيطر عليكم الكفر والمُباعون لشهوات مُخزِية، إقتلاعكم من الضلال، هوذا ما يريد أن

يفعله بواسطتي مَنْ أُبشِّر به، يسوع المسيح، لأنه رحوم وصالح. بقدرته سوف أُفحِم أيضاً كفر قاضيكم الأول مُنهِضاً النسوة الراقدات أمامكم واللواتي ترَون كلّكم حالهن وأمراضهن، وليس في استطاعتي الآن أن [***][1].

٣٤ هوذا ما أردت أن أزرعه في بادىء الأمر في آذانكم: الإعتناء بالنفس، الذي هو سبب مجيئي إلى عندكم. [...] لا تأملوا بأن يكون أبدياً هذا الزمن الذي هو زمن العبودية. لا تجمعوا كنوزاً على الأرض حيث يذبل كلّ شيء. [...] إذا وُلِد لكم أبناء، فلا تتكلوا على الاعتماد عليهم. لا تحاولوا لأجلهم أن تسرقوا وتمتلكوا دوماً أكثر. [...] لا تحزنوا، أنتم الفقراء، إذا كنتم غير قادرين على إشباع رغباتكم، فالمالكون أنفسهم يحسدون سعادتكم، عندما يصيبهم المرض. وأنتم الأغنياء، لا تغتبطوا لامتلاككم خيرات بعدد كبير، فامتلاكها يجعلكم تسبِّبون لأنفسكم حزناً دائماً حين تكونون بعيدين عنها، وعلى العكس حين تكونون هناك، تخافون أن تُهاجَموا بسببها.

٣٥ «أنت الذي تزدهي بجمال جسدك ونظرك متكبِّر، تأمَّلْ في القبر النهاية الأكيدة لغرورك. أنت الذي تلتذّ بالزِّنى، إعلَمْ ان الشريعة والطبيعة تعاقبانك، وقبلهما الضمير. أنت المرأة الزانية، العاصية الشريعة، تجهلين إلى أين سوف تنتهين. أنت الذي لا تقاسم الذين هم في الحاجة ولديك مع ذلك خيرات مُدَّخَرة، عندما تكون قد غادرت هذا الجسد وفي حاجة إلى رحمة، وأنت تحترق في النار، لن تجد أحداً يرحمك. أنت الغضوب والأحمق، إعلَمْ انك تتصرّف مثل الحيوانات بلا عقل. أنت السكّير والمخاصِم، إعرَفْ أنك تفقد عقلك وقد أصبحت عبد رغبة مُخزِية وقذرة.

---

١ ـ النص مشوَّه.

٣٦ «أنت الذي تلتذّ بالذهب ويسحرك العاج والحجارة الكريمة، هل ترى، إذ يحلّ الليل، ما تُحِبّ؟ أنت الذي تستسلم لفتنة الثياب الناعمة، انما الذي سيموت من بَعْدُ، بِمَ ستنفعك هناك إلى حيث تذهب؟ أنت القاتل، إعلَمْ ان العقاب العادل المخصَّص لك بعد الرحيل عن هذا العالم مُضاعَف. كذلك أنت الساحر، المُشعوِذ، الطمّاع، الغاصب، اللوطي، السارق وكلّكم أنتم الذين تنتمون إلى هذه العصابة، سوف تنتهون بحكم أعمالكم إلى النار التي لا تخمُدْ، إلى الظلمات الهائلة، إلى هوّة العقاب والوعيد الأبدي. وعليه، اهتدوا أيها الأَفسسيون، عالمين بهذا أيضاً: ان الملوك، السادة، الطغاة المتشدِّقين، الذين ربحوا في الحرب يعرفون العذاب، لأنهم يموتون مجرَّدين من أشياء هذا العالم وهم يلتقون في آلام ابدية.»

بعدما ألقى هذا الخطاب، شفى يوحنا كلّ الأمراض بقدرة الله[1].

[........]

٥ . خطاب يوحنا: ظهورات الربّ المختلفة للرسل خلال إقامته الأرضية

٨٧[2] سعى الذين كانوا حاضرين إذاً إلى معرفة سبب ما حدث؛ كانوا قبل كلّ شيء محتارين لأن دروزيانة قالت: «ان الربّ ظهر لي

---

١ ـ خاتمة من وضع الناسخ بالتأكيد. فقد اختار عدم إثبات الخاتمة الحقيقية، وفيها شفاء العجوزات واهتداء أندرونيكوس وامرأته دروزيانة. ربما السبب هو الحاجة إلى الاختصار أو الرغبة في إلغاء نص مشكوك في صحته عقائدياً يمتدح التعفُّف في الزواج.

٢ ـ نص هذا القسم محفوظ في إثبات وحيد من ڤيينا، مستقل عن التقليد المخطوط، لفت انتباه ناسخ بسبب محتواه المسيحاني كما يؤكِّد عنوان المخطوط: «القصة الرائعة للأعمال والرؤيا التي عاينها القدّيس يوحنا اللاهوتي من قِبل ربّنا يسوع المسيح: كيف ظهر في البدء لبطرس ويعقوب وحيث يعرض سر الصليب.» سوء نقل النص يثير مشاكل في تفسيره.

في القبر في ملامح يوحنا وفي ملامح شاب[١].» وفيما كانوا محتارين ولا يزالون غير ثابتين في الإيمان تقريباً، قال يوحنا الذي تقبّل الأمر بلا اعتراض:

٨٨[٢] «أيها الإخوة، ان الارتباك الذي تعانون في شكل إدراك الـ[ربّ][٣] ليس فيه شيء غريب أو خارق، بما اننا نحن الذين اختارهم رسلاً، جُرِّبنا مراراً. أما أنا، فلست قادراً لا على عرض ما رأيت وما سمعت ولا على كتابته لكم. ومع ذلك ينبغي الآن أن أتكيّف مع آذانكم: بحسب قدرات كلّ واحد، سوف أُبلِغكم أموراً يمكنكم أن تصبحوا مستمعين إليها، لترَوا المجد الذي يحيط به، هو الذي كان والذي هو قائم، الآن وإلى الأبد.

«بعدما اختار بطرس وأَندراوس اللذين كانا أخوَين، توجّه نحوي ونحو أخي يعقوب قائلاً: "أحتاج إليكما، تعاليا إليّ." فقال أخي [وقد سمع][٤] ذلك: "يا يوحنا، ماذا يريد أن يقول هذا الطفل على الشاطىء، الذي نادانا؟" وسألت: "أي طفل؟" فأجابني: "الذي يومىء إلينا." قلت: "بسبب سهرنا الطويل في عرض البحر، لا ترى بوضوح يا يعقوب، يا أخي؛ ألا ترى إذاً هذا الرجل الواقف، ذا المظهر الجليل، الجميل والبشوش الوجه؟" فأجابني: "ذاك لا أراه، يا أخي؛ إنما لننزلْ وسنرى

١ ـ عندما اهتدت دروزيانة واختارت التعفُّف، غضب زوجها وحبسها في قبر هو مسرح الظهورَين المحكي عنهما.

٢ ـ الخطاب من ٨٨ إلى ١٠٨ مؤلَّف من وحدتَين مختلفتَي الأصل. الأولى تركّز على تعدُّد أشكال المسيح، والثانية تتناول آلام المسيح وصليب النور. من ٨٨ إلى ٩٣، يروي يوحنا ١٢ ظهوراً بمجد المسيح فيما كان يعيش مع رسله. يكشف الربّ فيها انه إله لا يُدرَك وليس إنساناً، وانه واحد لا يتغيّر في تجاوز تعدُّدية أشكاله الحِسّية، وانه يستطيع نجدة خاصته في أي صعوبة تتعرّض لها.

٣ ـ الكلمة أُعيدت إلى النص موضوع الترجمة.

٤ ـ العبارة أُعيدت إلى النص موضوع الترجمة.

ماذا يعني ذلك." عندها، وبعدما جذبنا القارب إلى اليابسة، رأيناه أيضاً يساعدنا على ربطه.

٨٩ «وعندما ابتعدنا عن هذا المكان، عازمَين على اللحاق به، ظهر مجدداً: كان لناظرَيّ أصلع تقريباً، إنما له لحية كثيفة مبسوطة، بينما كان بالنسبة إلى يعقوب شاباً ذا لحية حديثة العهد. ولبثنا كلانا محتارَين إذاً، نتساءل عما كان معنى ما رأينا. ونحن نتبعه لاحقاً، لم تكن حيرتنا تتوقّف عن الازدياد حين كنا نفكّر بالحدث. «إلا ان هذا الأمر الأعجب بَعْدُ ظهر لي إذاك: كنت أحاول رؤيته في شكل حميم، والحال هذه، لم أرَ أبداً عينَيه مغمضتَين، بل مفتوحتان دائماً. «وغالباً ما ظهر لي، تارةً رجلاً قصير القامة وبشعاً، وتارةً كأن نظره في علو السماء تماماً.

«كانت له أيضاً ميزة أخرى مدهشة: إلى المائدة، كان يضمّني إلى صدره وكنت أحفظ[ـه][١] مضموماً إليّ؛ كنت ألمس إذاك صدره، الذي كان تارةً لطيفاً وناعماً، وتارةً قاسياً وشبيهاً بالحجر، بحيث كنت محتاراً في قرارة نفسي وأتساءل: "كيف يجب أن أفهم ذلك؟" وفيما كنت أفكّر بالأمر، هو [...][٢].

٩٠ «ومرة أخرى، اصطحبني مع يعقوب وبطرس إلى الجبل حيث كان معتاداً الصلاة، ورأينا فيه نوراً إلى حد أن من المستحيل على رجل يلجأ إلى اللغة القابلة الفساد أن ينقل كيف كان.

«ومجدداً أصعدنا نحن الثلاثة إلى الجبل قائلاً: "تعالَوا معي." وعدنا إلى هناك إذاً ولبثنا ننظر إليه من بُعد، فيما كان يصلّي. والحال

١ ـ الضمير أُعيد إلى النص موضوع الترجمة.

٢ ـ المكان شاغر في المخطوط لكلمة أو اثنتين.

هذه، اقتربت أنا منه سراً، بما أنه كان يُحِبُّني، متصوِّراً أنه لن يتبيّن ذلك، ولبثت هناك، وعيناي مُسمّرتان إلى ظهره. ورأيته: لم يكن يرتدي أي ثوب إطلاقاً، كان مجرّداً من كلّ التي رأيناها عليه؛ لم يكن إنساناً إطلاقاً؛ كانت قدماه أكثر بياضاً من الثلج، بحيث ان هذه الأرض كانت حتى منوّرة بلمعانها؛ وكان رأسه يستند إلى السماء، بحيث أطلقت صيحةً، وقد استولى عليّ الخوف؛ وظهر هو إذاك، وقد التفت إلى الوراء، رجلاً قصير القامة؛ وأمسكني بلحيتي وشدّها قائلاً لي: "يا يوحنا، لا تكن كافراً، بل امِنْ ولا تكن فضولياً!" فأجبته: "ماذا فعلت إذاً، يا ربّ؟" وأقول لكم يا إخوتي انني تألّمت - استغرق ذلك ثلاثين يوماً - في الموضع الذي أمسك فيه لحيتي إلى حد انني قلت له: "يا ربّ، إذا كنت آلمتني إلى هذا الحد، بشدّ لحيتي مزاحاً، فماذا يكون عليه الأمر لو تلقّيتني بضربات؟" وصرّح لي: "في المستقبل، إحرَصْ على ألا تجرِّب مَنْ لا يمكن أن يُجَرَّب."

٩١ «وكان بطرس ويعقوب يغضبان فيما كنت أتكلّم مع الربّ، وكانا يومئان إليّ لآتي إلى قربهما، تاركاً الربّ وحيداً. وذهبت، وسألاني هما الإثنان: "الشيخ الذي كان يتكلّم مع الربّ على المرتفع، مَنْ كان؟ لقد سمعناهما يتحادثان بالفعل." فأجبت مفكِّراً بنعمته الوافرة، بوحدانيته ذات الوجوه الكثيرة، بحكمته المُلتفِت ناظراً في استمرار نحونا: "سوف تعلمان ذلك منه إذا سألتماه."

٩٢ «ومرةً أخرى أيضاً، كنا نحن كلّنا، تلاميذه، نائمين في منزل في جنِّيسارت؛ وكنت وحدي أراقب ما سوف يفعل، تحت ردائي. وسمعته هو أولاً يقول: "يا يوحنا، نَمْ!" وإذ تظاهرت من بَعْدُ بالنوم، رأيت أحداً ما آخر، شبيهاً به، وسمعته يقول لربّي: "يا يسوع، ان

الذين اخترتهم لا يؤمنون بَعْدُ بك." وقد أجابه ربّي: "تقول الحق. انهم في الواقع بشر."

٩٣ «أيها الإخوة، سوف أروي لكم مجداً آخر. كنت أحياناً حين أريد الإمساك به، ألقى جسداً مادياً وصلباً؛ إنما عندما كنت ألمسه في أحيان أخرى، كانت الماهية غير مادية، غير جسدية وكأنها غير موجودة كلّيّاً.

«وحين كان يدعوه أحد الفرّيسيين ويلبّي دعوته، كنا نذهب معه، وكان كلّ واحد من بيننا يتسلّم رغيفاً يوزّعه المضيفون؛ وهو أيضاً كان يتسلّم واحداً منها. وكان يبارك رغيفه ويقسمه في ما بيننا: بهذه القطعة الصغيرة، كان يشبع كلٌّ منا، وتلبث أرغفتنا كاملةً، بحيث كان يصيب الذهول مَنْ دعوه.

«وغالباً ما أردت، وأنا أسير معه، أن أرى ما إذا كان اثر خطوته مرئياً على الأرض - فقد رأيت بالفعل انه كان يرتفع فوق التراب -، والحال هذه لم أره أبداً.

«أيها الإخوة، إذا أبلغتكم ذلك، فلأُشجِّع إيمانكم به؛ ان أياته ومعجزاته يجب في الواقع ان تُكتَم الآن، لأن التعبير عنها متعذِّر، ومن دون شك تستحيل على القول والسماع.

٦. خطاب يوحنا: نشيد المسيح ورقصه قبل آلامه[١]

٩٤ قبل أن يقبض عليه البشر الذين لا شرف لهم واليهود الذين تسوسهم حيّة لا شرف لها، جمعنا كلّنا وقال: "قبل أن أُسلَم لهؤلاء

١ - نجد اثاراً من هذا النشيد في تيارات هامشية مختلفة من المسيحية، مثل المانوية والبريسّيانية.

الناس، لنُنشِد نشيداً للآب، ثم نخرج لمواجهة ما يجب أن يحدث." وامرنا إذاً بتشكيل دائرة كنا فيها نُمسِك باليد بعضنا بعضاً، وقال قائماً في الوسط: "أَجيبوني بالآمين." وبدأ إذاك يُنشِد نشيداً قائلاً:

«"المجد لك، أيها الآب!»

«ونحن في حلقةٍ كنا نجيبه بالآمين.

«"المجد لك، أيها الكلمة!

المجد لك، أيتها النعمة! ـ آمين.

«ـ المجد لك، أيها الروح!

المجد لك، أيها القدُّوس!

المجد لمجدك! ـ آمين.

«ـ نحمدك، أيها الآب!

نسبِّحك، أيها النور

الذي لا تسكن فيه الظلمات! ـ آمين.

٩٥ «ـ سوف أقول لماذا نسبِّح:

«" أريد ان أَخلَص

وأريد ان أُخلِّص. ـ آمين.

ـ أريد أن أُنقَذ

وأريد أن أُنقِذ. ـ آمين.

«ـ أريد أن أُجرَح

وأريد أن أَجرَح. آمين.

ـ أريد أن أُولَد

وأريد أن أَلِد. ـ آمين.

«ـ أريد ان أكل
وأريد ان أُؤكَل. ـ آمين.
ـ أريد ان أُنصِت
وأريد ان يُنصَت إليّ. ـ آمين.

«ـ النعمة ترقص[1].

«"أريد ان أعزف على الناي،
أُرقصوا كلّكم! ـ آمين.
ـ أريد ان أُنشِد أُنشودة دينية،
إقرعوا الصدر كلّكم! ـ آمين.

«الأُوغدواد واحد
يُنشِد معنا. ـ آمين.
ـ العدد اثنا عشر
يرقص فوق. ـ آمين.

«ـ إلى الكلّ
يعود الرقص فوق. ـ آمين.
ـ مَنْ لا يرقُصْ
يجهَلْ ما يحدث. ـ آمين.

«ـ أريد أن أهرب
وأريد ان أبقى. ـ آمين.
ـ أريد ان أُرتِّب
وأريد ان أُرَتَّب. ـ آمين.

---

١ ـ تشارك كائنات من العالم الإلهي الرسل في الرقص، وتحمل تسميات تميِّز الغنوصية والهرمسية: أُوغدواد، العدد اثنا عشر، الكلّ.

"- أريد ان أَتوحَّد
وأريد ان أُوحِّد. آمين.
- ليس لي منزل
ولي منازل. - آمين.

"ليس لي مكان
ولي أمكنة. - آمين.
- ليس لي هيكل
ولي هياكل. - آمين.

"- أنا مصباح لك أنت
الذي تنظر إليّ. - آمين.
- أنا مرآة لك أنت
الذي تفهمني. - آمين.

"- أنا باب لك أنت
الذي تقرعني. - آمين.
- أنا درب لك أنت
العابر. - [آمين.][1]

٩٦ "- باستجابتك رقصتي، أَبصِرْ أنت فيّ مَنْ يتكلّم، والزَم الصمت على أسراري، وقد أبصرتَ ما أفعل.

" "أنت الذي ترقص، إفهَمْ ما أفعل،

" "لأنه خاصتك، عذاب الإنسان هذا[2] الذي يجب أن أُقاسيه.

١ - الكلمة أُعيدت إلى النص موضوع الترجمة.

٢ - هذا التعبير الذي يعاود الظهور في نهاية الفصل ١٠١، لا يشير إلى آلام المسيح في إنسانيته، بل إلى تجربة البشر الروحانيين المشتّتين والمنفيين في هذا العالم. ان المخلِّص الذي نزل لجمع هؤلاء البشر الذين يكوِّنون أعضاءه، يعاني بنفسه عذاباً شبيهاً بعذابهم. وهذا الأخير هو تجربة مؤلمة لنقصٍ وتوق إلى العثور ثانيةً على الوحدة المفقودة.

«"لن تستطيع في الواقع ان تفهم إطلاقاً ما تتعذّبه

«"لو لم أُرسَل لأجلك كلمةً من الآب.

«"أنت الذي رأيت ما أفعل، رأيتني معذّباً،

«"وإذ رأيته، لم تبْقَ جامداً، بل حُرِّكت بكاملك.

«"وإذ حُرِّكت [...]، تملك فيّ سريراً لتتمدّد.

«"إرتَحْ إليّ!

«"مَنْ أنا، سوف تعلم حين أرحل.

«"لست كما أُرى الآن.

«"[ما أنا،][1] سوف تراه حين ستأتي.

«"إذا كنت تعرف العذاب، فسوف تملك غياب العذاب.

«"إعرَف العذاب وسوف تملك غياب العذاب.

«"ما لا تعرفه، سوف أُعلِّمك إياه.

«"أنا إلهك، لا إله الخائن.

«"اريد ان توضَع النفوس القدِّيسة في تناغم معي.

«"إعرَف خطاب الحكمة.

«"مجدداً، قُلْ لي:

«""المجد لك، أيها الآب!

«"المجد لك، أيها الكلمة!

«"المجد لك، أيها الروح!"

«"ما هو خاصتي، إذا أردت حقاً ان تعرفه، فها هو:

«"بالكلمة، عرَفت نفسي في كلّ الاشياء ولم أعرف الخجل في شيء.

---

١ ـ العبارة أُعيدت إلى النص موضوع الترجمة.

«"أنا رقصت؛ أنت إفهَم كلّ ذلك،
«"وقُلْ، وقد فهمتني:
«"'المجد لك، أيها الآب. آمين.'"

٧. خطاب يوحنا: المسيح يكشف له صليب النور وسرّه

٩٧ «أيها الأحباء، بعدما أتمّ الربّ هذه الرقصة، خرج معنا. ونحن هربنا كلٌّ من ناحيته، كأننا ضحايا الضلال أو النعاس. وبالنسبة إليّ لم أحضر كذلك عذابه، حين رأيته يتعذّب، بل هربت إلى جبل الزيتون، باكياً بسبب ما حدث. وعندما عُلِّق الجمعة في الساعة السادسة، حلّت ظلمات فوق الأرض كلّها؛ وقام ربّي في وسط المغارة، وأنارني وقال: "يا يوحنا، بالنسبة إلى الجمع تحت، في أُورشليم، أنا مصلوب، أنا مطعون بحراب وقصب، أنا مُسقى خلاً ومرّاً. إنما إليك سوف أتحدّث، وما سأقول، أَنصِت إليه. أنا مَنْ أعطيتك فكرة الصعود إلى هذا الجبل لتُنصِت إلى ما يجب ان يتعلّمه تلميذ من معلِّمه وإنسان من إلهه."

٩٨ «وعندما قال ذلك، أبان لي صليب نور ثابتاً بصلابة، وحول الصليب، جمع عظيم لم يكن له شكل اوحد[١]. وفي الصليب، كان شكل اوحد ووجه يملك الشَّبه. الربّ بنفسه، كنت أراه فوق الصليب: لم يكن له مظهر خارجي، بل صوت فقط ـ ليس ذلك الصوت الذي كان مألوفاً لدينا، بل صوت ناعم، بارّ وإله حقاً ـ، كان يقول لي:

«"يا يوحنا، ينبغي ان يسمع شخص واحد مني هذه الكلمات؛ لأنني أحتاج إلى شخص واحد، ذلك الذي يجب أن يُنصِت. ان صليب

١ ـ التعبير يشير إلى كائنات «الطبيعة السفلية» (الفصل ١٠٠) البعيدة عن قوة صليب النور الخلاصية والموحِّدة.

النور مدعوّ مني، لأجلكم، تارةً 'كلمة'، وتارةً 'عقلاً'، 'مسيحاً'، 'باباً'، 'درباً'، 'خبزاً'، 'بذاراً'، 'ايماناً'، 'نعمة'؛ للبشر هو مدعوّ هكذا. انما هوذا ما هو حقاً، مفهوماً لذاته ومُسَمّىً لأجلكم: انه تحديد الكلّ، إحياء متين لما هو راسخ بإقصائه عما ليست له قاعدة وتنظيم حكمة[١]. والحال ان الحكمة حين تُنَظَّم، إذا بآل اليمين وآل اليسار يولَدون، القوات، السيادات، الطغمات، الأبالسة، الطاقات، النذائر، الهيجانات، الوشايات، الشيطان والأصل السفلي الذي انبثقت منه طبيعة ما هو مخلوق.

٩٩ «"هذا الصليب إذاً، الذي ثبّت الكلّ بالكلمة، الذي رسم حدّاً لما هو مخلوق وسفلي، ثم الذي تدفّق في كلّ الأشياء، ليس الصليب الخشبي الذي ستراه حين تكون قد نزلت من هنا. ولست كذلك مَنْ هو على الصليب، أنا الذي لا تراه الآن، بل تسمع فقط صوته. لقد اعتُبِرت ما لست أنا، وأنا لست ما أنا بالنسبة إلى الجمهور؛ وأكثر من ذلك، ان ما سيقولون في شأني حقير وغير جدير بي. فبما ان مكان الراحة لا يمكن في الواقع ان يُرى ولا ان يوصَف، أنا الذي هو ربّ هذا المكان، لن يمكنني بالأحرى ان أُرى [ولا ان أُوصَف][٢].

١٠٠ «"ان الجمع، حول الصليب، الذي [ليس][٣] له شكل اوحد، هو الطبيعة السفلية[٤]. والذين تراهم في الصليب، إنْ لم يكن لهم كذلك

١ ـ صورة مركزية في نظرية نشوء الكون الغنوصية. الحكمة هي فترةٌ لا نهائيةٌ إلهية تضلّ وتُدخِل فوضى تستدعي تدخُّل المخلِّص. خلق العالم السفلي نتيجة هذا التدخُّل الذي بإعادته الحكمة إلى أصلها، يطرد منها الشهوات التي كانت تثيرها. هذه الشهوات تصبح ماهيات تشكّل العالم السفلي.

٢ ـ العبارة أُعيدت إلى النص موضوع الترجمة.

٣ ـ الكلمة أُعيدت إلى النص موضوع الترجمة.

٤ ـ هذه الطبيعة تواجهها طبيعة الانسان، أي جنس المختارين المدعوّين إلى اتخاذ مكان لهم مع المسيح فوق الصليب، في انتظار تجمُّعهم كلّهم.

شكل اوحد، فلأن كلّ أعضاء الذي نزل لم تُجَمَّع بَعْدُ. انما حين تُرفَع طبيعة الانسان، الجنس الذي ينضمّ إليّ ويطيع صوتي، سيكون الذي يُنصِت إليّ الآن في عداده: لن يعود ما هو الآن، بل سيكون فوق الصليب كما أنا الآن. طالما لا تقول في الواقع انك لي، لستُ ما كنت. انما إذا أنصتّ إليّ، أنت أيضاً، فستكون مثلي وأنت مُنصِت إليّ؛ وأنا سأكون ما كنت حين [***][1]. لا تهتم إذاً بالجمهور واحتقر الذين هم خارج السر. واعلم في الواقع انني كامل قرب الآب وان الآب قربي.

«"هكذا لم أتعذّب أياً من العذابات التي سوف ينسبونها إليّ. وأكثر من ذلك، هذا العذاب الذي أريتك إياه أنت والآخرين وأنا أرقص، أريد أريد ان يُدعى 'سراً'. فما أنتَ، تراه: لقد أبنته لك. إنما ما أنا، أنا وحدي أعلمه، وما من أحد آخر. ما هو خاص بي، دَعْ لي ملكيته، وما هو خاص بك، أَبصِرْه عبري. أما رؤية ما أنا في الواقع، فقد قلت ان ذلك غير ممكن، باستثناء ما تستطيع معرفته باعتبارك قريباً[2]. أنت تسمع القول انني تعذّبت، والحال انني لم أتعذّبْ؛ انني لم أتعذّبْ، والحال انني تعذّبت؛ انني طُعِنت، والحال انني لم أُضرَبْ؛ انني عُلِّقت، والحال انني لم أُعلَّقْ؛ ان دماً سال مني، والحال انه لم يَسِلْ مني. وفي اختصار، ان ما يقوله هؤلاء الناس عني، لم أُعانِه؛ وما لا يقولونه، هو ما تعذّبته. ما هو مقصود سوف أقوله لك في شكل محجوب، لأنني أعلم أنك ستفهم. إفهَمْني إذاً أسير الكلمة، طعن الكلمة، دم الكلمة، جرح الكلمة، تعليق الكلمة، عذاب الكلمة، مَسْمَرَة الكلمة، موت الكلمة. وبعد إفراد مكان للإنسان، سوف أتكلّم هكذا: في المقام الأول،

---

١ ـ النص مشوّه.

٢ ـ أي من جنس المختارين.

إفهَم إذاً الكلمة؛ ومن بَعْدُ ستفهم الربّ؛ وفي المقام الثالث الإنسان وما تعذّبه."

١٠٢ «حين قال لي أنا هذه الكلمات، وأخرى لا استطيع ان ارويها، بحسب مشيئته، رُفع من دون ان يراه أحد في الجمع. وعندما عاودت النزول، كنت اسخر من كلّ اولئك الناس وأنا اسمعهم يقولون لي أنا، ما كانوا يقولونه عنه؛ وكنت احفظ في داخلي هذا اليقين الوحيد: إن الربّ رتّب كلّ شيء في شكل رمزي ووفق تدبير، بهدف اهتداء الإنسان وخلاصه.

٨ . خطاب يوحنا: خاتمة

١٠٣ أيها الإخوة، بما اننا رأينا نعمة الربّ ومحبّته لنا، لنعبُدْه، نحن الذين نلنا رحمته ليس بالأصابع، الفم، اللسان ولا بأي عضو جسدي ما، بل بميل النفس [***][١]. ولنَبْقَ متيقّظين لأنه الآن أيضاً حاضر لأجلنا في السجون والقبور، الأغلال والزنزانات، الإهانات وأعمال العنف، في البحر وعلى اليابسة، في أعمال الجَلد، الإدانات، المؤامرات، المكائد، العقوبات. وفي اختصار، لأنه معنا كلّنا حين نتعذّب، يشاطرنا عذاباتنا. انه لا يحتمل عدم الإنصات إلينا، إذ يبتهل إليه كلٌّ منا، أيها الإخوة؛ إنما لأنه في كلّ مكان، يُنصِت إلينا كلّنا؛ وفي هذه المناسبة أيضاً، بما انه الله لي ولدروزيانة في عزلتنا، يُنجِدنا في رأفته.

١٠٤ «أنتم أيضاً، أيها الأحباء، كونوا إذاً واثقين من ان ما أُعلِنه لكم هو إكرام لا رجلاً بل إله لا يتغيّر، إله لا يُدرَك، إله فوق كلّ سلطان وكلّ قدرة، أقدم من كلّ الملائكة، المخلوقات المذكورة [أو المفكّر بها][٢]

---

١ ـ النص مشوّه.

٢ ـ العبارة أُعيدت إلى النص موضوع الترجمة.

ومجموع الدهور وأقوى منها. إذا ثابرتم على هذا اليقين واهتديتم به، فسوف تمتلكون نفساً أبدية.»

١٠٥ حين نقل ذلك إلى الإخوة، انسحب يوحنا مع أندرونيكوس لنزهة. وكانت دروزيانة تتبعهما على مسافة مع كلّ [الإخوة][١]: كانوا يريدون رؤية الأعمال التي كان يقوم بها وسماع كلمته في كلّ وقت {في الربّ، الآن، دائماً وإلى أبد الآبدين. آمين}[٢].

[....][٣].

٩ . يوحنا والأفسسيون في معبد أرطميس

[٤]٣٧ قال إخوة ميلة ليوحنا: «لقد لبثنا طويلاً في أفسس. إنْ كنت موافقاً، فلنذهَبْ أيضاً إلى سميرنة. فقد علمنا الآن بالفعل ان نبأ آيات الله انتشر أيضاً في هذه المدينة.» وقال لهم أَندرونيكوس: «حين يشاء المعلّم، عندها نذهب!» وصرّح يوحنا: «لنذهَبْ أولاً إلى معبد أَرطميس، لا شك في ان خدام الربّ سوف يظهرون في هذا المكان أيضاً، حين سنظهر.»

٣٨ والحال ان عيد معبد الصنم كان بعد يومين. فصعد يوحنا إلى المعبد. وفيما كان الجميع يرتدون ثياباً بيضاء، لبس يوحنا وحده أسود وصعد هكذا إلى المعبد. وقد احتجزوه وسعَوا إلى قتله. لكن يوحنا صاح: «أيها الرجال، أنتم مجانين لضربي أنا خادم الله الأحد!» ثم صعد إلى مَرْقى مرتفع وخاطبهم:

---

١ ـ الكلمة أُعيدت إلى النص موضوع الترجمة.

٢ ـ المقطع قد يكون تفسيراً أضافه الناسخ.

٣ ـ النص مفقود.

٤ ـ هذا الفصل يلي إقامة طويلة في أفسس بدات بالفصول ١٩ ـ ٣٦ وتوبعت باهتداء دروزيانة وأَندرونيكوس.

٣٩ «أيها الأَفسسيون، انكم تخاطرون بأن يحدث لكم مثلما يحدث للبحر: ان كلّ الأنهار التي تجري وكلّ الينابيع التي تهبط المنحدرات، أمطار العواصف، الأمواج التي تتتالى والسيول المُحَمَّلة حجارةً تصبح مياهاً مالحة بتأثير الخاصة المالحة الموجودة في البحر. كذلك أنتم أيضاً، لعدم تبديلكم موقفكم حتى اليوم حيال الدين الحقيقي، ها انكم فاسدون بممارساتكم الدينية القديمة. كم من معجزات رأيتموها بواسطتي! كم من شفاءات! ومع ذلك تظلّ عيونكم عمياء، وأنتم عاجزون عن استعادة النظر. ماذا إذاً، أيها الأَفسسيون؟ لقد برهنت على جرأة وصعدت في هذه الساعة حتى هذا المعبد الصنمي الذي هو معبدكم. وسوف أُثبِت انكم كفرة إلى أعلى درجة وانكم أموات في ما يمسّ العقل البشري. أُنظروا، انني أقف في هذا الموضع! انكم تقولون كلّكم انكم تعتبرون أَرطميس إلهة: صلّوا لها إذاً لأموت، أنا وحدي. أو بالأحرى، إنْ لم تكونوا قادرين على الوصول إلى هذه النتيجة، فأنا وحدي، بالابتهال إلى الله الذي هو إلهي، مَنْ سيُميتكم أنتم كلّكم، بسبب جحودكم.»

٤٠ لكنهم هم الذين سبق أن عرفوا بالاختبار ورأَوا أمواتاً يقومون، صاحوا: «يا يوحنا، اننا نتوسّل إليك، لا تُهلِكْنا هكذا! اننا نعلم في الواقع انك تستطيع ذلك.» فأجابهم يوحنا: «إذا كنتم حقاً لا تريدون أن تموتوا، فينبغي ان تُخزى عبادتكم. ولِمَ خزيها؟ لتنفصلوا أنتم أيضاً عن ضلالكم القديم. فهذه هي الفرصة: إما ان تهتدوا بتأثير إلهي، أو أموت بتأثير إلهتكم. سوف أُصلّي أمامكم مُبتهِلاً إلى إلهي لتنالوا رحمةً.

٤١ بعدما تكلّم هكذا، تلا يوحنا هذه الصلاة: «يا أيها الإله، أنت الذي هو الإله فوق كلّ الآلهة المزعومة، أنت المرفوض حتى الآن في

مدينة أَفسس؛ أنت الذي أوحيت إليّ بأن أذهب إلى هذا المكان حيث لم أُفكِّر بالتوجّه أبداً؛ أنت الذي أخزيت كلّ نوع عبادة بالاهتداء الذي تصنعه؛ أنت الذي يهزم اسمك كلّ صنم وكلّ شيطان، كلّ قدرة وكلّ طبيعة نجسة؛ الآن أيضاً، بهزمك باسمك الشيطان الموجود هنا[1] والذي يُضلِّ جمعاً غفيراً كهذا، أَظهِرْ رحمتك في هذا المكان، لأنهم ضالّون!»

٤٢ في اللحظة التي كان يوحنا يتلفّظ فيها بهذه الكلمات، تحطّم مذبح أَرطميس قطعاً عدة؛ والقرابين التي كانت موجودة في المحراب سقطت فجأةً كلّها أرضاً وانكسر قوسها[2]؛ وحدث الأمر نفسه لأكثر من سبعة تماثيل؛ وانهار نصف المحراب، بحيث ان الكاهن قُتِل فوراً بسقوط العارضة الرئيسية. إذاك صاح جمع الأَفسسيين: «أحدٌ هو إله يوحنا[3]! أحدٌ هو الله الذي يرحمنا! أنت وحدك إله في الواقع. الآن اهتدينا، لأننا رأينا آياتك. إرحَمْنا بحسب مشيئتك، يا أيها الله، ونجِّنا من ضلالنا العظيم!» وكان البعض بين الجمع يوجِّهون تضرُّعات، ووجههم إلى الأرض؛ وآخرون يركعون ويصلّون؛ وآخرون يبكون ممزِّقين ثيابهم؛ وآخرون يسعَون إلى الهرب.

٤٣ وخاطب يوحنا الربّ، ويداه مبسوطتان، ونفسه ثائرة: «المجد لك، يا يسوعي، إله الحق الوحيد، لأنك تفوز بخدامك بطرق متنوِّعة.» وبعدما قال ذلك، خاطب الجمع: «إنهضوا عن الأرض أيها الأَفسسيون، صلّوا لإلهي، اعترفوا بسلطانه غير المرئي، الذي يظهر في شكل ساطع، وصنائعه الخارقة التي تتحقّق تحت أنظاركم. كان على أَرطميس أن تُنجِدكم بنفسها! كان على خادمها أن يُنجَد

١ ـ المقصود أَرطميس. في الفصل ٤٣ عودٌ إلى التعبير نفسه.

٢ ـ قوس القرابين هو الصفة المميِّزة لتماثيل أرطميس الخاصة بالنذور.

٣ ـ صيغة تهليل مرتبطة باهتداء جمع وثني.

بواسطتها ولا يموت! أين قدرة الشيطانة؟ أين القرابين؟ أين الاحتفالات السنوية؟ أين الأعياد؟ أين الأكاليل؟ أين السحر القوي، وأُخته الشعوذة؟»

٤٤ وبعدما نهض عن الأرض، مضى الجمع على عجل يدمِّر ما كان متبقِّياً من معبد الصنم، وكان يصيح: «نعلم ان إله يوحنا موجود وحده، وهو الذي نعبده من الآن فصاعداً، لأننا كنا موضوع رحمته!» وفيما كان يوحنا ينزل من هناك، كان جمع غفير يلمسه قائلاً: «تعال لنجدتنا يا يوحنا! أَعِنَّا نحن الذين نهلك حمقى! أنت ترى عزمنا! أنت ترى هذا الجمع الذي يرافقك، مُعَلَّقاً بالرجاء بإلهك! لقد رأينا ان الدرب التي كنا ضالِّين فيها قادت إلى الموت. لقد رأينا ان آلهتنا رُفِعت باطلاً. لقد رأينا التفاهة الهائلة والمُخزِية المرتبطة بها. إسمَحْ لنا، نرجوك، بأن نذهب إلى منزلك وبأن نُنجَد من دون أن نصادف عوائق! إستقبِلْنا نحن الذين في موقف لا مخرج منه.»

٤٥ وأجابهم يوحنا: «صدِّقوا تماماً أيها الرجال ان لأجلكم بقيت في أَفسس؛ ان حماسي كان يحملني في الواقع نحو سميرنة والمدن الأخرى، ليهتدي خدام المسيح في هذه الأمكنة هم أيضاً إليه. انما كنت ذهبت من دون أن أجد بَعْدُ كلِّيّاً الراحة فيكم؛ لذا بقيت وصلّيت لإلهي، سائلاً إياه ألا أغادر أَفسس إلا حين أكون قد ثبّتكم. والحال انني وقد رأيت ان ذلك بدأ يحدث وان ذلك يجب أن يستمر أكثر بَعْدُ، لن أترككم قبل أن أفطمكم مثل أطفال من حليب المُرضِعة وأُقيمكم على صخرة صلبة.»

١٠ . قيامة كاهن أَرطميس

٤٦ ولبث يوحنا قربهم إذاً واستقبلهم في منزل أَندرونيكوس. هناك كان بين الناس المتجمِّعين رجل وضع أمام الباب جثّة كاهن أَرطميس؛

ثم ولج الرجل الذي كان قريباً للكاهن إلى الداخل سريعاً مع الآخرين، من دون أن يقول شيئاً لأحد. وبعد العظة للإخوة، الصلاة، الإفخارستيّا ووضع اليدَين على كلٍّ من الأشخاص المتجمِّعين، قال يوحنا بتأثيرٍ من الروح: «بين الناس الذين هم هنا، أحدٌ ما قاده الإيمان بالله نحو [هذا المنزل][1]، وضع أمام الباب كاهن أَرطميس، ثم دخل. حُبّاً بنفسه بالذات، أعطى الأفضلية لهمّه الخاص وفكّر في طويّته: "من الأفضل أن أهتمّ بالرجل الحيّ مني بقريبي الميت. انني أعلم بالفعل انني عندما أكون قد اهتديت إلى الربّ وخلّصت نفسي، لن يرفض يوحنا إقامة الميت كذلك."» إذاك نهض يوحنا من مكانه وتوجّه نحو الموضع حيث اتخذ له مكاناً قريبُ الكاهن الذي خطرت في باله هذه الفكرة. وأمسك بيده وقال: «أَهو حقاً ما فكّرت به، يا ولدي، وأنت آت إليّ؟» فأجاب وقد استولت عليه ارتجافات وارتعاشات: «نعم يا سيِّد!» وارتمى عند قدمَيه. وقال يوحنا: «سيِّدنا هو يسوع المسيح الذي سيُظهِر قدرته في قريبك الميت بإقامته.»

٤٧ وانهض الشاب، وأمسك بيده وقال: «ليس أمراً صعباً على رجل يسيطر على أسرار عظيمة، أن يجهد نفسه أيضاً في الصغيرة. ما هو صعبٌ في القضاء على الأمراض الجسدية؟ [...]» واستأنف متابعاً إمساك الشاب بيده: «يا ولدي، أقول لك، إمضِ وأَقِمْ بنفسك الميت من دون أن تقول شيئاً آخر سوى هذه الكلمات: "ان يوحنا، خادم الله، يقول لك: 'قُم!'" ومضى الشاب نحو قريبه وتلفّظ بهذه الكلمات وحدها، فيما كان جمع عظيم يقف عن جانبَيه؛ ثم عاد إلى الداخل إلى قرب يوحنا مع قريبه حيّاً. ولدى رؤية القائم من الموت، قال يوحنا: «الآن وقد قمت، أنت لا تحيا حقاً، لست مشاركاً ولا وريثاً

---

[1] ـ العبارة أُعيدت إلى النص موضوع الترجمة.

للحياة الحق. أتريد الانتماء إلى الذي باسمه وبقدرته قمت؟ إذاً آمن الآن، فتحيا إلى كلّ الدهور!» فآمن فوراً بالربّ يسوع ولبث مذاك متعلّقاً بيوحنا بأمانة.

١١. قاتل أبيه

٤٨ وفي الغد، يوحنا الذي رأى في الحلم انه كان يخرج من المدينة ويقطع ثلاثة أميال، لم يُهمِل هذا الحلم، فنهض عند بزوغ النهار وانطلق مع الإخوة. وكان رجل من الريف يوبِّخه أبوه لئلا يغتصب امرأة رفيقه في العمل، وقد هدّد هذا الأخير بقتله. لكن الشاب لم يحتمِلْ توبيخ أبيه، فضربه ركلاً بقدمه وأخرسه نهائياً. وحين رأى يوحنا ما حدث، خاطب الربّ: «يا ربّ، هل لأجل ذلك أمرتني بالخروج إلى هنا اليوم؟»

٤٩ ولدى رؤية هذه الميتة ذات الطابع الفجائي، تناول الشاب الذي كان ينتظر ان يوقَف، منجلاً كان يحمله إلى خصره ووثب على عجل نحو مزرعته. إذاك جابهه يوحنا وقال له: «قِفْ، يا أيها الشيطان المملوء كفراً، وقُلْ لي إلى أين تثب مع منجلك متعطِّشاً إلى الدم!» فألقى الشاب مضطرباً أداته أرضاً وأجابه: «لقد قمت بفعل حقير وغير إنساني، واعلم انني سوف أُسجَن؛ لذا قرّرت ان أُنفِّذ في نفسي هذا الشر الأعنف والأقسى: ان أموت بضربة. ان أبي لم يكن يكفّ في الواقع عن حضّي على أن أعيش حياةً بلا زنىً وكريمة؛ لكنني لم أحتمل توبيخاته، فقتلته ضارباً إياه ركلاً بالقدم. إذاك أخذت أركض، وقد رأيت ما حدث، نحو المرأة التي بسببها أصبحت قاتل أبي، لأشرع في قتلها هي، زوجها، وفي نهاية المطاف نفسي، لأنني لم أكن أحتمل فكرة أن يراني زوج هذه المرأة أُقاسي الإعدام»

٥٠ وقال له يوحنا: «من أجل أن أتحاشى، بانسحابي وإهمالك أنت الذي في خطر، ترك المجال مفتوحاً للذي يريد ان يضحك ويسخر عبرك، تعال معي وأَرِني حيث يرقد أبوك. إذا أقمته من الموت لأجلك، فهل تنفصل إذاك عن المرأة التي كانت سبب سقوطك؟» فأجاب الشاب: «إذا أعدت إليّ أبي حيّاً، وأراه إذاك سليماً، متحدِّثاً في هذا العالم، فسوف أنفصل عن الباقي.»

٥١ عند هذه الكلمات، قصدا الموضع حيث كان يرقد الشيخ الميت؛ وكان عابرون كثر أيضاً في المكان. فقال يوحنا للشاب: «أيها التَّعِس، لم تراعِ حتى شيخوخة أبيك!» انما هو كان يصرِّح باكياً ومُقتلِعاً شعره، بأنه كان نادماً على ما فعل. إذاك قال يوحنا، خادم الربّ: «أنت الذي أريتني ان عليّ الذهاب اليوم إلى هذا المكان؛ أنت الذي كان يعلم أن ذلك يجب أن يحدث؛ أنت الذي لا يمكن أن تفوته أيٌّ من الأفعال المُتحقِّقة في هذا العالم؛ أنت الذي تمنحني بمشيئتك كلّ عناية وكلّ شفاء، الآن أيضاً إمنحني حياة هذا الشيخ بما انك ترى ان القاتل حكم على نفسه! وراعِ يا ربّ، فأنت وحدك تستطيع ذلك، مَنْ لم يراعِ أباً كان ينصحه بالخير!»

٥٢ بعد هذه الكلمات، تقدّم نحو الشيخ وقال: «ربّي ليس ضعيفاً إلى حد عدم استطاعته بسط رحمته الخيِّرة ورأفته الخالية من الكبرياء إليك. قُمْ إذاً ومجِّد الله على هذا الصنيع الذي هو مبرّة!» فأجاب الشيخ: «انني أقوم، يا ربّ!» ونهض. وما ان جلس، حتى قال: «أنا الذي خُلِّصت من حياة فظيعة، الذي تحمّل الإهانات الرهيبة والمتكرِّرة لابنٍ، كما انعدام محبّته، ها انك أحييتني، يا رجل الله الحي! ما جدوى ذلك؟» [فأجابه يوحنا: «إذا][1] قمت لتلقى الحقائق

---

١ ـ المقطع أُعيد إلى النص موضوع الترجمة.

نفسها، فقد كان من الأفضل أن تكون ميتاً. انما من أجل حقائق أخرى عليك أن تقوم!» وأخذه يوحنا إذاك معه واصطحبه إلى المدينة وهو يبشِّره بنعمة الله، بحيث ان الشيخ كان قد أصبح مؤمناً قبل الوصول إلى باب المدينة.

٥٣ وحين رأى الشاب أن أباه قام، بعكس كلّ توقُّع، وانه هو نفسه نجا من التّهلِكة، تناول المنجل وقطع أعضاءه التناسلية؛ ثم راكضاً إلى المنزل حيث كان يُسكِن المرأة الزانية، ألقاها تحت أنظارها وهو يقول: «بسببك أصبحت قاتل أبي، وقاتلكما، وقاتل نفسي! انها لك هذه الأعضاء التي هي سبب ما حدث! أما أنا، فقد أشفق الله عليّ وعرّفني إلى قدرته.»

٥٤ ثم عاد يُعلِن ليوحنا، في حضور الإخوة، العمل الذي قام به. لكن يوحنا قال له: «أيها الشاب، ان الذي أقنعك بقتل أبيك وبأن تصبح عشيق امرأة الغير، هو الذي صوّر لك كذلك عملاً صائباً قطع الأعضاء المُزعِجة[1]. انما كان عليك أن تطرح لا الأعضاء الطبيعية، بل الفكرة التي انكشفت شريرة بواسطتها. فليست الأعضاء هي الضارة للإنسان، بل المصادر غير المرئية التي بتأثيرها يتحرّك كلّ دفعٍ مُخزٍ ويسطع. فإذا تبت إذاً يا ولدي عن هذا الإثم وإذا تعلّمت معرفة دسائس الشيطان، فسوف تجد الله الذي يُنجِدك لكلّ احتياجات نفسك.» ودأب الشاب على العيش في هدوء، وتاب عن خطاياه السابقة بحيث نال المغفرة برأفة الله، وما عاد افترق عن يوحنا.

---

١ ـ النص يعارض كتاب «الفيزيولوغوس» المنسوب خطأً إلى إپيفانوس والذي ينصح أسير الشهوات الجنسية بقطع أعضائه التناسلية لئلا يبقى فريسة الشيطان.

١٢. مسعى السميرنيين

٥٥ وفيما كان يوحنا يفعل كلّ ذلك في أَفسس، أرسل إليه السميرنيون موفدين صرّحوا: «يتناهى إلينا ان الله الذي تبشِّر به غير منحاز وقد أمركم بعدم إبداء تفضيل لمكان واحد. وهكذا بما أنك بشير إله كهذا، تعال إلى سميرنة والمدن الأخرى لنتعلّم معرفة إلهك وبتعلُّمنا معرفته نجد فيه الرجاء.

[.....................................][١]

١٣ . شفاء إبنَي أَنتيپاتروس في سميرنة

٥٦ راحلين إذاً عن أَفسس، ذهبنا إلى سميرنة، واجتمعت المدينة كلّها عندما علمت بوجود يوحنا. وتقدّم رجل يُدعى أَنتيپاتروس، وهو وجيه بين السميرنيين، نحو يوحنا وقال: «يا خادم الله، تناهى إليّ انك قمت بمبرّات كثيرة ومعجزات عظيمة في أَفسس. ها انني أهبك مئة ألف قطعة ذهبية. لدي إبنان توأمان تعذّبا حتى الآن في شكل رهيب، وقد ضربهما عند ولادتهما شيطان ـ وعمرهما أربعة وثلاثون عاماً. في مدى لحظة، يغمى عليهما، بحيث يجدان نفسهما ممسوسَين تارةً في الحمّام، وتارةً في النزهة، وغالباً أيضاً إلى المائدة، وتارةً كذلك في الجمعية العمومية للمدينة. سوف ترى بنفسك انهما رجلان جميلا القوام، انما أضناهما المرض الذي يستولي عليهما كلّ يوم. أرجوك، أنجِدْ شيخوختي. انني أستعدّ في الواقع لاتخاذ قرار مشؤوم. فقد كانا يتعذّبان في شكل خفيف وهما طفلان، انما الآن وقد أصبحا قويَّين، جذبا إليهما شيطانَين قويَّين أيضاً. أَشفِقْ إذاً عليّ وعليهما.» فقال له يوحنا: «طبيبي لا يقبض مالاً أجراً، بل يشفي مجاناً، ومقابل

---

[١] ـ النص مشوّه، لكنه قصير ويعد فيه يوحنا بالعودة إلى أَفسس.

الأمراض، يتلقّى نفوس الذين شُفوا. ما أنت حاضر لإعطائه إذاً، يا أَنتيپاتروس لقاء ولدَيك؟ هَبْ قلبك لله، وسوف تجدهما ثانيةً في صحة جيدة بقدرة المسيح.» وقال أنتيپاتروس: «حتى الآن لم تُهمِلْ أحداً، لا تُهمِلْ إبنَيّ إذاً. انني أتهيّأ في الواقع، بموافقة أهلي كلّهم، وبسبب السخرية، لإهلاكهما بسمّ. انما أنت الذي أتيت مثل طبيب أمين، مُكلَّفاً من الله لأجلهما، أَلهِمْهما وأنجِدْهما.»

٥٧ وخاطب يوحنا الذي دُعي إلى المساعدة الربّ: «أنت الذي تعزّي دوماً المتواضعين والمدعو إلى المساعدة، أنت الذي لم تنتظر أبداً دعوتك إلى المساعدة، لأنك موجود قبل أن نبدأ التماس مساعدتك، إجعل الروحَين النجستَين تُطردان من ابنَي أنتيپاتروس!» وعلى الفور خرجتا منهما. وأعطى يوحنا الأمر بأن يأتي الولدان. وحين رآهما أبوهما في صحة جيدة، سقط أرضاً وسجد أمام يوحنا. {وهذا الأخير عمّدهما، بعدما أعلمهما في شأن الآب، الإبن والروح القدس.}[١] وأمر يوحنا أَنتيپاتروس بأن يُعطي ماله مَنْ هم في العوز، وصرفهم فيما يسبِّحون الله ويباركونه.

[....][٢]

١٤ . مشهد وداع ورحيل إلى أَفسس

٥٨ من لاوديسية إلى أَفسس للمرة الثانية[٣].

كان قد مضى وقت طويل وما من أحد من الإخوة أحزنه يوحنا؛ لكن الحزن غلبهم عندما قال لهم: «أيها الإخوة، الوقت حان الآن بالنسبة إليّ للرحيل إلى أَفسس - انه في الواقع التعهُّد الذي قطعته

١ - المقطع شرح على الأرجح.

٢ - النص مشوّه.

٣ - العنوان الفرعي الوحيد المتبقّي من عناوين فرعية أصلية مُفترَضة.

على نفسي مع المقيمين هناك لئلا يستسلموا للتواني بالبقاء طويلاً محرومين الرجل الذي ثبّتهم. وآن الأوان بالنسبة إليكم جميعاً لتوجيه عقلكم نحو الله، لأنه لا يتخلّى عنكم.» وكان الإخوة مكتئبين وهم يسمعونه يقول ذلك، لأنه سوف يفترق عنهم. إذاك قال لهم يوحنا: «حتى لو انفصلت عنكم، المسيح يسوع هو معكم إلى الأبد. إذا أحببتموه بنقاوة، فسوف تملكون الشراكة الدائمة معه. فعندما يُحِبّ يتخطّى حُبّاً الذين يُحِبّونه.»

٥٩ عند هذه الكلمات، استأذنهم وترك مالاً كثيراً لتوزيعه على الإخوة؛ وكلّهم كانوا مكتئبين وينوحون عندما رحل إلى أفسس. وكان معه الذين سبق ان رافقوه لدى رحيله عن أَفسس: أندرونيكوس ودروزيانة، ليكوميد وكليوبيوس والمحيطون بهم. وكانت تتبعه أيضاً أرسطوبولا التي علمت ان زوجها ترتولّوس مات في الطريق[١]، أَرسطيپة مع كزينوفون، كما العاهرة التي اصبحت طاهرة وكثيرون آخرون حضّهم في كلّ آن على التحوُّل نحو الربّ يسوع المسيح وما عادوا يريدون الافتراق عنه.

١٥ . حكاية البقّ

٦٠ في اليوم الأول، بينما كنا متوقّفين في نُزُل منعزل وفي حاجة إلى سرير لراحة يوحنا المغبوط، غدَونا شهود إحدى قصصه الطريفة. كان هناك سرير بلا غطاء، موضوع في مكان ما. وقد بسطنا فوقه الأردية التي كانت معنا، ودعوناه إلى النوم والراحة عليه، فيما كان الجميع ينامون على الأرض. إنما ما ان رقد، حتى أزعجه عدد كبير من البقّ. وبما انها كانت تُزعِجه أكثر بلا انقطاع ونصف الليل كان

١ ـ طريق الإيمان المسيحي.

قد انقضى، خاطبها ـ وسمعناه كلّنا ـ: «أقول لك، يا أيتها البقّات، أَظهِري تسامحك؛ كلّك معاً، غادري مسكنك في هذه اللحظة، إبقي هادئة في مكان واحد والبثي بعيدة عن خدام الله!» ووسط ضحكاتنا وأحاديثنا التي كانت تتضاعف، نام يوحنا. إذاك تحاشينا إزعاجه، متحدِّثين بهدوء.

٦١ وعند بزوغ النهار، نهضت أولاً وفي الوقت نفسه معي ڤيروس وأَندرونيكوس. ورأينا على باب الغرفة عدداً كبيراً من البقّ. واستولت علينا الدهشة لمشهد عددها الكبير، وفيما كان كلّ الإخوة قد استيقظوا بسببها، كان يوحنا يتابع النوم. وعندما استيقظ، أخبرناه بما رأينا. فاستقام إذاك فوق السرير.، ورأى انها [...] وقال لها: «بما انك كنت متسامحةً تماماً باحترام تحذيري، عودي إلى مكانك.» وما ان قال هذه الكلمات ونهض من السرير، حتى هرعت البقّات من الباب حتى السرير وغاصت في طواياه. وقال يوحنا أيضاً: «ان هذه الحيوانات عندما سمعت صوت رجل، لبثت هادئة من جانبها، من دون مخالفة الأمر. إنما نحن حين نسمع صوت الله نعصى وصاياه ونستسلم للتواني. حتى متى؟»

١٦ . الوصول إلى أَفسس

٦٢ ووصلنا لاحقاً إلى أَفسس. وحين علم إخوة هذه المدينة بعودة يوحنا بعد غياب طويل، أخذوا يهرعون إلى عند أَندرونيكوس حيث نزل: كانوا يلمسون قدمَيه، ويقبِّلون أيضاً يدَيه اللتين كانوا يضعونهما على وجههم؛ وحتى أيديهم بالذات التي كانوا يمدّونها للمسه، كانوا يقبّلونها لأن بفضلها لمسوا على الأقل ثيابه[1].

---

١ ـ هذه الحركات تعبِّر عن تكريم رجل يكتسي قوة خارقة. قد ترتبط أيضاً بسعيٍ إلى شفاء.

١٧ . موت دروزيانة بعد حُبّ كالّيماك المحَرَّم

٦٣ وفيما كان يسود بين الإخوة حُبّ عظيم وفرح لا نظير له، رأى رجل[١] مُرسَل من الشيطان دروزيانة وهام بها، على رغم علمه بأنها امرأة أَندرونيكوس. وكان قوم كثر يقولون له: «من المستحيل ان تحصل على هذه المرأة، هي التي باسم الورع تقف على مسافة حتى من زوجها منذ وقت طويل. أأنت الوحيد الجاهل ان أَندرونيكوس الذي لم يكن قبلاً الرجل المملوء ورعاً الذي هو الآن، سجنها في قبر قائلاً: "إما ان أحصل على امتلاكك امرأةً كما كنت أمتلكك سابقاً، وإما تموتين"؟ وفضّلت الموت عازفةً عن التصرُّف بثروة عظيمة معه؛ فضّلت احتمال الموت بدلاً من القيام بذلك الأمر الفظيع. فإنْ كانت لم توافِقْ إذاً على الاتحاد الجنسي بسيِّدها وزوجها، بل حتى أقنعته بمشاركتها في اقتناعاتها، فكيف ستعطيك موافقتها أنت الذي تريد أن تصبح عشيقها؟ أُعزُفْ عن جنون لا يعرف هدوءاً فيك! أُعزُفْ عن عمل لا تستطيع إنجازه! ما فائدة إثارة رغبتك باعتقادك قادراً على هذه الجسارة الوقحة؟»

٦٤ ولم يستطع أصدقاؤه الحميمون إقناعه، بالتكلُّم معه هكذا. وعلى العكس بلغت به الوقاحة بعث رسائل إليها. ثم يئس من استمالتها، لئلا يتعرّض لإخفاقات متكرِّرة، وعاش في حال إحباط. والحال ان دروزيانة لزمت الفراش بعد يومين، مُصابَة بحمّى سببها الوهن، وقالت: «ليتني لم أعُدْ إلى موطني، ولا أُصبِح هكذا مُسبِّبة عار لرجل غير مدرّب على الورع! فلو كان رجلاً تؤثِّر فيه الكلمات، لما

---

١ ـ هو كالّيماك الذي لا يُذكَر اسمه إلا في الفصل ٧٣ مثل فورتوناتوس، مدبِّر أَندرونيكوس.

وصل إلى هذا الحد من الإنحطاط. إنما يا ربّ، بما انني مسؤولة عن الضربة التي تصيب نفساً جاهلة، خلِّصْني من هذه الأغلال، إجعَلْني أعبر في أسرع وقت إليك!» إذاك وفي حضور يوحنا الذي كان يجهل مع ذلك كلّ شيء عن القضية، فارقت دروزيانة الحياة، من دون أي فرح، وحتى ملؤها الحزن لأن نفس ذلك الرجل تحطّمت.

٦٥ وكان أَندرونيكوس كئيباً في نفسه، يعذِّبه حزن خفي؛ وكان يحدث له حتى البكاء جهاراً، بحيث ألزمه يوحنا بالصمت مرات عدة وقال له: «نحو رجاء أفضل رحلت دروزيانة، مفارقةً هذه الحياة الظالمة.» فأجابه أَندرونيكوس: «انني مقتنع بذلك، يا أبت يوحنا، وأعرفه، من دون أن أشك مطلقاً في الإيمان بربّي؛ وأكثر من ذلك، لدي ذلك اليقين الراسخ بأنها ماتت في الطهارة.»

٦٦ وبعدما دُفِنت، انتحى يوحنا بأَندرونيكوس جانباً، وعندما علم سبب موتها، كان أكثر كآبةً بَعْدُ من أَندرونيكوس. إذاك لزم الصمت، غارقاً في الحيرة بسبب مكائد العدو ولابثاً جالساً خلال وقت قصير. وأخذ يوحنا يتكلّم لاحقاً، عندما تجمّع كلّ الإخوة قربه للإنصات إلى أي كلمات سوف ينطق بها في شأن الفقيدة:

١٨ . خطاب يوحنا في شأن موت دروزيانة

٦٧ «على القبطان المُبحِر أن يصرِّح فقط بعد إلقاء المرساة في مرفأ هادىء ومحمي من العواصف، بأنه هو ورجال طاقمه وسفينته سليمون معافون! على الفلاح الذي عهد بالبذار إلى الأرض وعانى كثيراً للاعتناء به وحمايته، ان يتمتّع براحة عنائه فقط بعد وضع الحَبّ المضاعَف مرات عدة في اهرائه! على لاعب القوى المُسجَّل للقتال ان يتباهى فقط بعد نيل الأكاليل! وهكذا دواليك بالنسبة إلى كلّ المباريات

والمهن: علينا ان نتباهى فقط حين لا نكون فارغي اليدَين، وقد بلغنا النهاية، بل في مستوى التزاماتنا.

٦٨ «وقِسْ على ذلك، في ما اعتقد، الإيمان الذي يمارسه كلٌّ منا: نقرِّر ما إذا كان صحيحاً حقاً فقط حين يثبت في المستوى نفسه حتى نهاية الحياة. توجد في الواقع عقبات عدة تطرأ وترمي الاضطراب في عقل البشر: الهموم، الأطفال، الأهل، المجد، الفقر، الإطراء، فيض النشاط، الجمال، التبجُّج، الرغبة، الغنى، الغضب، الكبرياء، التكاسل، الغيرة، الحسد، الإهمال، العنف، الوَجْد، المكر، المال، الرياء وكلّ العقبات الأخرى من هذا النوع. كذلك هناك عقبات للقبطان الذي يندفع في جريٍ هادئ: عصف الرياح المعاكسة، العاصفة العنيفة، الموجة العاتية الظاهرة من بحرٍ ساكن؛ كذلك بالنسبة إلى الفلاح: الشتاء المُبكِر، اليرقان، الهامّة الخارجة من الأرض؛ وبالنسبة إلى لاعبي القوى: الـ"كدنا نفوز"؛ وبالنسبة إلى الذين يتعلّمون مهنة: الـ"لا يزال الأمر يحتاج إلى ذلك".

٦٩ «من المناسب قبل كلّ الأمور ان يتبصّر رجل الإيمان مُسبَقاً في خروجه من هذا العالم وأن يفكِّر بالطريقة التي سيتمّ فيها: هل ستكون [***][١]، هل ستكون بسيطة ومن دون أي عقبة، أو مضطربة، منشغلة بالاغترار بأُمور هذه الفانية ومقيَّدة بالشهوات؟ وهكذا نمتدح جمال جسد فقط عندما يصبح عارياً تماماً، عظمة قائد عسكري فقط عندما يكون قد حقّق الهدف المُعلَن للحرب، تفوُّق طبيب عندما يكون قد نجح في كلّ معالجة، ونمتدح نفساً باعتبارها ملأى إيماناً وجديرة بالله فقط عندما تكون قد ظهرت في مستوى عهدها. وفي المقابل، لا

---

١ ـ النص مشوَّه.

نمتدح النفس التي تتكاسل في كلّ شؤون هذه الحياة وتفشل، بعدما أحسنت البداية؛ تلك التي تخدر في جهدها للتعلُّق بالخير، ومن ثم تنجذب نحو ما هو عابر؛ تلك التي تشتهي الزمني بدلاً من الأبدي؛ التي تبادل ما يبقى بما لا يبقى؛ التي تُكرِم ما يستحق الاحتقار؛ التي تُكرِم أعمالاً تستحقّ الشجب؛ التي تتلقّى عهوداً من الشيطان؛ التي تستقبل الحيّة في جسدها؛ التي تسخر مما لا يستدعي سخرية؛ تلك التي تُهان لأجل الله ومن ثمّ تخجل؛ تلك التي تقول نعم بالفم، انما لا تُظهِر ذلك بالفعل. نمتدح على العكس النفس التي تبقى حازمة بحيث لا تتراخى بتأثير اللذة النجسة، لا تستسلم للتكاسل، لا تُغرى بحُبّ المال، لا تُفتضَح بقوة الجسد وبالغضب.»

١٩ . إنتهاك كالّيماك وفورتوناتوس مدفن دروزيانة

١٧٠ وفيما كان يوحنا لا يزال يتكلّم مطوّلاً مع الإخوة ليعلِّمهم احتقار الأمور العابرة، أثارت الرجل الذي كان يُحِبّ دروزيانة شهوة فظيعة وبفعل الشيطان ذي الأشكال المتعدّدة: رشا بمبلغ كبير مدبِّر أَندرونيكوس، الذي كان يُحِبّ المال. وكان هذا الأخير، بفتحه قبر دروزيانة، سوف يسمح له بأن ينفِّذ الأمر المحظور في الجثة. فبما انه لم يستطع في الواقع امتلاكها حيّةً، كان باقياً متعلّقاً بعناد بجسدها بعد الموت ويقول: «عبثاً رفضت الإتحاد بي في حياتك، فسوف أغتصبك الآن وقد مُتّ!» بهذه النيّة إذاً وبعدما تهيّأ لارتكاب الكفر، وقد جعله ممكناً المدبِّر الرديء، اندفع مع هذا الأخير إلى داخل الضريح. وحين فتحا الباب، بدأ كلاهما تجريد الجثة من ثيابها الجنائزية. وكانا يقولان: «ايتها التّعِسة دروزيانة، بماذا أفادك ذلك!

١ ـ العبارة الأولى من هذا الفصل توحي بأن خطاب يوحنا لم يُنقَل حرفياً.

اما كان يمكنك في حياتك تنفيذ هذا الفعل الذي ما كان سبّب لك من دون شك أي حزن لو قمت به طوعاً؟»

٧١ وما عاد حول عريها سوى القميص المزدوج الهُدب حين ظهرت حيّة من حيث لا يُدرى؛ وقد لسعت المدبِّر لسعة واحدة وقتلته؛ وفي المقابل لم تلسع الشاب، بل التفّت حول قدمَيه صافرةً بطريقة رهيبة؛ وسقط الشاب أرضاً، وصعدت الحيّة واستقرّت فوقه.

٢٠ زيارة الإخوة ضريح دروزيانة وظهور الشاب الجميل

٧٢ وفي الغد قصد يوحنا، يرافقه أَندونيكوس والإخوة، الضريح منذ الفجر ـ كان ذلك اليوم الثالث من موت دروزيانة ـ لكسر الخبز في المكان[١]. ولحظة الذهاب بدأنا البحث عن المفاتيح، لكنها لبثت مفقودة. إذاك قال يوحنا لأَندرونيكوس: «لقد فُقِدت بحق، لأن دروزيانة ليست في الضريح[٢]. هيّا بنا مع ذلك لئلا تستسلم للانحطاط، وستنفتح الأبواب من تلقائها، على مثال إكرامات أخرى كثيرة منحنا إياها الرب.»

٧٣ وعندما وصلنا إلى هناك، انفتحت الأبواب بأمر يوحنا؛ ورأَوا قرب قبر دروزيانة، شاباً جميلاً يبتسم. وعند رؤيته، صاح يوحنا: «هنا أيضاً تتقدّمنا، أنت الجميل[٣]؟ لأي هدف؟» فسمع صوتاً أجابه: «لأجل دروزيانة التي سأُقيمها الآن ـ فقد اقتبلتها في الواقع برهةً قليلة فقط كخاصتي[٤] ـ ولأجل الرجل الذي قضى قرب قبرها.» وحين

١ ـ الإحتفال بالإفخارستيّا عند فجر اليوم الثالث في الضريح، طقس جنائزي مسيحي يؤكّد النص إحياءه منذ القرن الثاني م.

٢ ـ نفسها عند الربّ الذي اقتبلها لخاصته.

٣ ـ ظهر المسيح لدروزيانة أول مرة حين سجنها زوجها في ضريح.

٤ ـ لأن موتها سابق لأوانه وسببه الحزن، ويصبح ممكناً بعد قيامة كالِّماك واهتدائه.

قال الجميل ذلك ليوحنا، صعد إلى السماء ـ وكنا شهوداً على الأمر. إذاك استدار يوحنا نحو الجانب الآخر من الضريح؛ ورأى هناك شاباً يُدعى كالّيماك، وهو أحد وجهاء أفسس، كانت ترقد فوقه حيّة هائلة، ومدبِّر أندرونيكوس، فورتوناتوس الذي كان ميتاً. وإذ رآهما كلاهما، لبث محتاراً وقال للإخوة: «ماذا يعني مشهد كهذا؟ لِمَ لم يكشُفْ لي الربّ إذاً ما حدث هنا، هو الذي لم يُهمِلْني أبداً؟»

٧٤ أما أَندرونيكوس، فاندفع إلى قبر دروزيانة لدى رؤية هذَين الميتَين. وعندما رآها مرتديةً فقط قميصها المزدوج الهُدب، قال ليوحنا: «انني أفهم ما حدث، يا يوحنا، يا خادم الله المغبوط. ان كالّيماك هذا كان مولَعاً بأُختي[١]. انما لعدم تمكُّنه من استمالتها على رغم محاولات كثيرة، رشا بمبلغ كبير مدبِّري الملعون هذا، عازماً من دون شك ـ كما نستطيع حقاً ان ندرك ذلك الآن ـ على ان ينفِّذ بفضله مكيدة خطته الماكرة. ان كالّيماك باح بهذا الاعتراف لأشخاص كثر: "عبثاً رفضت إعطائي موافقتها في حياتها، الآن وقد ماتت، سوف تُغتصَب!" من دون شك يا يوحنا ان الجميل قرّر ان هذه الجثة لن تُغتصَب؛ لذا هذان الرجلان ماتا، وهما اللذان أظهرا هذه الوقاحة غير اللائقة. إلى ذلك، هذا الصوت الذي قال لك: "أَقِمْ دروزيانة ـ فقد اقتبلتها في الواقع برهةً قليلة فقط كخاصتي." أَلَمْ يكشُفْ مقدَّماً هذا؟ يجب أن تقوم، لأنها فارقت الحياة في الحزن معتقدةً بأنها أصبحت مسبِّبة عار. وأثق أيضاً بالذي تكلّم، فالرجل هذا في عداد الضالّين، بما انك تلقّيت الأمر بإقامته، هو كذلك. أما الآخر، فأعلم انه لا يستحق

---

١ ـ منذ اهتدائهما، يعيش أَندرونيكوس ودروزيانة حياة تعفُّف ومثل أخٍ وأُخت داخل الجماعة.

الخلاص. أسألك إذاً هذا الأمر الوحيد: أَقِمْ اولاً كالّيماك ليعترف لنا بنفسه بما حدث!»

٢١ . قيامة كالّيماك واهتداؤه

٧٥ وسمّر يوحنا عينَيه في الجثّة وقال للزاحفة: «إبتعدي عن الذي سيصبح خادم يسوع المسيح!» ثم تلا هذه الصلاة واقفاً: «ايها الإله الذي نمجِّد اسمه كما يستحق ذلك! ايها الإله الذي يقهر كلّ قوة شريرة! ايها الإله الذي تتحقّق مشيئته! أنت الذي تستجيبنا دائماً؛ الآن أيضاً لتتمّ نعمتك على هذا الشاب! وإذا كان عملٌ خلاصي يحدث عبره، أُكشُفْه لنا عندما سيقوم!» وعلى الفور نهض الشاب، وخلال وقت طويل، لبث صامتاً.

٧٦ وعندما استعاد وعيه، سأله يوحنا لِمَ دخل الضريح. وعلم يوحنا إذاك من فم الشاب ما سبق لأندرونيكوس ان قاله له، أي حُبّه لدروزيانة، وسأل أيضاً: «هل خطة هذا الفعل الفظيع، اغتصاب جثة بهذه الطهارة، تحقّقت إذاً؟» فأجابه الشاب: «كيف كنت لأستطيع القيام بهذا العمل بينما كان هذا الحيوان الرهيب يصرع تحت ناظرَيّ فورتوناتوس بلسعة واحدة ـ الأمر الذي كان عدلاً، لأنه شجّع فيّ هذا الجنون الهائل الذي سبق ان عزفت عنه؟ أما أنا، فقد شلّني بالرعب ووضعني في الحال التي رأيتموني فيها قبل أن أقوم. لكنني سوف أُخبِرك حادثاً آخر أروع، أضناني وأماتني أكثر بَعْدُ. كنت فريسة الجنون الذي كان يسكن في نفسي والمرض الذي لا يُقهَر الذي كان يعذِّبني؛ وقد خلعت إذاً الثياب الجنائزية التي كانت ترتديها، ثم ابتعدت عن القبر لوضعها بعناية جانباً، كما ترى ذلك، وعدت إلى عملي الرهيب عندما رأيت شاباً جميلاً يغطّيها بردائه. كان يتدفّق

بريق نور من عينَيه فوق عينَيها، ولأجلي أسمَعَ صوتاً: "يا كاليّماك، مُتْ لتحيا!"

«مَنْ كان؟ اجهل ذلك، ايها الرجل، يا خادم الله. انما منذ ظهرت هنا، أتعرّف فيه إلى ملاك الله، واعلم هكذا علم اليقين ان الله الذي تبشّر به هو إله حق؛ انني مقتنع جيداً بذلك. إلا ان لي سؤالاً أُوجّهه إليك: لا تتخلّفْ عن إنقاذي من هذه المصيبة ومن هذه الوقاحة غير المعقولة، وقدِّمْ لإلهك رجلاً ترك نفسه يُخدَع بوهم مُخزٍ ودنس! لو كنت فقط تستطيع تمزيق قلبي لتُظهِر أفكاري! ان ما يحتلّ قلبي الآن هو ألم عظيم، لأنني نمّيت في ما مضى أفكاراً ما كان عليّ ان أملكها، ومستسلماً لتجربة مخطّط شرير، سبّبت لنفسي حزناً هائلاً. انني ألتمس إذاً العون الآتي منك، أُمسِك بقدمَيك لأُصبِح صالحاً مثلك، بما ان من المستحيل ان أنتمي إلى الله خلافاً لذلك. والحال ان ما من شيء آخر يحتلّ عقلي أكثر من هذه الفكرة: ان أدنو بثقة من إلهك إبناً حقيقياً وشرعياً. أرجوك، أريد أن أكون أحد أولئك الرجال الذين يرجَون في المسيح ليكون حقاً الصوت الذي قال لي هنا بالذات: "مُتْ لتحيا!" ان هذا الصوت أثبت فعاليته بما أن ذلك الرجل الجاحد، المُنحَلّ، الكافر الذي كنته مات وأنا قمت من خلالك، أنا الذي سأُصبِح مؤمناً، مملوءاً ورعاً، أنا الذي سأعرف الحق الذي أرجو أن تكشفه لي.»

٧٧ إذاك أخذ يوحنا يقول، وقد استولى عليه فرح عظيم متأمِّلاً كلّ هذا المشهد لخلاص الرجل: «آه، كم أنت قادر، يا ربّي يسوع المسيح، لا أستطيع أن أعرف ذلك، وأحار ما أقول أمام رأفتك العظيمة وصبرك اللامتناهي! يا أيها العظمة كما نزلت في حال العبودية! يا أيها الحرية

الفائقة الوصف، التي أخضعناها للعبودية! يا أيها النبل الذي لا يوصَف، الذي وقع في الأسر! يا أيها المجد الذي لا يوصَف، الذي جعل من نفسه أيضاً حامينا! أنت، الملك الأحد، الخاضع مع ذلك لنا؛ أنت الذي حفظت هنا أيضاً هذا الجسد الميت من الانتهاك؛ أنت الذي أربكت لدى هذا الشاب ذلك العجز عن تمالك النفس والذي لم تسمح بأن يقوده إلى ذروته؛ أنت الذي لجمت الشيطان المهووس الذي كان فيه والذي أشفقت على الرجل المصاب بالجنون؛ أنت مُحرِّر الرجل الملطَّخ بالدم ومُصلح الذي دُفِن معاً؛ أنت الأب الذي أشفق وترأف بالرجل الذي ظهر متهاوناً حيال نفسه، نمجِّدك، نسبِّحك، نباركك، نحمدك على رأفتك العظيمة وصبرك، يا يسوع القدُّوس، لأنك الإله الوحيد وليس من إله آخر. لك القدرة التي تُحبِط كلّ مكيدة، الآن وإلى دهر الدهور! آمين.»

٧٨ عند هذه الكلمات، تلقّى يوحنا كالّيماك وعانقه قائلاً: «يا ولدي، المجد لإلهنا يسوع المسيح، الذي أشفق عليك، الذي رأى انني أهل لتمجيد قدرته، الذي بترقّي صنيعه، رأى انك أهل أنت أيضاً للخروج من جنونك وسكرك، والذي دعاك إلى راحته وإلى تجدُّد الحياة!»

٢٢ . قيامة دروزيانة

٧٩ عندما رأى أندرونيكوس ان كالّيماك قام من بين الأموات وانه كان مؤمناً، رجا يوحنا مع الإخوة ان يقيم دروزيانة أيضاً: «نعم، لتقُمْ دروزيانة يا يوحنا، ولتعِشْ بسعادة إلى نهايته الوقتَ القصيرَ جداً الذي حملته إلى الموت حين كانت تعتقد، وقد ملأها الحزن بسبب كالّيماك، بأنها أصبحت مسبِّبة عار بالنسبة إليه! والربّ حين يشاء ذلك، يتلقّاها قربه.» ودنا يوحنا من القبر فوراً، وأمسك بيد دروزيانة

وقال: «أنت الإله الوحيد، ابتهل إليك، أنت العظيم للغاية، الفائق الوصف، الأبدي؛ لك تخضع كلّ قدرات الولاة؛ أمامك انحنت كلّ السلطات؛ أمامك تُذَلّ كلّ كبرياء وتلبث ساكنة؛ أمامك تسجد كلّ عجرفة وتلزم الصمت؛ أمامك ترتجف الشياطين عندما تسمعك؛ أمامك تتمالك الخليقة بأسرها نفسها عندما تعرفك؛ أنت الذي لا يعرفه الجسد ويجهله الدم، لنمجّد اسمك! أَقِمْ دروزيانة، ليثبت كالّيماك أكثر فيك أنت الذي وزّع خلاصاً وقيامةً متعذِّرَي التحقيق ومستحيلَين بالنسبة إلى البشر، إنما ممكنَين بالنسبة إليك وحدك؛ لتكون أيضاً دروزيانة من الآن فصاعداً في سلام، فبفضل اهتداء الشاب، تجد نفسها منعتقة من كلّ عائق في تعجّلها الذهاب إليك!»

٨٠ وحين نطق بهذه الصلاة، قال يوحنا: «يا دروزيانة، قومي!» فقامت على الفور وخرجت من القبر. وإذ رأت انها لم تكن ترتدي سوى قميصها المزدوج الهُدب، حارت بماذا تفكّر حيال الموقف. وعلمت إذاك من أَندرونيكوس تفصيل كلّ ما حدث، فيما كان يوحنا ممدَّداً، وجهه إلى الأرض، وكالّيماك يمجِّد الله بصوتٍ عالٍ وبدموعٍ غزيرة؛ وهي بدورها امتلأت فرحاً ومجّدت.

٢٣ . قيامة فورتوناتوس وموته النهائي

٨١ وبعدما لبست، رأت وهي تلتفت إلى الوراء فورتوناتوس الذي كان ممدَّداً، فقالت ليوحنا،: «ليقُمْ هذا الرجل أيضاً، يا أبتاه، حتى لو انه أقدم على ارتكاب ذروة الخيانة حيالي!» لكن كالّيماك صاح، عندما سمعها تتكلّم هكذا: «لا يا دروزيانة، أرجوك! ان الصوت الذي سمعته لم يهتمّ به في الواقع، وانما إعلانه كان يعنيك وحدك؛ ولأنني كنت شاهداً على ذلك، صدّقته. لو ان هذا الرجل كان صالحاً، لكان الله

أشفق عليه أيضاً من دون شك ولكان أقامه بوساطة يوحنا المغبوط. لقد أعلم إذاً ان الرجل مات ميتة شريرة.» فأجابه يوحنا: «يا ولدي، لم نتعلّم مبادلة الشر بالشر. وفي الواقع حين ارتكبنا حيال الله أفعالاً شريرة بعددٍ كبير وأبداً أعمالاً صالحة، لم يقدِّمْ لنا في المقابل الأجر الذي كنا نستحقّ، بل الندامة. وحين رفضنا التعرُّف إلى اسمه، لم يتخلّ عنا، بل أشفق علينا. حين جدّفنا، لم يستخدِمِ الانتقام، بل الرأفة. حين برهنّا على جحود، لم يحقُدْ على ذلك. حين اضطهدنا إخوتنا، لم يبادِلْنا بالمثل. حين تجرّأنا على القيام بعدد من الأعمال البغيضة والمخيفة، لم يطرَحْنا. بل حثّنا على الندامة ورذل الشر، ودعانا إليه، كما فعل بالنسبة إليك يا كاليّماك، يا ولدي. وبعيداً عن الحقد على تصرُّفك السابق، جعل منك خادمه في خدمة رحمته. فإنْ لم تسمَحْ لي إذاً بإقامة فورتوناتوس، فينبغي أن تفعل دروزيانة ذلك.»

٨٢ وعلى الفور تقدّمت في حبور الروح وفرح النفس من جثة فورتوناتوس وقالت: «يا يسوع المسيح، يا إله الدهور! يا إله الحق! أنت الذي منحتني أن أرى آيات ومعجزات؛ أنت الذي أنعمت عليّ بالمشاركة في اسمك؛ أنت الذي كشفت نفسك لي بوجهك المتعدِّد الأشكال والذي أشفق عليّ بألف طريقة؛ أنت الذي حميتني برأفتك العظيمة حين كنت خاضعةً لإكراه أَندرونيكوس، زوجي في ما مضى؛ أنت الذي اعطيتني أخاً أَندرونيكوس، خادمك؛ أنت الذي حفظتني طاهرةً حتى اليوم، أنا خادمتك؛ أنت الذي استقبلتني قربك أخيراً، عندما متّ، بسبب حزني؛ أنت الذي قلت لي، عندما انفصلت عن الجسد: "أنت خاصتي لوقت قليل فقط، يا دروزيانة"؛ أنت الذي أعطيت يوحنا نعمة إقامتي، لأقود إلى نهاية مداه وقتي القصير للغاية؛ أنت الذي، بعد قيامتي، اريتني محرَّراً من العار الرجل الذي استسلم

للعار؛ أنت الذي اعطيتني راحةً كاملةً فيك وأرحتني من ذلك الجنون الخفيّ؛ أنت الذي أعزّه وأُحِبّه؛ أرجوك، يا يسوع المسيح، لا تصدّ دروزيانتك التي تطلب منك قيامة فورتوناتوس، حتى لو أقدم على ارتكاب ذروة الخيانة حيالي!»

٨٣ وأمسكت بيد الميت وقالت: «يا فورتوناتوس، قُمْ باسم يسوع المسيح ربّنا، على رغم انك إلى أقصى درجة عدو خادمة الله!» وقام فورتوناتوس، لكنه حين رأى يوحنا وأَندرونيكوس في الضريح، ودروزيانة قائمةً من بين الأموات، وكالّيماك مُعتنِقاً الإيمان والإخوة الآخرين يمجِّدون الله، صاح: «آه! إلى أين بلغت قدرات هؤلاء الرجال الرهيبين! أودّ ألا أكون قد قمت، أودّ بالأحرى أن أكون ميتاً، لئلا أجدهم تحت أنظاري!» وعند هذه الكلمات، خرج من الضريح وهرب.

١٨٤ وهتف يوحنا، وقد رأى ان نفس فورتوناتوس لم تغيِّرْ موقفها حيال الخير[١]: آه! يا مصدر كلّ نفس باقية في الدّنس! آه! يا جوهر الفساد، المملوء ظلمات! آه! أيها الموت الذي يرقص بين جماعتك! آه! أيتها الشجرة البلا ثمر، الملأى ناراً! آه! أيها الأصل الذي يملك شيطاناً عِلّة وجود! آه! أيها الحطب الذي يُنتج فحماً ثمراً! آه! أيتها الغابة التي تساكن الفيض المجنون وتجاور الجحود! آه! لقد أثبتّ ممّنْ أنت، والإثباتات لا تكفّ عن إفحامك، أنت وأبناءك. ان موهبة تمجيد الخير لا تعرفها؛ ذاك انك لا تملكها. هكذا إذاً، ذلك هو تصرُّفك، وذلك أيضاً هو أصلك وطبيعتك. إبْقَ جانباً، بعيداً عن الذين يرجَون في الربّ، بعيداً عن أفكارهم، عن روحهم، عن نفسهم، عن جسدهم، عن أفعالهم، عن حياتهم، عن تصرُّفهم، عن سلوكهم، عن اهتماماتهم، عن مداولاتهم، عن قيامتهم لدى الله، عن رائحتهم الذكية

١ ـ كلّ القدح التالي يتوجّه إلى حقائق غير مُنتِجة وسجينة ماديتها.

التي لا يجب أن تشارك فيها، عن صياماتهم، عن صلواتهم، عن معموديتهم المقدَّسة، عن إفخارستيّاتهم، عن غذائهم الجسدي، عن شرابهم، عن ثيابهم، عن طعامهم الأخوي، عن طقوسهم الجنائزية، عن رباطة جأشهم وعن عدلهم. عن كلّ ذلك سوف ينحّيك يسوع المسيح، ربّنا، أنت، الشيطان، الجاحد بامتياز وعدو الله، كما الذين يُشبِهونك بتصرُّفهم مثلك!»

٨٥ عند هذه الكلمات، تلا يوحنا صلاةً، وتناول خبزاً، وحمله إلى الضريح لكسره وقال: «نمجِّد اسمك الذي يحوّلنا عن الضلال والوهم القاسي! نمجِّدك، أنت الذي أرانا بعيوننا ما رأينا! نشهد لرأفتك التي انكشفت بطرقٍ مختلفة! نحمد يا ربّ اسمك المجيد الذي أفحم ضلالاً مَنْ افحمتهم ضلالاً! نسبِّحك يا ربّنا يسوع المسيح، لأننا نثق بـ[...] الذي هو ثابت! نسبِّحك أنت الذي ابتغى الطبيعة مُخَلَّصة! نسبِّحك أنت الذي اعطيتنا الـ[يقين][1] الذي لا يُرَدّ بأنك الإله الوحيد الآن وإلى الأبد! نحن خدامك، المجتمعون والمتجدّدون، نسبِّحك يا أيها القدُّوس!»

٨٦ وحين صلّى هكذا ومجّد، وزّع على كلّ الإخوة إفخارستيّا الربّ وخرج من الضريح. ثم توجّه إلى عند أندرونيكوس وقال للإخوة: «أيها الإخوة، ان روحاً فيّ أنبأ بأن فورتوناتوس يجب أن يموت بسبب اللطخة السوداء التي سبّبتها لسعة الحيّة. ليسارِعْ احدٌ ما ويرى إنْ كان الأمر حقاً كذلك!» ومضى أحد الشبان راكضاً ووجده متورِّماً: كانت اللطخة السوداء قد انتشرت وبلغت قلبه. وعاد يُخبِر يوحنا بأنه سيكون ميتاً خلال ثلاث ساعات. فقال يوحنا إذاك: «تتلقّى ابنك، يا أيها الشيطان!»

---

١ ـ الكلمة أُعيدت إلى النص موضوع الترجمة.

٢٤ . إنتقال[١] يوحنا: الإحتفال الأخير مع الإخوة

١٠٦ ولبث يوحنا المغبوط إذاً مع الإخوة مبتهجين بالربّ. وفي الغد ـ وكان أحداً وكلّ الإخوة مجتمعين ـ، أخذ يكلّمهم: «أيها الإخوة، يا رفاق الخدمة، أيها الشركاء في ميراث ملكوت الربّ والمشاركون فيه، تعرفون الله: كم من معجزات منحكم بوساطتي، كلّ تلك الآيات، كلّ تلك العلامات، كلّ تلك الشفاءات، كلّ تلك الإكرامات، كلّ تلك التعاليم، التعليمات، الراحات، الخدمات، الأمجاد، تعابير الإيمان، المشاركات، النِّعَم، المواهب، الأشياء الكثيرة التي رأيتموها، لأنه وضعها تحت أنظاركم، هي التي ليست مع ذلك مرئية لتلك الأنظار ولا مسموعة لتلك الآذان! كونوا إذاً ثابتين فيه وتذكّروه في كلٍّ من أفعالكم، لأنكم تعلمون لأي سبب حقّق الربّ سر التدبير الخلاصي لصالح البشر. أيها الإخوة، هو الربّ نفسه الذي يوجِّه إليكم بوساطتي طلباً ورجاءً: انه يريد أن يبقى في منأى من الحزن، الإهانة، العداوة والعقاب. انه يعرف أيضاً في الواقع الإهانة الآتية منكم، ويعرف أيضاً العقاب، عندما تعصَون وصاياه المقدَّسة.

١٠٧ «ألا لا يكون إلهكم، الذي هو صالح، حزيناً إذاً، هو الرؤوف، الرحوم، القدُّوس، النقي، البلا دنس، غير المادي، الوحيد، الواحد، الدائم، الحق، هو الخالي من المكر، هو الخالي من الغضب، هو الله، يسوع المسيح، الذي هو فوق كلّ التسميات وما وراءها التي يمكننا النطق بها أو تصوُّرها! ليغتبط معكم لأن مسلككم صالح! ليكن في

---

١ ـ الكلمة في اليونانية، هي: "Métastasis"، وتعني تقليدياً رواية لحظات يوحنا الأخيرة. سبب استخدام الكلمة فكرة ان الرسول لم يمُتْ مثل أي إنسان، بل سيبقى في شكل سرّي. الشهود على هذا المقطع أعطَوه هذا العنوان أو عنواناً آخر، هو: "Anaposis"، ويعني «راحة»، وهو الأقدم على الأرجح.

الفرح لأنكم تعيشون في النقاء! ليعرف الراحة لأنكم تعيشون حياةً لائقة! ليكن بغير قلق لأنكم تحيَون في العِفّة! ليُحِسّ بسرور بسبب شراكتكم! ليضحك بسبب اعتدالكم! لينعم بسبب حُبّكم له! انني أُلقي عليكم الآن هذا الخطاب، أيها الإخوة، لأنني أُسرِع نحو العمل المحدّد لي والذي سيقوده الربّ الآن إلى نهايته. ماذا أستطيع أن أقول لكم بَعْدُ؟ انكم تملكون أجور إلهكم. تملكون عربون رأفته. تملكون حضوره الذي لا يُرَدّ. إنْ لم تعودوا إذاً إلى ارتكاب خطايا، فإن ما فعلتموه في الجهل يغفره لكم. إلا انكم إذا تصرّفتم كما في السابق، بعد معرفته والحصول على رحمته، فسوف تُلصَق بكم الخطايا الأولى نفسها، ولن تحصلوا علىْ نصيب ولا رحمة فيه.»

١٠٨ وبعدما وجّه إليهم هذه الكلمات، تلا يوحنا هذه الصلاة: «يا يسوع، أنت الذي ضفرت هذا الإكليل ليكون إكليلك، أنت الذي رتّبت هذه الزهور الكثيرة فوق زهرتك الخالدة، الذي زرعت هذه الكلمات التي تخصّك، أنت الحارس الوحيد لخدامك والطبيب الوحيد الذي يشفي مجاناً، الوحيد المُحسِن والخالي من الكبرياء، الوحيد الرحوم والكريم، الوحيد المخلِّص والعادل، أنت الموجود منذ الأزل، الكائن في كلّ شيء، الحاضر في كلّ مكان، الذي يحتوي كلّ الأشياء ويملأ كلّ الأشياء، أيها الإله يسوع المسيح، يا ربّ! أنت إذاً بعطاياك ورحمتك، تحمي كلّ الذين يرجَون فيك. أنت الذي تعرف تماماً كلّ المكائد والدسائس التي يُثيرها عدوّنا الحاضر في كلّ مكان ضدّنا، أنت وحدك يا ربّ، أَنجِدْ بعنايتك خدامك!»

١٠٩ ثم طلب خبزاً وحمد بهذه العبارات: «أي تسبيح، اي كلمة تقدمة، أي فعل شكر نستطيع التفوُّه بها ونحن نكسر هذا الخبز سوى دعوتك أنت وحدك يا يسوع؟ اننا نمجِّد اسمك الآب الذي عبّرت عنه!

اننا نمجِّد اسمك الإبن الذي عبّرت عنه! اننا نمجِّدك البابَ الذي يوصل! اننا نمجِّدك القيامةَ التي كشفتها لنا! اننا نمجِّدك الطريق! اننا نمجِّدك الزَّرعَ، الكلمة، النعمة، الإيمان، الملح، اللؤلؤة التي لا توصف، الكنز، المحراث، الشبكة، الرِّفعة، التاج، الذي لأجلنا دُعي ابن الإنسان، الحق، الراحة، المعرفة، القدرة، الوصيّة، الإطمئنان، الحرية، الملجأ المُكتشَف فيك! لأنك يا ربّ مصدر الخلود، نبع اللافساد وأساس الدهور، أنت الذي تتلقّى كلّ هذه الأسماء لأجلنا حتى نعرف رفعتك باستخدامها لمناداتك، غير المرئية بالنسبة إلينا في الحاضر انما المرئية فقط بالنسبة إلى الأنقياء، الذين يتكوّنون في إنسانك الأحد![١]»

١١٠ وعندما كسر الخبز، وزّعه علينا وتلا صلاةً لكلّ أخٍ ليكون كلّ واحد أهلاً لنعمة الربّ والإفخارستيّا الكلّيَّة القداسة. ثم بعدما ذاق منه هو أيضاً وبعدما صرّح: «لأنَلْ أنا أيضاً منكم نصيبي والسلام، أيها الأحباء!»»، قال لڤيروس: «خُذْ معك أخوَين مزوّدَين بسلال ومعازق، وتعال معي!» وعلى الفور نفّذ ڤيروس الأمر الذي أعطاه إياه يوحنا، خادم الله.

٢٥ . إنتقال يوحنا: تحضير القبر، الصلاة والموت

١١١ وبعدما خرج من المنزل، مضى يوحنا المغبوط إلى خارج أبواب المدينة، طالباً من العدد الأكبر البقاء بعيداً عنه. ووصل إلى ضريح أحد إخوتنا وقال للشبان: «أُحفروا، أيها الأولاد الصغار!» إذاك أخذوا يحفرون. وكان هو يشجّعهم بقوة: «لتكُنْ أعمق، هذه

---

١ ـ من المشكوك فيه ان تكون هذه الصلاة الإفخارستيّة جزءاً من النص الأصلي في صيغتها هذه.

الحفرة!» وفيما كانوا يحفرون، كان يعظهم. وكان يعظ أيضاً الذين خرجوا معه من المنزل: كان يهديهم، يثبِّتهم في عظمة الله، ويصلّي لكلٍّ منا. وحين أنهى الشبان الحفرة بإعطائها الشكل الذي كان يريده، خلع هو من دون أن نعلم لماذا، الثياب التي كان يرتديها ووضعها في قعر الحفرة كما ليصنع منها سريراً. ثم بسط يديه واقفاً، مرتدياً قميصه المزدوح الهُدب وحده، وتلا هذه الصلاة:

١١٢ «أنت الذي اخترتنا لتبشير الأمم؛ أنت يا الله الذي أرسلتنا إلى العالم؛ أنت الذي أظهرت نفسك بوساطة رسلك؛ أنت الذي لم تبقَ أبداً ساكناً، بل الذي خلّص دوماً الذين يمكنهم أن يخلصوا؛ أنت الذي عرّفت إلى نفسك عبر كلّ الطبيعة المخلوقة؛ أنت الذي أعلنت نفسك حتى بين الحيوانات؛ أنت الذي جعلت من النفس الفظّة والقاسية نفساً وديعة وهادئة؛ أنت الذي بذلت نفسك للتي كانت متعطِّشة إلى كلماتك؛ أنت الذي ظهرت سريعاً للتي كانت ميتة؛ أنت الذي كشفت نفسك قاعدةً للتي غرقت في الفوضى؛ أنت الذي أظهرت نفسك للتي كانت مهزومة على يد الشيطان؛ أنت الذي انتصرت على عدو التي بحثت عن ملجأ فيك؛ أنت الذي مددت اليد إليها ورافقتها من سلطان الجحيم؛ أنت الذي لم تسمَحْ بأن تعيش بحسب الجسد؛ أنت الذي أريتها عدوها؛ أنت الذي جعلت معرفتك نقيّة، يا الله، أيها الربّ يسوع! أنت أبو كائنات السماوات العلى، إله الكائنات السماوية، شريعة كائنات الأثير ومجال الكائنات الهوائية، حارس الكائنات الأرضية ورعب الكائنات الجوفية، تقبَّلْ أيضاً نفس يوحناك بما أنك تراه من دون شك أهلاً لذلك!

١١٣ «أنت الذي حفظني لك حتى هذه الساعة، نقيّاً وبتولاً من كلّ اتحادٍ بامرأة؛ أنت الذي ظهرت لي عندما أردت في صباي أن أتزوّج؛

وقلت لي: "أنا في حاجة إليك يا يوحنا"؛ أنت الذي أعفيتني من مرض جسدي، في اللحظة التي كنت سأتزوّج فيها؛ أنت الذي فيما كنت أريد الزواج للمرة الثالثة، منعتني من ذلك لأنني عصيتك، وقلت لي لاحقاً، في الساعة الثالثة من النهار في عرض البحر: "يا يوحنا، لو لم تكن لي لكنت تركتك تتزوّج"، أنت الذي حرمتني النظر خلال عامَين وقدّمت لي هكذا فرصة البكاء والصلاة إليك؛ أنت الذي فتحت عينَي بصيرتي في العام الثالث، واعدت إليّ عينَي الخارجيَّتين؛ أنت الذي وصفت لي عندما استعدت رؤية واضحة، حتى واقع تركيز نظري على امرأة غير مُحتمَل؛ أنت الذي خلّصتني من المشهد العابر والذي قادني نحو المشهد الذي يظل أبدياً؛ أنت الذي أبعدتني عن الجنون الدَّنس الموجود في الجسد؛ أنت الذي انتزعتني من الموت المرّ وثبّتني فيك وحدك؛ أنت الذي لجمت المرض الخفيّ في نفسي وبترت أعماله المرئية؛ أنت الذي لاحقت المتمرِّد الذي كان فيّ وطردته؛ أنت الذي جعلت حُبّي لك بلا دنس؛ أنت الذي أعددت طريقي إليك لئلا تُعرقَل؛ أنت الذي أعطيتني إيماناً بك مُنَزَّهاً من الشك؛ أنت الذي وضعت فيّ معرفةً بك نقيّة؛ أنت الذي تؤدي لكلّ واحد جزاء أعماله العادل؛ أنت الذي وضعت في نفسي ضرورة عدم امتلاك شيء أثمن منك؛ الآن إذاً وقد أتممت الرسالة التي عهدت بها إليّ، أيها الربّ يسوع، تفضّلْ واحكُمْ بأنني أهل لراحتك وامنحني الانتهاء فيك، أي الخلاص الذي لا يوصَف ولا يُعَبَّر عنه!

١١٤ «وخلال السفر الذي يقودني إلى قربك، لتتراجع النار، لتنهزم الظلمات، لتفقد الهاوية قوتها، لتنطفىء السعير، لتخمُدْ جهنم، ليرتبك الملائكة، ترتعب الشياطين، يُسحَق الولاة، لتخسر القوات، لتبقَ أمكنة اليمين راسخة، لتزُلْ أمكنة اليسار، ليُلجَمْ إبليس، ليُسخَر من

الشيطان، ليتلف هيجانه، يتحوّل حنقه هدوءاً، لينقلب انتقامه خزياً له، لتُعَذَّبْ حدّته، ليتألّمْ ابناؤه ولتُنْفَ ذريّته كلّها! أعطِني أن أقطع حتى النهاية الطريق إليك في منأى من الإهانة والشتيمة، لأتسلّم ما وعدت به الذين عاشوا في النقاء ولم يُحِبّوا سواك!»

١١٥ إذاك، حين رسم إشارة الصليب كاملةً، واقفاً، وقال: «كُنْ معي، أيها الربّ يسوع المسيح!»، رقد في الحفرة حيث بسط ثيابه. وبعدما قال لنا: «ليكن السلام معكم، أيها الإخوة!»، أسلم الروح في الفرح.

أعمال أَندراوس

بعض بقايا هذه الأعمال التي وصلت إلينا تعود إلى القرن الثاني م. يُفترَض أن يكون مدى النص واسعاً جداً. فالجزء الأول يتضمّن قصة سفر الرسول، والثاني استشهاده.

تهيمن عليه فكرة تفضيل الموت على الزواج، ممّا يُلحِق بالرسول ثار الأزواج الحانقين.

الترجمة التالية نبذة عنوانها «رسالة كهنة أخاية وشمامستها في شأن استشهاد القدِّيس أَندراوس».

عُرِفت هذه الأعمال وقُرِئت في أَفريقيا ومصر وفلسطين وسوريا وأَرمينية وآسيا الصغرى واليونان وإيطاليا وبلاد الغول وأَسپانيا. وحظيت بشهرة واسعة في الأوساط ذات الميول الثنائية والتقشُّفية، ولا سيما لدى المانويين[1].

نحن جميعاً، كهنة أَخاية وشمامستها، نكتب إلى كلّ الكنائس القائمة باسم يسوع المسيح الموجودة في الشرق وفي الغرب، في

---

١ ـ اتباع داعية ما بين النهرَين ماني. رسام، طبيب، ومدّعي نبوّة من القرن الثالث م. قال بثنائية الخير والشر وحُورِب بشراسة مع اتباعه.

الجنوب وفي الشمال، راوين لها استشهاد القديس الرسول أَندراوس الذي رأيناه بأعيننا. السلام لكم ولكلّ الذين يؤمنون بإله واحد، كامل في الثالوث، آب حقيقي غير مولود، إبنٍ حقيقي وحيد، روح قدس حقيقي منبثق من الآب، مقيم في الإبن، ليثبت أن هناك روحاً وحيداً في الآب وفي الإبن، وأن الإبن الوحيد هو الذي ولَد. إنه الإيمان الذي علّمنا إياه القديس أندراوس، رسول ربّنا يسوع المسيح الذي سنلقى، وفقاً لقدرتنا، الاستشهاد، الذي رأيناه:

١. صراع مع الوالي

بدأ الوالي إجوس، وقد دخل مدينة پاتراس، إكراه الذين كانوا يؤمنون بيسوع المسيح على التضحية للأوثان. فقال له القدّيس أَندراوس، متوجّهاً إليه: «ينبغي أن تعرف أنت، الذي تُظهِر أنك ديّان البشر، ديّانك الذي في السماء؛ وأن تسبّحه، وقد عرفته، وأن تحوّل ذهنك، وقد سبّحته، بما أنه الإله الحقيقي، عن الذين ليسوا آلهة حقيقيين.»

وأجابه إجوس: «أنت أَندراوس الذين يدمّر هياكل الآلهة والذي يبشّر الناس بأباطيل، مستدرجاً إياهم إلى شيعة اكتُشِفت منذ فترة قصيرة وأمر الأباطرة الرومان بإبادتها.»

فقال أَندراوس: إن الأباطرة الرومان لم يعلموا بعد أنّ ابن الله، وقد أتى إلى هذا العالم لخلاص البشر، علّم أن أوثانكم لم تكن آلهة فقط، بل وكانت شياطين شريرة جداً وعدوّة للجنس البشري؛ فهي تعلّم البشر ما يجب أن يُهين الله، حتى يتحوّل عن البشر، وقد أُهين، ولا يستجيبهم، وإذاك يسقطون تحت سيطرة الشيطان، متحوّلين

أسراه، فيخدعهم إلى أن يخرجوا من أجسادهم مذنبين وعراة، غير حاملين معهم سوى خطاياهم.»

وقال إجوس: «إنها الأقوال الباطلة والتافهة التي كان يبشّر بها يسوعك الذي علّقه اليهود على الصليب.» فأجاب أندراوس: «أوه! إذا كنت تريد أن تعرف سرّ الصليب وكيف عانى خالق الجنس البشري، مستسلماً لمحبّته العظيمة، هذا العذاب لخلاصنا وبتأثير من إرادته!»

وأجاب إجوس: «لقد أسلمه أحد تلاميذه، وأمسك به اليهود، واقتيد إلى أمام الحاكم، وصلبه جنوده، وفقاً لطلب اليهود؛ فكيف يمكنك أن تقول عانى طوعياً عذاب الصليب؟» فأجاب أندراوس: «أقول إنه عانى بملء إرادته، لأنني كنت معه عندما أسلمه أحد تلاميذه، وقبل أن يُسلَم، قال لنا إنه يجب أن يُسلَم ويُصلَب لخلاص البشر؛ وتنبّأ لنا بأنه سيقوم في اليوم الثالث. وإذ قال له أخي بطرس: "يا ربّ، كُنْ رحوماً من أجل نفسك فلا تحدث هذه الأمور"، أجابه بسخط : "أُخرُجْ، يا شيطان، لأنك لا تعرف الأمور التي من الله." وحتى يُخبِرنا في شكل أوضح كيف كان يعاني الآلام بملء إرادته ، كان يقول لنا: "لدي سلطان التخلّي عن نفسي ولدي سلطان استردادها." وأخيراً، عندما كان يتعشّى معنا ويقول: "واحد منا سيخونني"، وبما أن الحزن كان يستولي علينا جميعاً، لهذه الكلمات، قال لئلا يُهلِكنا القلق والشك: "إنه الذي سأُعطيه بيدي قطعة خبز." وعندما أعطى أحدنا منه وروى الأحداث المستقبلية كما لو انها حصلت، علِّم أنه تعرّض للخيانة بفعلٍ من إرادته، وأنه بقي في المكان الذي كان يعلم أن أعداءه سيُمسِكون به فيه.»

٢. "موت الصدِّيقين ثمين"

وقال إجوس: «أستغرب أن تجعل من نفسك أنت، الرجل الحذر، متشيِّعاً لرجل صُلِب، كما تعترف بذلك، إما بإرادته، وإما على رغمه.» فأجاب أَندراوس: «سبق أن قلت لك إن في الصليب سرّاً عظيماً؛ إذا أردتَ معرفته، اكشفه لك.» قال إجوس: «إن ذلك لا يمكن دعوته سرّاً، بل عذاب.» وقال أَندراوس: «سوف تعترف، إذا أردت الاستماع إليّ بصبر، بأن هذا العذاب هو سرّ إصلاح الجنس البشري.» وقال إجوس: سأستمع إليك بصبر، إنما إذا لم تستمع إليّ، من جهتك، عندما أُعطيك أوامري، فسوف تختبر في شخصك سر الصليب هذا.» فأجاب أَندراوس: «إذا كنت أخشى عذاب الصليب، فإنني لن أُبشِّر بمجد الصليب.» وقال إجوس: «تتكلّم كمجنون؛ تفاخر بمجد العذاب ولا تخشى جرأتك عقوبة الموت.» فأجاب أَندراوس: «ليس ذلك عن جرأة، بل بسبب إيماني لا أخشى الموت. إن موت الصدِّيقين ثمين، لكن موت الخطأة رهيب. أريد إذاً أن تسمع سرّ الصليب، لتتمكّن من الإيمان به، وقد عرفته، ولتصل إلى إصلاح نفسك، وقد آمنت به.» قال إجوس: «لا نُصلِح إلا ما دُمِّر. فهل نفسي هلكت لتأتي وتقول إن من الواجب إصلاحها بإيمان، لا أدري ما هو؟»

٣. فداء المسيح

وأجاب أَندراوس: «حين أكون قد برهنت لك على أن نفس البشر كانت هالكة، سوف أعرض أمامك إصلاحها بسرّ الصليب. إن الإنسان الأول وقد خطىء بالخشب أدخل الموت هذا العالم، وكان من الضروري أن يُطرَد بخشب الآلام. والإنسان الأول الذي بسقوطه،

أدخل الموت العالم وقد صُنِعَ من تراب، كان من الضروري أن يولد يسوع المسيح، من عذراء بلا عيب ويُعيد إلى البشر الحياة التي فقدوها كلّهم، ويدمّر بخشب الصليب شهوة الخشب؛ كان ينبغي بسبب الأيدي المبسوطة في المعصية، أن يبسط على الصليب يدَيه البلا عيب، وأن يتناول المُرّ قوتاً بسبب غذاء الشجرة المحرَّمة اللذيذ، وإذ التحم بوضعنا الفاني، قدّم لنا خلوده.»

٤. الحمل الحيّ

وقال إجوس: «عليك أن تروي هذه الأمور للذين يصدّقونك؛ أما أنا، فإذا لم تُطِعْني وإذا لم تُقدِّمْ قرباناً للآلهة الكُلِّيَّة القدرة، فسوف آمر بتعليقك، بعد جلدك، على ذلك الصليب الذي تتباهى به.» فأجاب أَندراوس: «إنني أُقدِّم كلّ يوم قرباناً للإله الكُلِّيِّ القدرة الذي هو وحده الحقيقي، لا دخان البخور، ولا لحوم الثيران الخائرة، ولا دم الأكباش، بل أُضحِّي كلّ يوم على مذبح الصليب بالحمل البلا عيب الذي يبقى الحمل الخالد والحي، بعدما أكل الشعب المؤمن كلّه جسده وشرب دمه؛ وبعدما ضُحِّي به، وأكل الشعب جسده، وشُرِب دمه، يظل مع ذلك، كما قلت، كاملاً، بلا عيب وحيّاً.»

وقال إجوس: «كيف يمكن لذلك أن يكون؟» فأجاب أَندراوس: «إذا كنت تريد أن تعرف كيف يمكن لذلك أن يحدث، فصِرْ تلميذ الربّ، حتى تتمكّن من معرفة ما ترغب فيه.» وقال إجوس: «سوف أنتزع منك بالتعذيب معرفة هذه الأمور.» فقال أَندراوس: «إنني أُفاجأ بأن رجلاً فَطِناً مثلك يتكلّم بطريقة مجرّدة منْ الإدراك إلى هذا الحد. أَتتصوُّر النجاح بالتعذيب في دفعي إلى كشف الأسرار المقدَّسة؟ لقد سمعت سرّ الصليب؛ وسمعت سرّ التضحية. وإذا اعتقدت بأن يسوع، ابن

الله، الذي صلبه اليهود، هو ابن الله الحقيقي، فسوف أشرح لك كيف أن الحمل حيٌ بعد قتله، وكيف أنه بعد التضحية به وأكله، يبقى كاملاً وبلا عيب في ملكوته.» وقال إجوس: «كيف يمكنه، بعد أن يُقتَل ويأكله الشعب كلّه (على ما تؤكّد)، أن يظل كاملاً وحيّاً؟» فأجاب أَندراوس: «إذا آمنت من كلّ قلبك، تستطيع أن تفهم ذلك؛ وإذا لم تؤمن، فلن تصل أبداً إلى معرفة هذه الحقيقة.»

٥. سجن الرسول

عندها أمر إجوس، وملؤه الغضب، بأن يوضع الرسول في السجن. وهرع جمهور كبير من الولاية كلّها، ناوياً قتل إجوس وإنقاذ أَندراوس، بعد خلع الأبواب. لكن القدِّيس أندراوس توجّه إلى الشعب وقال: «لا تعكِّروا راحة يسوع المسيح مستسلمين لتمرُّد يثيره الشيطان. لقد أبدى الربّ، عندما أُسلِم لأعدائه، صبراً لا متناهياً، فلم يقاوِمْ، ولم يُسمِعْ شكوى، وما من أحد سمعه يرفع صوته في الساحات. التزموا إذاً الصمت، الهدوء والسلام، ولا تعترضوا فقط على استشهادي، بل حضِّروا أنفسكم أيضاً، باعتباركم مجاهدي الربّ، للانتصار على التهديد ببسالتكم، والتغلُّب على العذابات بتصبُّر الجسد. إذا كان ينبغي الخوف، فمن العذاب الذي لا ينتهي أبداً. إن الخوف البشري مثل الدخان؛ فهو يتبدّد ما أن يبدو. وإذا كان الألم مدعاة خوف، فهو الذي يدوم أبدياً. توجد آلام أبدية حيث البكاء المستمر، والعويل، والحداد والعذابات التي لا نهاية لها، والتي لا يخاف الوالي إجوس التعرُّض لها. كونوا جاهزين لبلوغ الأفراح الأبدية بعبوركم المصائب الزمنية؛ هناك تكونون دوماً في الحبور؛ وتكونون نَضِرين دائماً وتملكون إلى الأبد مع يسوع المسيح.»

٦. تهديد الوالي

وإذ علَّم الرسول القدِّيس الشعب على هذا النحو خلال الليل كلّه، جلس إجوس على كرسي قضائه، عندما حلّ النهار، وقاد أَندراوس إلى أمامه، وقد أرسل في طلبه، وقال: «أعتقد بأن تأمّلاتك لهذه الليلة قادتك إلى التخلّي عن جنونك والكفّ عن امتداح مسيحك، لتستطيع أن تحفظ معنا أفراح الحياة. فمن الحمق توخّي الذهاب إلى عذاب الصليب والحكم على النفس بالنيران وأقسى العذابات.»

وأجاب أَندراوس: «لا أستطيع المشاركة في أفراحك، إلا إذا تخلَّيت عن عبادة الأوثان، مؤمناً بيسوع المسيح، لأن يسوع المسيح أرسلني إلى هذه الولاية حيث استملت إليه عدداً هائلاً من المؤمنين.» فقال إجوس: «لهذا أُرغِمك على التضحية، ليتحقّق الناس الذين خدعتهم من بطلان عقيدتك ويقدِّموا قرابين للآلهة. ليس في أَخاية مدينة لم تُهجَر فيها هياكل الآلهة. وينبغي أن تعود عبادة الآلهة إلى حالها بوساطتك، لتهدأ حيالنا، ولا تظلّ غاضبة علينا، ولنستطيع التمتُّع بصداقتها. وإذا رفضت، فسوف تتعرّض لعذابات مختلفة وتموت بعد ذلك، معلَّقاً على ذلك الصليب الذي امتدحته.»

٧. رد أَندراوس

وأجاب أَندراوس: «إستمعْ، يا ابن الموت، يا قشّةً مرصودة للنيران الأبدية، إستمعْ إليّ، أنا خادم الله ورسول يسوع المسيح. لقد تصرّفت حيالك بلطفٍ حتى الآن، حتى تحتقر أوثاناً باطلة وتعبد الله الذي في السماء، مُدركاً الصواب وصائراً المدافع عن الحق. لكن بما أنك تظن، متشبِّثاً بوقاحتك، بأنك تستطيع إخافتي بتهديداتك، تصوَّرْ كلّ

العذابات التي تستطيع أن تراها الأقسى. فكلما تشبَّثتُ في العذابات بتسبيح إلهي، كلما كنت مَرضياً عنده.»

٨. جلد وتهديد جديد

عندها أمر إجوس بجلد الرسول، وبعدما قاسى أَندراوس سبعاً وعشرين ضربة سوط، فُكَّ وأُعيد إلى أمام الوالي، الذي قال له: «إستمِعْ إليّ، يا أَندراوس، ولا تتشبَّث بتوخّي إرهاق دمك؛ إذا لم تستمع إليّ، فسوف أُهلِكك على الصليب.» فقال أَندراوس: «أنا خادم صليب يسوع المسيح، وعليّ أن أتمنى بدلاً من أن أخاف شعار الصليب الغالب. أما أنت، فيمكنك تجنُّب العذابات الأبدية التي تستحقّها، إذا آمنت بيسوع المسيح، بعد معاناة آلامي. إنني أخشى أن تخسر نفسك؛ إنني لا أضطرب مما يمكنني أن أتألّمه. إن آلامي ستدوم يوماً أو اثنين في الأكثر، لكن عذاباتك لن يمكنها، بعد آلاف الأعوام، الوصول إلى نهايتها. كُفَّ عن زيادة شقائك وتأجيج النار التي تُعِدُّها لنفسك.»

٩. إلى الصلب

عندها أمر إجوس، حانقاً، بتعليق أَندراوس على الصليب، وأوصى الجلادين بعدم استخدام مسامير، بل بربط قدمَيه ويدَيه، كما على حمّالة، ليعاني عذابات طويلة. وعندما قاده الجلادون إلى الإعدام، تجمّع الشعب، صائحاً: «إنه رجل صدِّيق وصديق الله؛ فماذا فعل ليُصلَب؟» لكن أَندراوس رجا الشعب عدم اعتراض استشهاده، ومضى إليه ملؤه الفرح والحبور، من دون أن يكفّ عن التبشير.

وحين بلغ الموضع الذي أُعِدَّ فيه الصليب، ورآه من بعيد، هتف بصوتٍ عالٍ: «سلام، أيها الصليب، الذي كرّسه جسد يسوع المسيح،

وتزيّن بلآلىء أطرافه. قبل أن يصعد إليك الربّ، كنت توحي بالخوف؛ الآن أنت موضوع الحب الإلهي، وأصبحت هدف رغباتنا؛ المؤمنون يعلمون كم تحتوي أفراحاً، كم من الخيرات مهيّأة لديك. أنا آتٍ إليك بطمأنينة وبحبور، لتتلقّى برأفةٍ تلميذَ مَنْ عُلِّق عليك؛ لقد أحببتك دوماً ودوماً رغبت في تقبيلك. أيها الصليب الصالح الذي تلقّيت من أطراف الربّ جمالك وروعتك، أنت الذي رغبت فيك طويلاً وأحببتك بشوقٍ دائماً، أنت الذي طلبتك دائماً واستُجيبت أُمنياتي أخيراً، أَخرِجْني من بين البشر، وأَعِدْني إلى معلّمي، ليستقبلني بك مَنْ افتداني بك.»

وتعرّى، قائلاً هذه الكلمات، وسلّم الجلادين ثيابه. فأمسكوا به، ورفعوه على الصليب، وربطوا جسده بحبال، وفق الأمر الذي أُعطِي لهم. وكان جمع من المشاهدين الذين لم يكونوا دون العشرين ألف إنسان، بينهم شقيق إجوس، المُسمّى ستراتوكليس، الذي كان يصيح مع الشعب بأنه كان رجلاً قدّيساً ومُداناً ظلماً. لكن القدّيس أندراوس كان يشدّد عزائم المؤمنين بيسوع المسيح، ويحضّهم على الصبر، معلّماً إياهم أن ما من شيء يستحقّ الاعتبار عندما يتعلّق الأمر بالحصول على المكافأة الأبدية.

١٠. خوف الوالي

إذاك توجّه الشعب، مُطلِقاً صيحاتٍ، إلى مسكن إجوس، وكانوا كلّهم يقولون: «هذا الرجل القدّيس، العفيف، الذي لا عيب في مسلكه الورع، المتواضع، الممتاز في عقيدته، لا يجب ان يُعامَل هكذا؛ يجب أن يُفَكّ عن الصليب، حيث لا يكفّ عن التبشير بالحقيقة منذ يومَين وهو معلّق عليه.»

وكان إجوس يخشى غضب الشعب، فقصد أَندراوس، واعداً بإنقاذه؛ وإذ لمحه القدِّيس أَندراوس، قال: «لِمَ تأتي إليّ، يا إجوس؟ إذا كنت تريد الإيمان بيسوع المسيح، فدرب المغفرة مفتوحة لك، كما وعدتك بذلك؛ وإذا أتيت فقط لإنقاذي، فلن أُفَكَّ حيّاً عن هذا الصليب. إنني أرى ملكي، وأعبده، وأتمتّع بحضرته. لكنني أُشفِق على شقائك، لأن هلاكاً أبدياً ينتظرك. تصرَّفْ، أيها الشقيّ، طالما أنك لا تزال تستطيع ذلك؛ وعندما ستشاء ذلك، لن تعود تستطيعه.» ولم يتمكّن الجلادون، وقد رفعوا أذرعهم، من لمس الرسول. فنادَوا رجالاً آخرين لمساعدتهم، لكن أذرع كلّ الذين كانوا يريدون فكّ أَندراوس كانت مصابة بخَدَر، وما من أحد كان يستطيع لمسه.

١١. نور بهيّ

عندها قال القديس أَندراوس بصوتٍ عالٍ: «لا تسمَحْ، يا ربّي يسوع، بأن يُنقَذ خادمك المعلَّق على الصليب؛ لا تسمَحْ بأن الذي عرف عظمتك، بالصليب، يُهان على يد إجوس، وهو رجل معرَّض للفساد؛ تقبَّلْني، أيها الربّ يسوع، يا معلِّمي، الذي عرفت، الذي أحببت، الذي اعترف له، الذي أرغب في رؤيته، الذي معه أنا ما أنا. تقبَّلْ، أيها الربّ يسوع، روحي بسلام، لأن الوقت الذي أستطيع فيه التوصُّل إلى رؤيتك قد حلّ. تقبَّلْني، يا ربّ، يا معلِّمي الصالح، ولا تسمَحْ بأن أُفَكّ عن هذا الصليب قبل أن تتقبَّل روحي.»

وحين تكلَّم هكذا، أحاط به نور باهر، كبرقٍ آتٍ من السماء، أمام الشعب كلّه، ولم تكن العيون البشرية قادرة على احتمال ذلك البهاء. وحين لبث ذلك النور سحابة نصف ساعة، توارى؛ وفي تلك اللحظة

أسلم الرسول الروح، عائداً مع ذلك النور إلى الربّ، الذي له التكريم والمجد إلى أبد الآبدين. آمين.

١٢. موت الوالي

وقصدت الصليب امرأة اسمها ماكسيميلا، وهي امرأة شيخ، مُحِبَّة العفّة والقداسة، ما أن علمت أن الرسول كان مع الربّ، وفكّت الجسد بأعظم احترام؛ وطيّبته بعطور، ووضعته في مكان أعدّته لدفنه. وكان إجوس، غاضباً من الشعب، يستعدّ لحمل اتهام إلى أمام قيصر ضد الشعب وضد ماكسيميلا؛ لكن الشيطان استولى عليه، فيما كان يزاول واجباته الوظيفية، فقضى في وسط الساحة العامة من المدينة. وحُمِل هذا الخبر إلى أخيه، المُسَمّى ستراتوكليس، فأرسل عبيده، وأمرهم بدفنه بين المنبوذين. ولم يُرِدْ أخذ شيء من أمواله، قائلاً: «أرجو ألا يسمح يسوع المسيح، ربّي، الذي آمنت به، بأن آخذ شيئا من مال أخي، خوفاً من أن أُلَطَّخ بجريمة الذي تجرّأ على إهلاك رسول الله، مدفوعاً بحبّ المال.»

هذه الأمور جرت في مدينة باتراس، في ولاية أَخاية، عشية غُرّة كانون الأول، ومبرّات القدّيس تُستشعَر في مجدها حتى اليوم الحاضر. وقد استولى على الجميع فزع إلى حد أن أحداً لم يبقَ غير مؤمنٍ بالمخلِّص إلهنا، الذي يريد أن يخلص كلّ البشر، ويبلغوا معرفة الحق. المجد له إلى أبد الآبدين. آمين.

أعمال توما

يروي هذا النص رحلة الرسول توما التبشيرية، تعاليمه، ومعجزاته في الهند. وُضِع في بداية القرن الثالث م. في حلقات غنوصيّة ومانويّة، في الرّها، في اللغة السريانية. إنما ينبغي اللجوء إلى الترجمة اليونانية التي ترقى إلى ترجمة أقدم للحصول على نص أقل تهذيباً.

تشهد الأناشيد والصلوات التي يتضمّنها على الخرافات الغنوصيّة، مثل زواج ابنة النور والعريس السماوي، وخرافة المخلِّص. ثمة مقاطع ذات جمال نادر وتعكس تأثير الغنوصيّة الهائل في المسيحية.

عُثِرَ على ثلاثة أجزاء من هذا النص، هذا أولها وأقدمها، وعنوانه: رحلة القدِّيس توما الرسول، واستشهاده.

في ذلك الزمان، كان الرسل كلّهم مجتمعين في أُورشليم: سمعان، الملقَّب بطرس؛ أَندراوس، أخوه؛ يعقوب، ابن زبدى؛ يوحنا، أخوه؛ فيليبس وبرتلماوس؛ توما ومتى العشّار، يعقوب، ابن حلفى؛ سمعان الكنعاني؛ ويهوذا، ابن يعقوب؛ وقد توزّعنا مناطق الأرض كلّها، لينطلق كلٌّ منا إلى البلد الذي عيّنته له القرعة، ويمضي إلى الأُمة التي

يبعثه إليها الربّ. وآلت الهند إلى يهوذا توما، المدعو أيضاً ديديم[١]؛ لكنه لم يشأ الذهاب، بحجة أن صحته السيئة تمنعه من السفر، ولن يستطيع تبشير الهنود بالحق، وهو يتكلّم اللغة العبرية. إذاك ظهر له الربّ خلال الليل وقال له: «لا تخشَ شيئاً، يا توما، إمضِ إلى الهند، وبشِّرْ هناك بالكلمة، لأن النعمة ستكون معك.» لكنه لبث يرفض، ويقول: «أَرْسِلْني إلى حيث تشاء، لأنني لن أذهب إلى الهند.»

١. نجّار عبد

وكان في أُورشليم آنذاك المدعو أَبّان، الواصل حديثاً من الهند، وقد أرسله من هناك الملك غوندافورس ليشتري له نجّاراً ويأتي به إليه. وإذ رأى الربّ هذا الرجل يتنزّه، نحو الظهر، في السوق، قال له: «أَتريد شراء نجّار؟ ـ نعم، أجاب. ـ لدي، قال له الربّ، عبد هو نجّار، وأريد بيعه.» ودلّه إلى توما من بعيد، وهو يقول هذه الكلمات؛وحدّدا الثمن ثلاث ليراتٍ فضّةً سبيكةً؛ وحُرِّر عقد البيع هكذا: «أنا يسوع، ابن يوسف النجّار، أعترف بأنني بعت يهوذا، عبدي، لك، يا أَبّان، مبعوث الملك غوندافورس.» وإذ تمّت الصفقة، أمسك الربّ بيهوذا توما، المدعو أيضاً ديديم، وقاده إلى أَبّان التاجر. فقال له أَبّان: «أَهذا الرجل سيِّدك؟ ـ نعم، أجاب الرسول، إنه سيِّدي. ـ لقد اشتريتك منه»، قال أَبّان. ولزم الرسول الصمت.

لكنه في اليوم التالي، منذ الفجر، رجا الربّ باتضاع، وقال له: «أذهب إلى حيث تشاء، يا ربّي يسوع؛ لتكن مشيئتك.» ومضى ينضم إلى أَبّان، غير حامل سوى المبلغ الذي بيع لقاءه؛ لأن الربّ أعطاه إياه، وهو يقول: «إحمِلْ هذا المبلغ وبركتي حيث تذهب.» ووجد الرسول أَبّان

---

١ ـ أي التوأم.

منشغلاً بنقل أمتعته إلى المركب؛ فساعده على الفور. وحين أبحرا، سأل أَبّان الرسول: «أي مهنة تجيد؟ ـ بالخشب، قال توما، أصنع محاريث، أنياراً، ميازين، مراكب، سواري وعجلات؛ بالحجر، معابد، أعمدة، ومقاراً للملوك.» فقال له أَبّان: «إننا نحتاج بالضبط إلى عامل مثلك.» وانطلقا إذاً، ووصلا سريعاً، تدفعهما ريح مواتية، إلى أَندروپوليس، وهي مدينة ملكية. فنزلا ودخلا المدينة.

٢. عرس ابنة الملك

وفجأة سمعا مزامير، أراغن مائية وأبواقاً تُصدي حولهما. «أي عيد يُحتفَل به في المدينة؟» سأل الرسول. فقال له الذين كانوا هناك: «إن الآلهة قادتك إلى هنا لمتعتك، فالملك يزوِّج ابنته الوحيدة، وأنت ترى أفراح العرس وملاهيه. إن الملك أرسل بُشَراء إلى كلّ مكان ليدعوا إلى العرس الأغنياء والفقراء، العبيد والأحرار، الغرباء والمواطنين. وإذا رفض أحدهم ولم يحضر العرس، يُعاقَب.» وإذ سمع أَبّان ذلك، قال للرسول: «هيّا بنا إذاً، نحن، خوفاً من إغضاب الملك، نحن الغريبَين. ـ هيّا»، قال الرسول. وحلا في نُزُل، وارتاحا فيه بعض الوقت، وانضمّا إلى الجمع.

وإذ رأى الرسول أشخاصاً كثيرين إلى المائدة، جلس إليها أيضاً؛ وكان الجميع يحدِّقون فيه، لأنهم كانوا يتبيّنون أنه غريب، وأنه آتٍ من بلاد بعيدة. وبصفته رجلاً حراً، جلس أَبّان إلى المائدة في مكان آخر. كان المدعوون يأكلون ويشربون، ولم يذق الرسول شيئاً، لذا كان المجاورون يقولون له: «لِمَ أتيت إلى هنا، طالما أنك لا تأكل ولا تشرب؟ ـ أتيت، قال لهم، لأمرٍ ما أكثر أهمية من الأكل والشرب، لأُنفِّذ مشيئة الملك؛ لأن بُشَراء أذاعوا أوامره، ومَنْ يعصى يتعرّض لانتقامه.»

٣. الله يُشِعُّ قدرته

وحين أكلوا وشربوا، جيء بأكاليل وعطور، فأخذ كلٌّ منها، لدهن وجهه، لحيته وأجزاء أُخرى من جسده. ودهن الرسول أعلى رأسه، ووضع عطراً تحت المنخرَين، وسكب منه في أُذنَيه، ووضع منه على أسنانه وعلى صدره؛ ثم ركّز على جبهته إكليلاً مضفوراً من الآس وزهور أخرى، وحمل بيده قصبة. وكانت عازفة ناي تروح إلى قرب المدعوين كلّهم، ممسكةً بيدها آلتها؛ وحين وصلت قبالة الرسول، انحنت نحوه، وعزفت طويلاً. كانت تلك المرأة يهودية. وكان الرسول مُطرِقاً بعينيه نحو الأرض. وفجأة بسط أحد السُّقاة يده وصفعه. ورفع الرسول عينَيه ثانيةً، وناظراً إلى الذي ضربه، قال له: «إن الله الذي أخدمه يغفر لك في الأبدية هذا الظلم، لكنه، في هذا العالم، يُشِعُّ قدرته، وسوف أرى هذه اليد، التي ضربتني يمزِّقها كلب.»

٤. نشيد للعذراء

وعلى الفور أخذ يُنشِد ما يلي: «إبنة النور، العذراء، التي تتألّق فيها عظمة الملوك وجلالتهم، تلمع بجمالٍ لا عيب فيه؛ ثيابها تشبه زهور الربيع؛ تفوح منها عطور عذبة؛ يجلس الملك إلى جانبها، مغذِّياً من رحيقه كلّ الذين يأتون إليه؛ يرتاح الحق على جبينه؛ قدماه، اللتان تتحرّكان بانتظام، تشيران إلى فرحه؛ يفتح فمه بلطفٍ؛ اثنان وثلاثون شخصاً ينشدون مدائحه؛ لسانه مثل وشي ينشقّ أمام الذين يدخلون؛ عنقه مثل الدرجات التي صنعها خالق العالم؛ يداه تُظهِران جوقة العصور السعيدة، وأصابعه تدلّ إلى أبواب المدينة؛ غرفته المنوَّرة تصعِّد رائحة البلسم والعطور، أريج المرّ والناردين العذب؛ الأرض مغطّاة آساً وزهوراً عَطِرة، والسرير مزدان بالقصب. أصدقاء العريس

يقفون حول العروس؛ عددهم سبعة، وهي التي اختارتهم؛ لديها أيضاً سبع صديقات يرقصن أمامها؛ لديها اثنا عشر خادماً متفانين لها، وعيونهم مسمّرة بالعريس، لتلقّي شعاعات النور؛ وسيتمتّعون معه، خلال الأبدية، بذلك الفرح السماوي، ويكونون جالسين إلى تلك الوليمة التي دُعِي إليها العظماء؛ سيكونون في مأدبة العرس تلك، التي دُعِي إليها الذين يشاركون في الحياة الأبدية؛ ستكون لهم ثياب ملكية وألبسة متلألئة؛ سيكونون في الفرح والحبور؛ سيسبِّحون في أناشيدهم أبا الكون، الذي يغمرهم نوره؛ مرأى هذا السيِّد نوّرهم؛ لقد تغذّوا من رحيقه الذي لا ينفد أبداً، وشربوا من تلك الخمرة التي لا تثير العطش، ولا الشهوة؛ سبّحوا وانشدوا، مع الروح الحيّ، أبي الحق وأُم الحكمة.»

٥. العازفة فهمت

وحين أنشد، كان كلّ الحاضرين ينظرون إليه بصمت؛ وكانوا يتأمّلون وجهه الذي تبدّل؛ لكنهم لم يكونوا يفهمون ما قاله، لأنه كان عبرانياً، وتكلّم بالعبرية. وحدها عازفة الناي فهمت كلّ شيء، لأنها كانت من الأُمة نفسها. وقد ابتعدت عن الرسول وعزفت أمام المدعوين الآخرين؛ لكنها كانت تدير في كلّ لحظة عينَيها نحوه؛ لأنها كانت تحبُّه مثل أخ؛ زدْ أنه كان يفوق كلّ الذين كانوا هناك جمالاً. وحين انتهت من العزف، جلست أمامه، وحدّقت فيه؛ أما هو، فلم يكن ينظر إلى أحد؛ وكان ينتظر الوقت للابتعاد، وعيناه مطرقتان نحو الأرض.

٦. أسد يقتل الساقي

والحال أن الساقي الذي صفعه نزل نحو النبع، ليستقي منه ماءً؛ فوجد هناك أسداً قتله، ومزّقه، وتركه في هذه الحال؛ وعلى الفور

تنازعت الكلاب الأعضاء المدمّاة، وإذ أمسك كلب أسود باليد اليمنى، حملها نحو المدعوين. وعند هذا المنظر لبث الجميع منذهلين، وعاينوا مَنْ كان ناقصاً من بينهم. وحين تبيّنوا أن تلك اليد كانت يد الساقي الذي ضرب الرسول، كسرت عازفة الناي آلتها، راميةً الحطام، وجلست عند قدمَي توما، وهي تقول: «هذا الرجل هو الله، أو مُرسَل من الله؛ لأنني سمعته يقول، بالعبرية، للساقي: "هذه اليد التي ضربتني، سوف أراها وقد مزّقتها الكلاب!" وأنتم أيضاً؛ رأيتموه، وما تنبّأ به حصل.» وصدّق بعض المدعوين ما كانت تقوله عازفة الناي، ولم يصدّقها الآخرون.

٧. صلاة للعرسين

لكن الملك وقد علم بذلك، جاء في طلب الرسول، وقال له: «إنهَضْ، وتعال معي صلِّ من أجل ابنتي؛ لأنها ولدي الوحيد، وأنا أُزوِّجها اليوم.» إلا أن الرسول لم يكن يريد اللحاق به، لأن الربّ لم يكن قد عرّفه بَعْدُ إلى مشيئته؛ فقاده الملك، على رغمه، نحو غرفة العرس، ليصلّي من أجل العروسَين.

وبدأ الرسول إذاك يصلّي بهذه العبارات: «ربّي وإلهي، أنت رفيق خدّامك، مرشد الذين يؤمنون بك وعضدهم، ملاذ المضطهَدين وراحتهم، أمل الفقراء وفداء المعوزين، طبيب الأنفس المريضة، منقذ كلّ مخلوق، أنت الذي تمنح الكون الحياة والأنفس القوة، تتنبّأ بالمستقبل، لتحقّقه بأيدينا؛ يا ربّ، يا مَنْ تكشف الأسرار المخبؤة، وتوضح الأفكار الأكثر سريةً؛ يا ربّ، يا مَنْ زرعت الشجرة الصالحة، التي ثمارها الأعمال الصالحة؛ يا ربّ، يا مَنْ أنت في كلّ شيء، يا مَنْ ينتقل في الكون كلّه، يا مَنْ يحيا في المخلوقات كلّها، وتكشف نفسك

في أفعالها؛ يا يسوع المسيح، يا ابن الرحمة، أيها المخلِّص الكامل، أيها المسيح، يا ابن الله الحيّ، أيها القوة التي لا تُقهَر، التي تُسقِط العدو، أيها الصوت الذي يكلِّم الأُمراء ويلاحق مفاسدهم؛ أيها الرسول، الذي بُعِثَ من السماء، ونزل حتى الجحيم، وفتح أبوابها، وسحب منها الذين كانوا مسجونين منذ زمن طويل في مثوى الظلمات ذاك، ودلّهم إلى درب السماء؛ أرجوك، أيها الربّ يسوع، أبتهل إليك من أجل هذين العريسَين الشابَّين؛ إمنحهما العون، المساعدة والحماية.»

٨. ظهور المسيح

ورجا الملك صديقات العروس الخروج من غرفة العرس. وإذ انسحب الجميع، وأُغلِقت الغرفة، رفع العريس ستر الباب، ليُدخِل عروسه إلى جواره. فرأى الربّ يسوع يتحدّث إليها، ورأى قسمات يهوذا توما الرسول، الذي كان قد خرج بعدما باركهما. «أَلَمْ تخرج منذ قليل؟ قال له. كيف إذاً أنت هنا؟» فأجابه الربّ: «لست توما، أنا أخوه.» وجلس إذاك على السرير، آمراً إياهما بالجلوس على مقعدَين، وكلّمهما بهذه العبارات: «تذكّرا، يا ولدَيّ، ما قاله لكما أخي، والبركة التي منحكما إياها؛ إعلما أنكما إذا انفككتما عن هذا الإتحاد الجنسي، تصبحان هيكلَين طاهرَين ومقدَّسَين؛ تنجوان من آلام الولادة؛ لا تحمّلان حياتكما تلك الاهتمامات التي تقود إلى الهلاك الأبدي. إنما إذا كان لديكما أولاد كثر، تصبحان بالنسبة إليهم مغتصبَين طمّاعَين، سالبَين اليتيم وناهبَين الأرملة، وتعرِّضان نفسيكما لعقابات قاسية. إن أولاداً كثيرين يشكّلون عقبة؛ يعذِّبهم حشدٌ من الشياطين المستترة أو المرئية: يصبحون مصروعين، مصدورين،

كُسَحاء، صماً، بكماً، مشلولين أو مجانين. وإذا كانت صحتهم جيدة، فهم عاطلون عن العمل، أو ينشغلون بأمور سيئة ومكروهة؛ هم مذنبون بالزِّنا، بالقتل، بالسرقة، بالفجور؛ وهم لكم كَدَرٌ دائم. إنما إذا أردتم تصديقي، والاحتفاظ لله بنفسيكما بلا دنس، يكون لكما أبناء حياة منزّهين من كلّ تلك النجاسات؛ تعيشان ناعمَي البال وراضيَين بحياة بلا ألم وبلا قلق، في انتظار تلك الخطوبة الإلهية والبلا عيب، حيث تُقادان إلى غرفة العرس تلك، مقام النور والخلود.»

٩. زواج آخر

وحين سمع العريسان الشابان هذه الكلمات، أطاعا الربّ، وأحجما عن كلّ لذّة جسدية، ولبثا في ذلك المكان لقضاء الليل هناك. وخرج الربّ وهو يقول لهما: «نعمتي تكون معكما.» وعند طلوع النهار، ذهب الملك نحو غرفة العرس، وغطّى مائدةً بأطعمة، وحملها إلى أمام العروس والعريس؛ لكنه وجدهما جالسَين الواحد قبالة الآخر: لم يكن وجه العروس مستوراً، وكان العريس يشعّ فرحاً. ودنت أُم العروس منها، وقالت لها: «لِمَ، يا ابنتي، أنت جالسة هكذا؟ لِمَ لا تحمرّين خجلاً؟ لِمَ يبدو عليك أنك اقترنت منذ زمن طويل بعريسك؟» وقال لها أبوها: «أَهو حبّك اللاهب لعريسك ما يمنعك من أن تستتري؟» فأجابت العروس الشابة: «نعم، يا أبي، إنني أُحِسُّ بحبٍّ لاهب؛ أرجو الربّ أن يحفظ لي الحبّ الذي شعرت به هذه الليلة، والعريس الذي عرفته اليوم. لن أعود أستر وجهي، لأن مرآة الخجل أُبعِدت عن عينَيّ؛ إنني لا أشعر بارتباك، ولا باضطراب، لأنني أحجمت عن أعمال تُخجِل؛ وإنْ كنت غير منذهلة، فلأن ليس لديّ مبرِّر لذلك؛ وإنْ كنت في الفرح والحبور، فلأن يوم فرحي لم يُعَكَّر. وإن استخففت بعريسي، وبهذا

الزواج الذي سأنساه، فلأنني عقدت زواجاً آخر؛ وإنْ لم أتَّحد بهذا العريس الأرضي، فلأنني وجدت عريساً أهلاً حقاً لهذا الإسم.»

وتكلّمت بَعْدُ بعض الوقت بهذه العبارات، وأضاف عريسها: «أحمدك، يا ربّ، أنت الذي بشَّر بك الغريب، وأتيت بيننا، لقد أنقذتني من هلاكي؛ وضعت مبدأ حياة في صدري؛ وشفيتني من ذلك المرض العضال، الأبدي؛ كشفت نفسك لي، وأظهرت لي وضعي الصحيح؛ إفتديتني من الموت، وقدتني إلى مصير أفضل؛ أعتقتني من الأمور الدنيوية؛ نزلت حتى ذاتي، حتى عدَمي، لأتَّحد بعظمتك؛ لم تُبعِدْ عني رحمتك، علّمتني أن أُفتِّش عن نفسي، أن أعرف نفسي، أن أرى ما كنت، وما أنا الآن، لأتمكّن من أن أصبح ثانيةً ما كنت في ما مضى. أنت الذي لم أره أبداً، مَثَلت أمام عينَيّ؛ لكنني اليوم رأيتك، ولا يمكنني نسيانك؛ قلبي يلتهب حبّاً لك، كما ينبغي ذلك؛ لا أجد سوى كلمات حقيرة، غير كافية، غير جديرة بمجدك؛ لكنك لا تُوجب أن أقول لك كل ما لا أُحسِن قوله؛ هذه الكلمات، حبّي لك ما أوحاها إليّ.»

١٠. غضب واهتداء

وإذ سمع الملك العريسَين يعبِّران هكذا، مزّق ثيابه، وقال للذين كانوا يحيطون به: «أُخرجوا سريعاً، وجوبوا المدينة؛ أَوقفوا ذلك الرجل وقودوه إلى هنا، ذلك الساحر، الذي قاده قَدَرٌ مشؤوم إلى داخل أسوارنا؛ أنا بنفسي مَنْ جاء به إلى منزلي، وسألته أن يصلّي من أجل ابنتي التعسة؛ مَنْ يوقفه ويأتي به إليّ يمكنه أن يطلب مني أي حظوة يريد، فأمنحه إياها.» وخرجوا كلّهم وجابوا المدينة، للبحث عن الرسول؛ لكنهم لم يستطيعوا العثور عليه، لأنه كان قد أبحر. وذهبوا إلى النُّزُل الذي كان قد حلّ فيه، فصادفوا هناك عازفة الناي

تبكي، وتتأسّى، لأن الرسول لم يصطحبها معه. وروَوا لها ما حدث للعروسَين؛ فاغتبطت لذلك وقالت، ناسيةً حزنها: «أنا أيضاً وجدت الراحة.» ثم نهضت، ومضت في طلب العروسَين ولبثت معهما، إلى أن اهتدى الملك نفسه. وهرع إخوة كثر إلى المدينة؛ لكن الشهرة سرعان ما أعلمتهم أن الرسول كان يبشِّر في الهند، فرحلوا على الفور وذهبوا ينضمّون إليه.

١١. قصر للملك

وحين وصل الرسول إلى مدن الهند، مع أَبّان التاجر، قصد هذا الأخير الملك غوندافورس، وأنبأه بأنه جاء بنجّار معه. فابتهج الملك بذلك، وأمر بأن يأتي ذلك الرجل إليه. وحين دخل، قال له الملك: «أي مهنة تجيد؟» فأجاب الرسول: «أنا نجّار ومهندس معمار.» وأضاف الملك: «أي أعمال تعرف تنفيذها بالخشب والحجر؟» فقال الرسول: «بالخشب، أصنع محاريث، أنياراً، ميازين، عجلات، مراكب، مجاذيف، سواري؛ بالحجر، معابد، أعمدة، مقاراً للملوك.» عندها قال الملك: «أَتريد أن تبني لي قصراً؟ - نعم، قال الرسول، لأنني أتيت إلى هنا لأزاول مهنتي.»

عندها قاده الملك إلى خارج المدينة، وفي الطريق، كان يتحادث وإياه في بناء مقرّ، وفي طريقة إقامة أساساته؛ وأخيراً وصلا إلى الموضع الذي يجب أن يُشيَّد فيه المبنى. «هنا، قال الملك، أريد أن أبني. - هذا المكان مُختارٌ جيداً، قال الرسول. (وبالفعل، كان هناك ماء وظلال.) - إبدأ إذاً البناء، قال الملك. - لا أستطيع، قال الرسول، البدء الآن. - متى تستطيع ذلك؟ - أبدأ في تشرين الثاني، وأنتهي في نيسان.» فقال له الملك، مندهشاً: «لكن في الصيف يُبنى عموماً؛ وأنت

تريد إنهاء قصري في الشتاء؟» وقال الرسول: «يجب أن يكون الأمر كذلك، وليس خلافاً لذلك. ـ حسناً، قال الملك، أُرسُمْ لي خريطة للعمل.» وعلى الفور تناول الرسول مقياساً ورسم خطوطاً على الأرض؛ وجعل الأبواب إلى جهة مشرق الشمس، والنوافذ إلى المغرب، معرَّضة للريح؛ ووضع المخبز إلى الجنوب، وإلى الشمال خزّان الماء. وقال له الملك وقد رأى ذلك: «أنت عامل ماهر، يستحق الدخول في خدمة ملك»، ورحل تاركاً له مبلغاً هائلاً. وحين كان ينبغي، كان يُرسِل إليه مالاً وكلّ المؤونة الضرورية له ولعماله. إلا أن الرسول كان يجوب المدن والأرياف، ويوزِّع كلّ ما كان معه؛ كان يتصدَّق على الفقراء، على التعساء، ويغيثهم، وهو يقول لهم: «ما للملك يُعاد إليه، إنما ينبغي في الوقت الراهن أن يُغاث الفقراء.»

غير أن الملك بعث بأحدهم إلى الرسول، ومعه رسالة مُصاغَة هكذا: «قُلْ لي أين أصبحت، وما ينبغي أن أبعث إليك.»

وأجابه الرسول: «المقرّ بُنِي، ولم يعد ينقصه سوى السقوف.»

وإذ علم الملك ذلك، بعث إليه ذهباً وفضةً سبائكَ، وكتب له: «طالما أن المقرّ بُنِي، غَطِّه.»

١٢. صفات الرسول

عندها قال الرسول للربّ: «أحمدك، يا ربّ، لموتك خلال بضع أيام، من أجل أن أحيا أبدياً فيك، لبيعك إياي من أجل افتداء عدد كبير من البشر بيدَيّ.» ولم يكن يكفّ عن التبشير وإغاثة التعساء وهو يقول: «الربّ أعطى كلّ هذه الخيرات؛ هو الذي يُطعِم البشر؛ إنه مُعيل الأيتام، مدبِّر الأرامل، راحة المضطهَدين كلّهم وعزاؤهم.»

وحين بلغ الملك المدينة، سأل أصدقاءه عن القصر الذي بناه توما. فأجاب هؤلاء بأنه لم يبنِ قصراً ولا صنع شيئاً مما أخبره به؛ لكنه كان يجوب المدن والأرياف، ويُعطي الفقراء كلّ ما معه، ويبشّر بوحدانية الله، ويشفي المرضى، ويطرد الشياطين، ويصنع أموراً أخرى كثيرة مُدهِشة. «نعتقد، أضافوا، بأنه ساحر. إلا أن الصّدقات التي يوزّعها، والعلاجات التي يقوم بها من دون أن يطالب بمال، بساطته، طيبته، ثقته تُثبِت أنه بارّ، مُرسَل من ذلك الله الذي يُبشّر به؛ لأنه يصوم، يصلّي في استمرار، لا يأكل سوى خبز مع ملح، لا يشرب سوى ماء، ليس لديه سوى رداء، أكان الطقس جيداً أم سيئاً، لا يأخذ شيئاً من أحد، بل يُعطي كلّ ما لديه.»

١٣. توما في السجن

وإذ سمع الملك هذه الكلمات، ضرب جبهته، وهزّ رأسه طويلاً. ثم استدعى التاجر الذي جاء بالرسول، والرسول نفسه، وقال لهذا الأخير: «هل بنيت قصري؟ ـ نعم، أجاب. ـ متى نمضي ونراه؟ ـ لا تستطيع أن تراه الآن، إنما حين تكون قد فارقت الحياة، تراه.» وكبّل الملك الإثنين بالسلاسل، غاضباً، واقتادهما إلى السجن، إلى أن يعرف ما مصير ماله؛ وبعد ذلك على الرسول أن يموت مع التاجر. وتوجّه الرسول فَرِحاً تماماً إلى السجن، وكان يقول للتاجر: «لا تخشَ شيئاً؛ آمِنْ فقط بالله الذي أُبشّر به، فتخلص من بؤس هذا العالم، وتنل الحياة الأبدية.»

١٤. موت أخي الملك

إلا أن الملك كان يتساءل كيف يُهلِكه، وقرّر إلقاءهما في النار، بعد سلخهما. لكن في تلك الليلة بالذات، مرض جاد، أخوه، وعرّضه

الحزن الذي شعر به من الخدعة التي كان الملك ضحية لها لخطر كبير جداً. فنادى الملك وقال له: «يا أخي، أعهد إليك بمنزلي وأولادي؛ لأن الإهانة التي وُجِّهت إليك أثقلتني حزناً، وسوف أموت؛ إنما إذا لم يبلغ انتقامك ذلك الساحر، فلن أرتاح في العالم الآخر.» فقال الملك لأخيه: «خلال الليل، فكّرت بالطريقة التي أُهلِكه بها، وقرّرت أن أسلخه، ثم أن أحرقه، مع التاجر الذي جاء به.»

وفيما كانا يتحادثان، خرجت نفس جاد، أخي الملك، من جسده. فحزن الملك جداً، لأنه كان يحبُّه كثيراً، وأمر بأن يُدفَن في ثيابٍ بديعة. وفيما كانت تُحَضَّر الجنازة، أخذ ملائكة نفس جاد، أخي الملك، وحملوها إلى السماء، وأروه مساكنها، وسألوه في أي مكان يريد أن يقيم. وحين أصبحوا قرب المنزل الذي بناه توما للملك، لمحها جاد وقال للملائكة: «أرجوكم، أيها السادة، إسمحوا لي بأن أُقيم في أحد هذه المنازل الجوفية.» لكنهم قالوا له: «لا تستطيع أن تُقيم في هذا المنزل.» «لِمَ؟» أجاب. «ذاك أن هذا القصر، ردُّوا، هو القصر الذي بناه المسيحي لأخيك.» فقال لهم: «إذاً أستحلفكم، أيها السادة، إسمحوا لي بالعودة إلى جوار أخي، لأشتري منه هذا القصر؛ لأن أخي لا يعرف جماله، وسيبيعني إياه.»

١٥. قصر في السماء

عندها أطلق الملائكة نفس جاد؛ وفيما كانوا يُلبِسونه ثيابه الجنائزية، دخلت الجسد وقالت للذين كانوا هناك: «نادوا أخي، لأسأله حظوةً.» فأسرعوا ينبئون الملك بأن أخاه عاد إلى الحياة، فتوجّه الملك على عجل إلى جوار أخيه، يرافقه حشدٌ غفير، وكان واقفاً إلى جانب سريره، وكأنه مصاب بذهول، ولا يستطيع التحدُّث إليه.

عندها قال له أخوه: «أعتقد وأنا مقتنع، يا أخي، بأنهم لو سألوك نصف مملكتك لإحيائي، لكنت أعطيتها من أجلي؛ أتوسّل إليك إذاً أن تمنحني الحظوة التي أطلبها منك.» فقال له الملك: «ما هي هذه الحظوة؟ - أَقسِمْ، قال له أخوه، بأنك سوف تمنحني إياها. - أُقسِمِ بأن أُعطيك، من كلّ ما أملك، ما تطلبه مني. - بِعْني ذلك القصر الذي تملكه في السماء. - كيف، لي قصر في السماء؟ - إنه، أجاب جاد، الذي بناه لك ذلك المسيحي الذي هو الآن في السجن والذي جاء به إليك تاجر اشتراه من المدعو يسوع.»

١٦. توبة الملك وأخيه

وإذ رأى الملك مرتبكاً، أضاف جاد: «أتكلّم عن ذلك العبد العبراني الذي كنتَ تريد معاقبته مذنباً بخدعة حيالك؛ وبسببه أيضاً متُّ في الحزن، وعدت الآن إلى الحياة.» عندها فهم الملك، وقد أخذ يُفكّر، أن المقصود أمورٌ تهمُّه، خيراتٌ آتية وأبدية، فقال: «ذاك القصر، لا أستطيع أن أبيعك إياه؛ لأن رغبتي هي في أن أدخله وأُقيم فيه، وأن يحكم مَنْ يقيمون فيه بأنني أهلٌ له. إنما إذا أردتَ حقاً أن تشتري شبيهاً به، فالرجل لا يزال حياً، وسوف يبني لك واحداً أجمل.»

وعلى الفور أرسل يُخرِج الرسول من السجن، كما التاجر الذي حُبِسَ معه، وقال له: «أرجوك، كما يرجو رجلٌ خادمَ الله: توسَّلْ من أجلي، وتضرَّعْ إلى الذي أنت خادمه، ليغفرَ لي وينسى الإذية التي ألحقتها بك وتلك التي كنت أنوي إلحاقها بك؛ لأستحقّ الإقامة في ذلك المسكن الذي لم أعمل له في شيء، والذي شيّدته لي وحدك بعملك، بعون الله ونعمته، وأن أُصبح، أنا أيضاً، خادم ذلك الله الذي تُبشِّر به وعبده.» وجاثياً عند ركبتَي الرسول، قال له أخو الملك: «أرجوك

وأتوسّل إليك أمام وجه إلهك، نَلْ أن أُصبِح أهلاً لخدمته والعمل من أجله، وأن أتمتَّع مع مختاريه بالبهاء الذي أراني إياه الملائكة.»

١٧. صلاة الفرح

وقال الرسول، وقد طار فرحاً: «أُقِرُّ لك، يا يسوع، بأنك جعلت الحق يسطع في نفس هذَين الرجلَين؛ لأنك أنت إله الحق الوحيد، وليس آخراً؛ أنت الذي يعلم كلّ شيء، كلّ ما يجهله العالم؛ يا ربّ، أنت الذي تظهر للبشر، في كلّ شيء ليناً وداعةً وتسامحاً؛ لأن البشر، هم أُلعوبةِ الضلال الذي فيهم، احتقروك، وأنت، لم تحتقر البشر. والآن، بالنظر إلى رجائي وتوسُّلي، استقبل الملك وأخاه، وحِّدهما بقطيعك بعد أن تطهِّرهما بعمادك وتدهنهما بزيتك، لتنقذهما من الضلال الذي يحيط بهما؛ إحمهما أيضاً من الذئاب، ناقلاً إياهما إلى مراعيك؛ إروِهما من نبعك الخالد، من ذلك النبع الذي لا يتعكّر ولا يجفّ أبداً. إسمَعْ رجاءهما وتوسُّلهما؛ إنهما يريدان أن يُصبحا خادمَيك وأن يعملا في خدمتك، ولذلك، يكونان سعيدَين بأن يضطهدهما أعداؤك، وأن يستحقا، حبّاً لك، كرههم، إهاناتهم والموت بالذات، وبكلمة، أن يعانيا كلّ المحن التي احتملتها من أجلنا، لتشترينا، أنت، سيِّدنا والراعي الصالح حقاً. إمنحهما أن يضعا فيك وحدك ثقتهما وأمل خلاصهما، الذي لا يمكنهما أن يعودا به إلا إليك؛ أَعطِهما أن يترسّخا في أسرارك وينالا كنوز نِعَمك الكاملة، ومواهبك، بحيث يُزهِران في خدمتك ويحملان ثماراً ناضجةً في حضن أبيك.»

١٨. الختم الإلهي

وبعدما وضعا نفسَيهما كلّياً في تصرُّف الرسول، تبعه الملك غوندافورس وأخوه جاد، غير مفارقَينه أبداً، موفِّرَين بنفسهما

احتياجات التعساء، واهبَين دائماً ومساعدَين دائماً. ورجياه أن يمنحهما أيضاً ختم العماد المؤيِّد، الذي بقي لهما أن ينالاه، وهما يقولان: «الآن ونفسانا حرّتان ومملوءتان غيرة نحو الله، أَعطِنا الختم؛ لأننا سمعناك تقول إن الله الذي تبشِّر به يعرف، بالعلامة التي وَسَمها بها، النعاج التي تعود إليه.» وأجاب الرسول: «بفرح أُقدِّمه لكما؛ نعم، تلقّيا الختم الإلهي، وشاركا بعد ذلك معي في الإفخارستيا، في خبز بركة الربّ هذا، الذي يُكمِل تقديسكما. لأن هذا الخبز، هو الربّ نفسه، هو ربّ الجميع وإلههم، يسوع المسيح، الذي أُبشِّر به، أبو الحق الوحيد، الذي علّمتكما أن تؤمنا به.» ثم أمرهما بأن يجلبا زيتاً، ليتلقّيا بالزيت الختم الإلهي. فجلبا الزيت إذاً، وأضاءا مشاعل عدة، لأن الوقت كان ليلاً.

وإذ نهض الرسول باركهما بإشارة الصليب. عندها بان لهما الربّ بالصوت، قائلاً: «السلام لكما، يا أخوَي.» وسمعا صوته، لكنهما لم يريا وجهه؛ لأنهما لم يكونا قد تلقّيا العلامة الأخيرة والأسمى. ودهنهما الرسول، وقد تناول الزيت وسكبه فوق رأسَيهما، ومسحهما وبدأ يقول: «تعال، يا اسم المسيح المقدَّس، الذي فوق كلّ الأسماء! تعال، يا قوة الخالق، أيها الرحمة اللامتناهية! تعال، أيها النعمة الأسمى! تعال، أيها الأُم الرحوم! تعال، أنت الذي توزِّع القوة الحازمة! تعال، أنت الذي يكشف الأسرار الخفيّة! تعال، يا أُم المساكن السبعة، أنت الذي ستجد الراحة في الثامن! تعال، يا بكر أعضاء روحنا الخمسة، وهي الذكاء، الإدراك، المشورة، التأمّل، التفكير؛ إتصِلْ بهذين الخادمَين الجديدَين. تعال، أيها الروح القدس؛ طهِّرْ كِلْيتَيهما وقلبهما، وادمُغْهما بالعلامة الأسمى، باسم الآب والإبن والروح القدس.»

وحين دُمِغا بالعلامة، ظهر لهما شاب، حاملاً مصباحاً مضاءً، وقد جعل النور الذي كان يعكسه ذلك المصباح مشاعلَهما تخبو. ثم اختفت الرؤيا بالنسبة إليهما. لكن الرسول قال للربّ: «يا ربّ، إن نورك هائل في عيوننا، ولا نستطيع احتمال سطوعه، لأنه يُربِك قوة نظرنا.» وإذ لمع وميض، كسر الرسول خبزاً، وأجاز لهما تقاسم إفخارستيا الربّ. وامتلأا فرحاً، وكثيرون آخرون كانوا يؤمنون انضمّوا إليهما وجاؤوا يلوذون بالمخلِّص.

١٩. "لا تهتمّوا بالغد"

أما الرسول، فلم يكن يكفّ عن التبشير بالله والقول لهم: «أيها الرجال والنساء، الشبّان والصبايا، المراهقون والشيوخ، عبيداً أو أحراراً، حاذِروا الفِسْقَ، البخل والشراهة؛ لأن هذه الخطايا الثلاث هي مصدر كلّ إثم. وبالفعل، يشلُّ الفِسْقُ العقل؛ ويحجب رؤية النفس ويمنعها من تدبُّر الجسد بإضعاف الإنسان كلّه وجَعْل جسده في حال مرض. ويسلِّم البخل النفس للذعر والخجل، باستخدامها كلّها لمنافع الجسد وينهب مال الغير، مع الشعور الخفيّ بأنها لا تردّ إلى الغير ما يعود إليه. وأخيراً، تعرِّض الشراهة النفس لألف همٍّ وألف انشغال بال، من فرط قلقها دوماً على حاجتها إلى ما يُطربها وطامعةً بما تراه بعيداً عن منالها. إذا تحرَّرتم من هذه الشهوات، تتحرّرون من الهموم، والأحزان والمخاوف، وعليكم ينطبق كلام المخلِّص: **لا تهتمّوا بالغد، لأن الغد يُعنى بما يخصّه**.

تذكّروا أيضاً الكلمات السابقة: "اعتبروا بالغربان؛ أُنظروا إلى طيور السماء؛ إنها لا تزرع ولا تحصد، ولا تكدِّس في المخازن؛ ومع ذلك يوفِّر الله حاجاتها. أوَلا يوفِّر بالأحرى حاجاتكم، يا قليلي

الإيمان؟" ارتضوا إذاً معونته، ضعوا آمالكم فيه وآمنوا باسمه؛ لأنه ديّان الأحياء والأموات، وهو نفسه يَهب كلّ واحد بحسب أعماله، عندما يظهر ببهائه الآتي في الساعة التي ما من أحد يُقبَل فيها بأن يقول اعتذاراً إنه لم يسمع كلمته، وعليه أن يمثل في حضرته ليُدان. لأن بُشَراءه يُبلِغون عنه في مناطق العالم الأربع. توبوا إذاً وآمنوا بالإنجيل؛ تلقّوا نير العذوبة والحِمْلَ الخفيف، لتحيَوا ولا تموتوا. هوذا ما ينبغي الحصول عليه؛ هوذا ما ينبغي تحاشيه؛ أُخرجوا من الظلمات، ليستقبلكم النور؛ تعالَوا إلى مَنْ هو صالح حقاً، ليمنحكم النعمة، وتودَع علامته في نفوسكم.»

٢٠. أمر الربّ

وحين توقّف عن الكلام، قال له عددٌ من الحاضرين: «الوقت مناسب ليطالب الدائن بحقّه.» فأجاب: «مَنْ له الحق حاضر لاسترداد دينه، وحتى زيادةً؛ إنما علينا أن ندفع له على الأقل ما نحن مدينون له به.» وإذ باركهم، أخذ خبزاً، وزيتاً، وخضاراً وملحاً، وأعطاهم ليأكلوا؛ وبالنسبة إليه، لزم الصيام، لأن يوم الربّ كان قريباً. لكن في الليل، فيما كان نائماً، ظهر الربّ واقفاً قرب سريره، قائلاً: «يا توما، إنهَضْ عند مطلع الفجر وحين تكون قد باركت الجميع، بعد الصلاة والسجود، إذهَبْ حتى الميل الثاني على الطريق التي تتجه إلى المشرق، وهناك، سوف أُشعُ مجدي في شخصك، لأن رحيلك سيكون بسبب لجوْ كثيرين إليّ، وأنت، تُظهِر الطبيعة وتُربِك قدرة العدو.» وقال توما وقد نهض، للذين كانوا معه من إخوته: «يا أولادي وإخوتي، إن الربّ يريد أن يُتِمّ اليوم حدثاً ما من خلالي. لنجعل بصلواتنا ألا يمنعنا أيّ عائق من خدمته وأن يَتِمّ الحدث من خلالنا، اليوم كما دائماً، وفقاً لرغباته ومشيئته.»

وإذ قال هذه الكلمات، لمسهم بيديه وباركهم. ووزّع عليهم خبز الإفخارستيّا، وقد كسره، وهو يقول: «سوف تتحوّل هذه الإفخارستيّا من أجلكم رحمةً، غفراناً، شفقةً، وليس إدانةً.» فقالوا: «آمين.»

٢١. جثة يافع

وخرج الرسول ليذهب إلى الموضع الذي عيّنه له الربّ؛ وعندما وصل قرب الميل الثاني، رأى وقد حاد قليلاً عن طريقه، جثةَ يافعٍ جميلٍ كانت مطروحةً أرضاً، فقال: «يا ربّ، أليس من أجل ذلك دعوتني إلى المجيء إلى هنا، لأرى هذه المصيبة؟ لتكن مشيئتك كما ترغب في ذلك.» وبدأ يصلّي، قائلاً: «يا ربّ، يا ديّان الأحياء والأموات الذين يرقدون أرضاً، يا سيِّد البشر وأباهم (نعم، أنت أبا ليس فقط النفوس التي في الأجساد، بل كذلك تلك التي خرجت منها، لأنك سيِّد النفوس التي في الدنس وديّانها)؛ يا ربّ، تعال في هذه الساعة التي أبتهل فيها إليك، وأظهِرْ مجدك لصالح هذا الشاب الراقد هنا.»

وقال للذين كانوا يتبعونه، وقد استدار: «ذلك ليس وليد الصدفة؛ العدو هو سبب هذا العنف ومسبِّبه. وسوف ترون أنه اتخذ شكله المعتاد، وانّه بان، ليس عبر حيوان آخر، بل عبر الذي يطيعه في شكلٍ أعمى.»

٢٢. لسعة قاتلة

وفيما كان الرسول يتكلّم، إذا بحيّة هائلة خرجت من جحرها، مادّةً رأسها، ومحرِّكةً ذنبها على الأرض؛ وقالت للرسول، مستخدمةً صوتاً جَهْوَرياً: «سوف أروي في حضورك لأي سبب قتلت هذا الشاب، طالما أتيتَ إلى هنا لتُخزي أفعالي.» فقال الرسول: «تكلّمي إذاً.» واستأنفت

الحيّة: «في هذه البلاد امرأة جميلة جداً؛ وذات يوم، فيما كانت تمرّ، رأيتها واشتهيتها. وأخذت إذاً أتبعها وأترصّدها. والحال أنني وجدت هذا الشاب يقبّلها: ثم جامعها، واستسلما معاً لأفعال مُخْزِيَةٍ أخرى. كان يسهل عليّ أن أشهّدك على حقاراتهما؛ لأنني أعلم أنك أخو يسوع المسيح وأنك تعمل بلا انقطاع لتعطيل تأثيرنا؛ لكنني لم أُرِدْ أن أفعل ذلك، ولم أقتل الشاب في الساعة نفسها. إلا أنني راقبته، ومساءً، فيما كان يمرُّ قربي، لسعته وقتلته، هو الذي تجرّأ على القيام بعملٍ كهذا يوم الربّ.» وسألها الرسول: «قولي لي، من أي دمٍ، من أي نسلٍ تصدرين؟»

٢٣. إبنة الشيطان

وأجابت الحيّة: «أنا ابنة النّسل الزاحف، ومؤذية مثله؛ أنا ابنة الذي جرح الإخوة الأربعة الذين كانوا واقفين ولسعهم؛ أنا ابنة الذي يجلس على عرش الضلال ويقتطع حصته من ربح المرابين؛ أنا ابنة الكافر العظيم الذي يطوّق الأرض كما بزنّار؛ أنا أُخت الذي هو خارج المحيط والذي يُمسِك ذنبه بفمه؛ أنا التي، وقد دخلتِ الجنّة عبر السِّياج، قالت لحواء كلّ الذي أمرني أبي بأن أقوله لها؛ أنا التي أضرمت النار واللهيب في قلب قايين، ليقتل أخاه، ومن خلالي نبتت الأشواك والزؤان على الأرض؛ أنا التي أسقطت الملائكة على الأرض، وربطتهم بالنساء بقيود الشهوة، ليولَد منهم أولاد أرضيون ويمكن لمشيئتي أن تتمّ فيهم؛ أنا التي قسّت قلب فرعون، ليُميت أبناء إسرائيل ويُخضِعهم تحت نيرٍ حديديّ؛ أنا التي أضاعت الجمع في الصحراء، عندما صنع العجل الذهبيّ؛ أنا التي أثارت هيرودس وألهبت قيافا بحمّى الكذب في حضرة بيلاطس، لأن ذلك كان يناسبني هكذا؛ أنا

التي ألهبت، ثم اشترت يهوذا ليُسلِم المسيح؛ أنا التي تسكن في جهنّم التـار وتملكها، وابن الله هاجمني أولاً، واختار خاصته من بين خاصتي؛ أنا أُخت الذي سيأتي من الشرق، والذي أُعطِي له سلطان أن يفعل ما يشاء على الأرض.»

٢٤. ماتت بسمّها

وحين تكلّمت الحيّة في حضور الجمع الذي كان يستمع إليها، صاح الرسول، رافعاً الصوت: «إخرسي، أيتها الوقحة، وليكسك الارتباك، لأنك سوف تموتين إلى الأبد؛ إن عملك التخريبي انتهى. إخشي أن تُفصحي عن الأمور التي صنعتها عبر خدّامك؛ باسم يسوع، باسم الذي لا يزال يقاتل ضدك لإنقاذ البشر، آمرك، امتصّي السمّ الذي قتل هذا الرجل، استعيديه بعد سحبه من دمه.»

وأجابت الحيّة: «لا، لم يمرّ بَعْدُ زمن عملنا، كما قلت ذلك. لِمَ تُرغِمني على أن أستعيد السمّ الذي سمّمت به هذا الرجل وعلى أن أموت قبل الأوان؟ حين يكون أبي قد امتصّ الشرّ الذي نشره في الخليقة واستعاده، تكون إذاك نهايته قد حلّت.» فقال لها الرسول: «أظهري إذاً منذ الآن طبيعة أبيك.»

وإذ دنت الحيّة وضعت شدقها على جرح الشاب، وأبانت سمّ الجثة. وفي وقتٍ قليلٍ بدأ جلد الشاب، الذي كان بلون الأُرجوان، يبيضُّ والحيّة تنتفخ. وحين ابتلعت الحيّة في جوفها السمّ كلّه، وقف الشاب، وقد وثب، ثم ركض يرتمي عند قدمَي الرسول. أما الحيّة، فتورّمت إلى حد الانفجار وماتت؛ وسال سمُّها ومرارتها؛ وفي الموضع الذي سال فيه السمّ، قامت فتحة عميقة، وابتُلِعت الحيّة فيها. عندها قال الرسول للملك وأخيه: «خُذا عمالاً، واردما الهوة التي ابتُلعت

الحيّة فيها، أرسيا أُسساً، وعلى هذه الأُسس، إبنيا منزلاً يقوم مقام مسكنٍ للغرباء.»

٢٥. إعتراف الخاطىء

وكان الشاب يقول للرسول وهو يذرف دموعاً غزيرةً: «لقد خطئت نحو الله الذي تُبشِّر به ونحوك، إنما استمعْ إلى رجائي؛ لأنك رجل له مظهران، ونلقاك حيث تريد أن تُلقى، ولا يوقفك أحد، كما أرى ذلك جيداً. لقد كنت قربك، ولمحته، ذلك الرجل الذي كان يكلِّمك: "من خلالك، كان يقول، لديّ معجزات كثيرة أُشيعُها، أعمال عظيمة كثيرة أُتِمُّها، تتلقّى مكافأةً عليها؛ سوف تُقيم بشراً كثيرين من بين الأموات، ويلبثون في سلامٍ ونورٍ أبديّين، مثل أبناء لله. هكذا، أضاف وهو يتحدّث عني، أقِمْ هذا الشاب الذي لسعه العدو، وكن عضده في كلّ مناسبة." هوذا سبب مجيئك إلى هنا لحسن الحظ، هوذا سبب عودتك سعيداً إلى الذي لا يتخلّى عنك أبداً. بالنسبة إليّ، ما عاد لديّ خوف ولا ندم؛ لأنه هداني وقد أخرجني من جزع الليل، ووجدت الراحة ثانيةً، ونجوت من نير الذي أثارني لفعل الشر. لقد خطئت في حق الذي علّمني الخير. الآن انصرفت عن ابن الظلمات، الذي يُرغِمني على أن أُخطىء بحسب أعماله، لكنني التقيت رجل النور الذي هو أخي. انصرفت عن الذي يُضعِف عبيده ويعميهم، لئلا يروا ما يفعلون، وليكتسوا عاراً من دون علمهم، ويسيروا بأفعالهم إلى الهدف الذي حدّده بنفسه؛ لكنني وجدت الذي ليست أعماله سوى نورٍ، الذي ليست أفعاله سوى حق، ولا يُندَم أبداً على اللحاق به. ابتعدت عن الذي لا يترك وراءه سوى الكذب، الذي يتقدّم البشر ويُرشِدهم كطيفٍ في الظلمات، فيما يسير وراءهم العار منتشراً بوقاحة في الكسل؛ لكنني

وجدت الذي يُلمع في عينَيّ بهاءاتٍ لامتلكها، إبن الحق، أخا الوئام، الذي ينوِّر خليقته مبدِّداً الظلمة، الذي يشفي الجروح ويُفني أعداء خاصته. أتوسّل إليك، يا رجل الربّ، إجعَلْ أن أرى، أن أتأمّل مجدّداً الذي لا أستطيع التعبير عن آياته، لأنه ليس فِعْلَ هذه الآلة الجسدية تماماً.»

٢٦. تحذيرات توما

وأجابه الرسول: «بلى، كما قلتَ، لقد فقدتَ الإحساس بالآثام التي كنت اداتها، وإذا عرفت الذي أتمّها فيك، تصبح التلميذ الوديع للذي يُلهِب حبُّه قلبك وتريد اليوم تأمُّله، وسوف تراه، وتكون معه إلى الأبد، وترتاح في راحته، وتصنع جزءاً من حبوره. إنما إذا لم يكن عندك بالنسبة إليه سوى غيرة جبانة، إذا عاودت السقوط في أخطائك الماضية، إذا نسيت ذلك الوجه النُّضِر، ذلك الوجه الطاهر، الذي ينكشف الآن لعينَيك، إذا سهوت عن الألق المُشِعّ للذي هو في هذه اللحظة موضع رغباتك، لن تُحرَم فقط هذه الحياة، بل أيضاً الحياة الآتية، وتعود إلى الذي كنت تقول إنك فقدته، ولن تعاود رؤية الذي كنت تقول إنك وجدته.»

٢٧. ونصائحه

وإذ تكلّم هكذا، كان الرسول يتّجه نحو المدينة، مُمسِكاً بيد الشاب، ويقول له: «ما رأيت، يا ولدي، ليس سوى جزء ضئيل من آيات الله التي لا تُحصى. فهو لا يبشّرنا بتلك الأشياء التي تسترعي انتباهنا؛ إنه يبشّرنا بأشياء أعظم. وطالما نحن في قيود الجسد، لا نستطيع أن نقول ونُري الخيرات التي يستبقيها لنفوسنا. إذا قلنا إنه يوزِّع علينا

النور، فذلك ظاهر، ونتمتّع به؛ وإنه يمنحنا الغنى، فذلك أيضاً حقيقي وملموس في هذا العالم، ونستطيع التحدُّث عنه: يُقال، بالفعل، إن غنياً يدخل بصعوبة ملكوت السماوات. هل المقصود ثياب رائعة، يلبسها محبّو اللذّات في هذه الحياة؟ يُقال كذلك إن الذين يرتدون ملابس متخنِّثة هم في قصر الملوك. ولائم بديعة؟ لقد أُمِرنا بالامتناع عنها، خوفاً من أن تُثقِل قلوبنا الشراهة وإدمان الخمر، وهموم هذه الحياة وفقاً لهذا الكلام من الإنجيل: **لا تهتموا لنفسكم بما تاكلون وبما تشربون؛ ولا لجسدكم بما تلبسون: أَليست النفس أولى من الطعام، والجسد أَولى من الثياب؟** وأخيراً، هل المقصود هذه الراحة العابرة، التي نتمتّع بها في هذه الدنيا؟ لقد أُوضِحت أيضاً وأُبدِي الرأي فيها. لكننا نريد التحدُّث عن العالم العلوي، عن الله وملائكته، عن الغذاء الأبدي، عن الثياب التي تدوم ولا تبلى، عن كلّ تلك الآيات التي لا تراها العين، ولا تسمعها الأُذن، ولا تُحسِن إدراكها نفس الخطأة، والتي يُعِدُّها الله للذين يُحِبُّهم. آمِنْ إذاً به، أنت أيضاً، يا ولدي، لتحيا؛ ضَعْ ثقتك فيه، ولن تموت. إنه لا يتأثّر بالهدايا؛ فلِمَ تقدِّم له منها؟ إنه لا يطلب أُضحيات؛ فلِمَ تضحّي له؟ بل حوِّلْ أنظارك نحوه، فلا تضلّ عيناك؛ لأن عظمته وجماله يولِّدان فيك الرغبة في حبّه، ولن تقبل بَعْدُ بالتحوُّل عنه.»

٢٨. رؤية الله

وفيما كان الرسول يكلِّم ذلك الشاب، كان يقترب جمع غفير. ولدى استدارته، رآهم يصعدون ليتأمّلوه ويتوجّهون نحو الأمكنة العالية. عندها قال لهم: « أيّها الرجال، الذين أتيتم إلى محفل المسيح، وتريدون أن تؤمنوا بيسوع، تعلّموا بما يحدث هنا، وفكِّروا. إلا إذا

اتخذتم مكاناً على المرتفعات، لا تستطيعون أن تروني، أنا، المخلوق الصغير، أنا الشبيه بكم. فإذا كنتم إذاً، لا تستطيعون رؤية شبهكم، إلا إذا ارتفعتم قليلاً فوق الأرض، فذاك، الذي يقيم في المناطق العلوية، وهو الآن في المناطق الجوفية، كيف تستطيعون رؤيته، إنْ لم ترتفعوا أولاً فوق حياتكم الماضية، الأعمال التي تُضِرُّ بكم، الرغبات التي تُضِلُّكم، الغنى الذي ينبغي تركه في هذه الدنيا، هذا المسكن الذي ينهار منذ هذه الحياة، هذه الثياب الأسمال، هذا الجمال الذي يشيخ ويزول؟ ماذا أقول؟ فوق هذا الجسد بأسره، الذي في سبيله كلّ هذه الخيرات الباطلة تُكدَّس، هذا الجسد الذي، وهو يشيخ، يصبح تراباً، عائداً هكذا إلى طبيعته الحقيقية؟ لأن كلّ هذه الخيرات الباطلة لا ترفع سوى أجسادكم، وليس عقولكم. آه! التفتوا بالأحرى صوب إنسان قلبنا، صوب يسوع المسيح، الذي نبشِّركم به، ليكون رجاؤكم فيه، وتحيَون فيه خلال دهر الداهرين، ليكون لكم رفيق درب في هذا العالم، ليحفظكم من الانحرافات، ويصبح بالنسبة إليكم مرفأً في وجه اضطرابات البحر. سيكون لكم نبعاً متفجِّراً في هذه المنطقة الجافة، واحة خصبة في بلاد القحط هذا، ملاذاً لنفوسكم، طبيباً لأجسادكم.»

وكان الجمع المحتشد يبكي، وهو يستمع إلى هذه الكلمات، ويقول للرسول: «يا رجل الله، ذاك الإله الذي تبشِّر به، لا نجرؤ على القول إننا له، لأن الأعمال التي قمنا بها تبتعد للغاية عن طبيعته، لتكون مَرْضِيَّة لديه؛ إنما، إذا ترفّق بنا، واشفق علينا، وإذا كفّر بمغفرته عن أخطائنا الماضية، إذا أعفانا من الخطايا التي ارتكبناها في ضلالنا، وإذا ارتضى الكفّ عن إلصاقها بنا، وإذا نسي أغلاطنا الأولى، نصبح خدّامه، وننفِّذ مشيئته.» فأجابهم الرسول: «إنه لا يؤاخذكم على

الأخطاء التي ارتكبتموها في ضلالكم؛ إنه يتغاضى عن الزلات التي وقعتم فيها عن جهل.»

٢٩. إمرأة الغواية

ودخل الرسول المدينة يتبعه الجمع كلّه؛ وكان ينوي الذهاب إلى عند أهل الشاب الذي أقامه من الموت، فقد رجاه هؤلاء دخول منزلهم. وفجأة أطلقت امرأة فائقة الجمال صيحةً عظيمةً وهي تقول: «يا رسول الإله الجديد، أنت الذي جئت إلى الهند، خادم ذلك الإله القدُّوس والصالح وحده، لأن بلسانك بُشِّر به مخلِّص النفوس التي تأتي إليه؛ على يدك يشفي أجساد الذين أصابهم العدو؛ وأنت السبب الظاهر لكلّ الاهتداءات التي تحصل إليه، مُرْ بأن أُقاد إلى حضرتك لأروي لك كلّ ما حدث لي، وليأتني الرجاء منك، وليشعر الذين يرافقونك أيضاً بأملهم يتوطّد بهذا الإله الذي تبشِّر به. فأنا أتألّم بقسوة على يد العدو، منذ خمسة أعوام. قبل هذا الوقت، كنت امرأة تعيش في الراحة، والسلام يحيط بي من كلّ الجهات، ولم أكن أحمل أي همّ، فلم أكن منشغلةً بأيٍّ كان في الدنيا.

«إنما حدث أنني رأيت آتياً إليّ يوماً، وأنا خارجة من الاستحمام، ضرباً من الرجال ملؤه الاضطراب والهيجان. كانت نبرة صوته تبدو لي مخنوقة وضعيفة؛ وإذ وقف قبالتي، قال لي: «أنا وأنت سوف نمتزج في حبٍّ واحد، وسنتّحد الواحد بالآخر، كما يفعل ذلك رجلٌ وامرأة.» وأنا أجبته: «إنني لم أتّحد بخطيبي الذي توسّلت إليه ألا يتزوّجني؛ حين تريد الاتّحاد بي بنوعٍ من الزِّنا، كيف استسلم لك؟» وابتعدت عنه، وقد قلت ذلك. وقلت لعبدتي الفتيّة: «أرأيت هذا الشاب ووقاحته؟ كيف أمكنه أن يكلِّمني بهذه الحرية من دون أن يحمرّ

خجلاً؟» فأجابتني: «لم أرَ سوى شيخ كان يكلِّمك.» والحال إنني فيما كنت في منزلي بعد العشاء، شعرتُ بشكٍّ يولد في قلبي، وأنا أفكِّر بأنه ظهر لي في هيئة مزدوجة. ونمت مع هذه الفكرة. وهو، وقد جاء تلك الليلة، اتَّحد بي بعلاقة شائنة. وحين طلع النهار، رأيته وهربت بعيداً عنه؛ لكنه كان يعود ويغتصبني، مستفيداً من الليل المناسب لأعماله. واليوم، كما تراني، مضت خمسة أعوام وأنا أتعذَّب على يده، ولم يفارقني. والحال إنني أعلم علم اليقين أن الشياطين، الأرواح والملعونين يطيعونك، ويرتجفون أمام ابتهالاتك. صلِّ إذاً من أجلي، واطرُد مني الشيطان الذي يعذِّبني، لأستعيد حريتي، وأستردَّ طبيعتي الأولى، وأتمتَّع بالنعمة الممنوحة لإخوتي.»

٣٠. طرد الشرير

عندها قال الرسول: «أيها الضلال الذي لا يقاوَم! يا وقاحة الشيطان! أيها الكائن الشرير، الذي لا يتعب أبداً؛ أيها الكائن الممسوخ، الذي يفتن الجمال! أيها الكائن ذو الألف شكل! إنه يظهر في الحال التي يرغب؛ لكن طبيعته لا يمكنها أن تتغيَّر. يا له من خداع! يا له من اضطرام لا يُروى! أيتها الشجرة المرّة، التي تحمل ثماراً مرّة! أيها الشيطان، الذي يصارع ليسلب خير الغير! أيها الكذب، الذي يلجأ إلى الوقاحة! أيها الكائن الذي يزحف شرُّه مثل الحيّة، والذي تشبهها بطبيعتك.» وما كاد الرسول يتوقَّف عن الكلام حتى ظهرت الروح الشريرة ووقفت أمامه؛ ما من أحد كان يراها، باستثناء المرأة والرسول. لكنها قالت هذه الكلمات، التي سمعها الجميع، وقد استعارت صوتاً مدوّياً:

«ماذا بيننا وبينك، يا رسول العليّ؟ ماذا بيننا وبينك، يا عبد يسوع المسيح؟ ماذا بيننا وبينك، يا خادم الروح القدس؟ لماذا تريد أن تُهلكنا

حين لا تكون ساعتنا قد أتت بعد؟ لِمَ تريد اغتصاب قدرتنا؟ حتى هذا اليوم، بالفعل، كان لنا حق الأمل بَعْدُ ببعض الوقت من الراحة. ماذا بيننا وبينك؟ لك حقٌّ على خاصتك، ونحن على خاصتنا. لِمَ تريد استخدام العنف حيالنا، أنت الذي تعلّم عدم استخدام العنف؟ لِمَ تطلب شؤون الغير، كما لو ان شؤونك الخاصة لا تكفيك؟ لِمَ تقلّد ابن الله، الذي آذانا؟ لأنك تشبهه كلّياً، كما لو انه وَلَدَك. لقد فكّرنا بقهره، كما باقي البشر؛ لكنه، وقد اتّخذ حذره، أخضعنا لسلطانه. وبالفعل، لم نكن نعرفه؛ لقد خدعنا بالوجه الذي استعاره، بفقره وضيقه. وبعدما تأمّلناه، تصوّرنا أنه كان رجلاً يرتدي جسداً، وكنا لا نعرف أنه هو الذي يمنح الحياة للبشر. لقد أعطانا تفويضاً مطلقاً على المخلوقات التي تخصُّنا، وفي حدود هذا الزمن الذي نحن فيه، سمح لنا بعدم التخلّي عنها، بل بأن نشعر بأنفسنا فيها؛ وأنت، على رغم حقوقنا وخارجاً عن رسالتك، تريد قهرنا والتغلُّب علينا.»

وبعد ذلك أخذت تبكي، وهي تقول: «إنني أُفارقك، يا رفيقتي الجميلة، التي التقيتها منذ زمن بعيد، وفي مجامعتها كنت أرتاح؛ إنني أتركك يا أُختي الحبيبة والوفيّة، التي متّعت فيها رغبتي. ماذا سأفعل؟ أجهل ذلك؛ مَنْ سأُنادي ليخدمني ويثأر لي؟ أعرف ماذا سأفعل: سأرحل إلى بلاد لم تبلغها شهرة هذا الرجل، وهناك، ربما، أستطيع، مكانكِ، أن أعثر ثانيةً على رفيقة حبيبة.» ثم تابعت، رافعةً الصوت: «إطمئني، طالما أنك وجدت ملاذاً قرب واحدٍ أقوى مني؛ إنما كما قلت ذلك، سوف أرحل، وسوف أُفتش عن أُخرى تشبهك، وإنْ لم أجد واحدةً، فسوف أعود لفائدتي. فأنا أعرف أنك ببقائك قرب هذا الرجل تجدين فيه ملاذاً؛ إنما ستكونين، وقد رحل، كما كنت قبل وصوله؛

وتصبحين مجهولة بالنسبة إليه، وتعود إليّ مع الفرحة، الحرية؛ اليوم، أخشى إسم مَنْ خلّصك.»

واختفى الشيطان، وقد قال هذه الكلمات. وفي الموضع الذي توارى فيه بالذات، شُوهد لهب ودخان، وكلّ الذين جاؤوا إلى هناك أصابهم الخوف.

٣١. سلام المسيح

وقال الرسول، إذ رأى هذه الأمور: «ما من شيء مدهش ولا مستغرب في هذا المشهد الذي يقدِّمه لكم الشيطان؛ إنما أظهر طبيعته، العنصر الذي سيُحرَق فيه؛ إن النار ستبيده بالفعل، ويتبدّد دخان النار في الفضاء.»

وبدأ بعد ذلك يصلّي: «يا يسوع المسيح، أيها السرّ المُغلَق، الذي كُشِفَ لي؛ أنت الذي أظهرت لي أسراراً لا تُحصى، أنت الذي أسرّيت إليّ، مميِّزاً إياي بين كلّ رفاقي، بكلمات ثلاث تُحرِقني ولا أستطيع تكرارها لآخرين: يا يسوع المسيح، أيها الإنسان المصلوب، الميت، المدفون؛ يا يسوع، أيها الإله المولود من إله، يا مخلِّصنا، أنت الذي تقيم الأموات وتشفي المرضى؛ يا يسوع، أنت الذي تفتقر إلى كلّ شيء والذي لتخليص الآخرين لا يفتقر إلى شيء؛ أنت الذي تصطاد الأسماك لعشائنا العادي والمتأخِّر، والذي، برغيف واحد، أشبع الجمهور كلّه؛ يا يسوع، أنت الذي، إنساناً، ترتاح من أتعاب السفر، وإلهاً، تتنزّه فوق الأمواج.

«يا يسوع العليّ، أيها الصوت المولود من أرحم الأحشاء. يا مخلِّص البشر أجمعين، يا يمين النور، الذي تُخزي إبليس في طبيعته الخاصة، وتحصر قدرته في مكان واحد؛ أنت الكائن الفرد، وبكر

شعبٍ من الإخوة: أيها الله المولود من الله العليّ، ومع ذلك إنسان كان لا يزال مُحتقَراً منذ عهد قريب؛ يا يسوع المسيح، أنت الذي لا تحوّل عينَيك حين نبتهل إليك؛ أنت المُعطى مثالاً للجميع بحياتك الأرضية؛ أنت الذي، حبّاً بنا، ألقاه قضاة في سجن؛ أنت الذي تُدعى متشرّداً تائهاً، والذي تُخرِج خاصتك من الضلال؛ يا يسوع، أُصلّي لك من أجل الذين هم هنا، والذين يصلّون لك بأنفسهم ويؤمنون بك: يصلّون لك، بالفعل، لتمنحهم نِعَمك، ملؤهم الأمل بمعونتك، ومتأكّدون من الحصول على مساعدتك من سموّك بالذات. إنهم يفتحون آذانهم لسماع الأحاديث التي تخرج من فمنا. ليأتِ سلامك ويحلّ فيهم، ليكونوا مطهّرين من أخطائهم الماضية، وليعرّوا الإنسان القديم مع أعماله، ويلبسوا الإنسان الجديد، الذي أُبشّرهم به الآن.»

٣٢. الإفخارستيّا

وإذ لمسهم بيدَيه، باركهم وهو يقول: «نعمة ربّنا يسوع المسيح تكوَن معكم حتى انقضاء الدهور.» وأجابوه: «آمين.» عندها توسّلت إليه المرأة وهي تقول: «يا رسول العليّ، أعطِني علامة السلام، لئلا يعود العدو إلى داخلي.» فأدناها الرسول منه، وإذ لمسها مباركاً، رسمها بالختم الإلهي باسم الآب، والإبن، والروح القدس. وكثيرون آخرون أيضاً رُسِموا بالختم في الوقت نفسه معها. وأمر الرسول شمّاسه بإعداد مائدة، وجيء بمقعد كان هناك. وإذ بسط غطاءً على ذلك المقعد، وضع عليه خبز التبريك. ثم قال، وقد اقترب منه: «يا يسوع المسيح، يا ابن الله، الذي رأيتنا أهلاً للمشاركة في إفخارستيّا جسدك المقدّس ودمك الثمين، أُنظُرْ، إننا نجرؤ على الاحتفال بإفخارستيّاك والتضرُّع باسمك: تعال واتّحِدْ بنا.» وأضاف: «تعالي،

أيتها الرحمة البلا عيب؛ تعالي، يا موزِّعة القوة الحازمة؛ تعالي، أنت التي تعرفين أسرار المختار؛ تعالي، أنت التي تشاركين في نضالات المصارع الشجاع كلّها؛ تعال، أيها الصمت الذي يكشف آيات العظمة اللامتناهية؛ تعال، أنت الذي تُظهِر الأمور المخفيّة وتعرّي الأمور السريّة، أيها الحمامة المقدّسة التي تلد الأخوين التوأمين: تعالي، أيتها الأم الخفيّة، التي تبدين في أعمالك، وتمنحين الفرح والسلام الذين يتّحدون بك؛ تعال، واتّحد بنا في هذه الإفخارستيّا التي نحتفل بها باسمك، وفي هذه الوليمة التي تجمعنا بالابتهال إليك.»

ورسم على الخبز إشارة الصليب، وقد تكلّم هكذا، وإذ كسره، بدأ يوزِّعه. وأعطى منه أولاً المرأة، وهو يقول: «خذي هذا لمغفرة خطاياك وكفّارةً عن ذنوبك في هذه الدنيا.» وبعد ذلك أعطى منه كلّ الذين تلقّوا علامة التبريك.

٣٣. شفاء الزاني

والحال إن شاباً كان هناك ارتكب عملاً إجرامياً، فتناول بفمه خبز الإفخارستيّا، وقد دنا من الرسول، لأن يديه يبستا للتوّ فجأةً، إلى حد أنه لم يكن يستطيع رفعهما إلى شفتيه. فأعلم الحاضرون الرسول بالأمر، وقد رأَوا ذلك. وإذ نادى الشاب، قال له الرسول: «قُلْ لي، يا ولدي، وتكلَّم بلا خوف؛ ماذا فعلت، وكيف انتهيت إلى هذه الحال؟ لأن إفخارستيّا الربّ قد دانتك. وبالفعل، إن هذا الخير، الذي يتوزّع على عدد كبير، يشفي خصوصاً الذين يدنون منه بالإيمان والمحبّة؛ بالنسبة إليك، لقد شلّك، وهذا لم يحدث من دون تأثيرٍ ما.»

وإذ تقدّم الشاب، واثقاً من إفخارستيّا الربّ، سقط عند قدمَي الرسول، وتوسّل إليه وهو يقول: «لقد قمت بعمل شرير، وكنت أعتقد

بأنني أقوم بعمل صالح. إنني أُولِعت بامرأة كانت تسكن خارج المدينة، في نُزُل؛ وكانت أيضاً تحبّني. والحال إنني سمعتك تتكلّم، وآمنت بالإله الحيّ الذي تبشّر به؛ ودنوت، وتناولت منك علامة الخلاص مع الآخرين. وكنت تقول: "كلّ من يكون قد أقام علاقة فاحشة، خصوصاً في حال زنا، لن يحيا قرب الله الذي أُبشّر به." وبما أنني كنت أُحبّ تلك المرأة بشدّة، كنت أتوسّل إليها وأنصحها بالسكن معي، وتبنّي تلك الحياة الطاهرة والنقية التي توصي بها. فلم تكن تريد ذلك. عندها تناولت سيفاً وقتلتها، لأنني لم أكن أستطيع رؤيتها تستسلم لآخر.»

وقال الرسول، وقد سمع هذه الكلمات: «أيتها العلاقة الحمقاء، إلى أي إفراطٍ في السفاهة لا تستسلمين؟ أيتها الشهوة التي لا تُقهَر، كيف دفعت هذا الرجل إلى التصرُّف هكذا؟ يا صنيعة الحيّة، بأي جنون تهيجين على أتباعك»

ثم أمر بأن يؤتى إليه بماء في حوض. وقال، وقد جيء بالماء: «تعال، يا ماء المياه الأبدية، يا كائن الكائنات، الذي بُشِّرنا به؛ تعال، يا نبع الراحة الذي وُعِدنا به، يا قوة الخلاص، يا انبعاث تلك القدرة الأخرى التي تنتصر على كلّ شيء وتُخضع كلّ شيء لمشيئتها؛ تعال واسكن في هذا الماء، لتتمّ نعمة الروح القدس كلّياً فيه.» وقال للشاب: «هيّا، إغسِلْ يدَيك بهذا الماء.» وإذ أطاع هذا الأخير، شفيت يداه. وقال له الرسول: «أتؤمن بربّنا يسوع المسيح وجبروته؟» فأجاب: «على رغم أنني حقير جداً، اؤمن بذلك. لكنني تصرّفت هكذا، معتقداً بأنني أحسنت التصرُّف؛ وكما قلت ذلك، لقد توسّلت إلى تلك المرأة، لكنها لم تُرِد القبول بالحفاظ على نفسها طاهرة.»

٣٤. قيامة الزانية

وقال له الرسول: «لنعُد إلى النُّزُل، حيث ارتكبت ذلك العمل، ولنرَ ما حدث.» وكان الشاب يتقدّم الرسول ليُرشِده إلى الدرب. وحين وصلا إلى النُّزُل، وجدا المرأة ممدّدة. فذُهِل الرسول، لهذا المشهد، لأنها كانت صبيّة جميلة، وأمر بنقلها إلى وسط النُّزُل. وكلّ الذين كانوا هناك، حملوها وقد وضعوها على سرير، ونقلوها إلى وسط فناء النُّزُل.

عندها وضع الرسول يده عليها، وبدأ يتكلّم: «يا يسوع، أنت الذي تظهر لنا في كلّ مكان (لأنك تريد أن نجدك في كلّ مكان)، لقد سمحت لنا بأن نطلب ونجد، ولم تعلّمنا فقط أن نُصلّي لك، أنت الحاضر دائماً في عينَي الروح، أنت الذي يخفى علينا شكله، لكن صنائعك بيّنة، نعم، نحن نعرفك، في نطاق ضعفنا، بأعمالك التي لا حصر لها، وأنت بنفسك، في جودك اللامتناهي، توصلنا إلى منزلك وأنت تقول: **إسألوا، تُعطَوا؛ أُطلبوا، تجدوا؛ إقرعوا، يُفتَح لكم.** إننا نصلّي لك إذاً واعين خطايانا؛ إننا لا نطلب منك ذهباً، ولا فضةً، ولا ملكاً، ولا أياً من تلك الأمور التي تأتي من الأرض وتعود إليها، بل ما نطلبه منك بإلحاح، هو أن تُقيم من الموت باسمك القدّوس وقدرتك العليّة هذه المرأة بهدف إيمان الحاضرين ويقينهم.»

وإذ تلا هذه الصلاة، رسم الشاب بإشارة الصليب، وقال له: «هيّا، وممسكاً بيد هذه المرأة، قُلْ لها: "بيدَيّ قتلتك بالسيف؛ بيدَيّ وإيماني بربّنا يسوع المسيح أُقيمك من الموت."» فوقف الشاب وقد تقدّم قرب الميتة، وهو يقول: «آمنت بك، يا يسوع المسيح.» وأضاف، مديراً عينَيه نحو الرسول يهوذا توما: «صلِّ من أجلي، لينجدني الربّ، الذي ابتهل

إليه من ناحيتي.» ثم قال، وقد وضع يده على يد المرأة: «تعال، أيها الربّ يسوع المسيح، وامنحنا، هي الحياة، وأنا عربون ثقتك.» وما أن جذب نحوه يد الميتة، حتى قفزت وجلست، مسمِّرةً عينَيها في الجمع الذي كان هناك. ورأت أيضاً الرسول الذي كان قبالتها، فسقطت عند قدمَيه، وقد وثبت إلى خارج سريرها، وتعلّقت بثيابه وهي تقول: «قُلْ لي، يا معلِّم، أين هو ذلك الآخر الذي يعاونك في صنائعك، ذاك الذي لم يسمح بأن أبقى في ذلك المكان الرهيب والخطر، بل سلّمني إليك، وهو يقول: "خُذها تحت حراستك، لتتقدّس، وتُعاد بعد ذلك إلى مقرِّها الأول؟"»

٣٥. رفيقة الشيطان

والحال إن الرسول قال للمرأة: «قولي لنا في أي مكان كنت.» فأجابت: «إذاً، أنت الذي تحميني، أنت الذي عُهِد بي إليه، تريد الاستماع إليّ حقاً؟» ثم بدأت تتكلّم: «لقد أمسك بي رجل؛ كان وجهه منفِّراً، واسود كلِّياً، وثيابه تَعِسة. وقادني إلى مكان حيث مهاوٍ عدة؛ وكانت تنبعث منها روائح عفنة وفَوْرٌ مؤذٍ. وكان يُرغِمني على الإنحناء فوق كلّ هاوية. ورأيت في احدها مجمرةً مضطرمة، وأطواقاً من نار تدور حولها، وكانت نفوس معلّقة في تلك الأطواق، مرتطمةً الواحدة بالأخرى؛ وكانت تُسمَع منها جيداً صيحات وعويل؛ إنما لم يكن هناك أحد ليخلِّصها. عندها قال لي ذلك الرجل: "هذه النفوس من جنسك نفسه؛ لقد حُكم عليها بالعذاب والتلاشي زمناً محدَّداً؛ عندها تُقاد أخرى مكانها، تُستبدَل بنفسها بدورها. إنها نفوس الذين عكّروا اتحاد الرجل والمرأة." وإذ تطلّعت مجدّداً، رأيت أطفالاً حديثي الولادة مكدّسين فوق بعضهم بعضاً، يتخبّطون بعضهم الى بعض، وكانوا

موضوعين قربهم. وقال لي، وقد استأنف الكلام: "هؤلاء الأطفال هم أطفالهم، وقد وُضِعوا هنا ليشهدوا ضدهم."

«وبعد ذلك نقلني إلى هاوية أخرى، وإذ انحنيت، رأيت كومة وحلٍ وهوامٍّ تنفتح، والنفوس التي كانت تتلوّى فيها، وسمعت صرير أسنانٍ هائلاً يصدر منها ويصعد حتّاي. وقال لي الرجل: "هذه النفوس هي للنساء اللواتي فارقن أزواجهن؛ إنها ملطّخة بالزِّنا، ولذا أُلقِيت في هذه العذابات." وبعد ذلك أراني هاوية أخرى، وإذ انحنيت، رأيت نفوساً مشنوقة، واحدة بلسانها، والأخرى بشعرها، وأخرى بيَديها، وأخرى أخيراً بقدمَيها، رأسها إلى أسفل؛وكانت تصعِّد دخاناً وكبريتاً. إذاك قال لي الرجل الذي كان معي: "هذه النفوس المعلَّقة بلسانها هي نفوس النمّامين، الذي نطقوا بكلام كاذب ومُخجِل، وعاشوا في السفاهة، سائرين هنا وهناك حاسري الرأس في الدنيا. والنفوس المعلَّقة بيدَيها هي النفوس التي نهبت مال الغير وأخفته، ولم تُعطي شيئاً أبداً بشروطٍ عادلة، ولم تساعد المضطهَدين؛ لكنها كانت تتصرّف هكذا لتستولي على كلّ شيء، ولا تولي العدل والقانون أيّ اهتمام. والنفوس المعلَّقة بقدمَيها هي النفوس التي اندفعت، في جنونها ونزقها، في دروب الفساد والفوضى، غير زائرةٍ المرضى، وغير ملازمةٍ الذين يفارقون الحياة. وهكذا تُعامَل كلٌّ من هذه النفوس وفقاً لصنائعها."

«ثم أراني، وقد قادني أيضاً، كهفاً مُعتِماً تماماً، تخرج منه رائحة نتنة؛ وكان عدد كبير من النفوس منحنياً إلى الخارج لاستنشاق قليل من الهواء؛ لكن الحراس لم يكونوا يسمحون لها بالانحناء. وقال لي الذي كان معي: "هذا هو سجن النفوس التي رأيت؛ فعندما تنفِّذ

عقوبتها، كلٌّ بحسب آثامها، تُستبدَل بأخرى، وتخضع لعذابات جديدة: إلا أن بعضها تفنى كلّياً في المكان نفسه."

«وقال حراس ذلك الكهف المظلم للرجل الذي استحوذ عليّ: "سلِّمنا هذه المرأة، لنضمّها إلى الآخرين حتى الساعة التي عليها فيها أن تخضع لعقوبتها." لكنه أجابهم: "لا، لن أُسلِّمكم إياها، لأنني أخشى الذي أعطاني إياها. وبالفعل، لم أتلقّ الأمر لتركها هنا؛ لكنني آخذها معي حتى أتلقّى أمراً يقرِّر مصيرها." وإذ أمسك بي، نقلني إلى موضع آخر، حيث كان أُناس يخضعون لعذابات مرّة. إذاك أمسك بي بدوره من يشبهك ووضعني بين يديك وهو يقول: "خُذْها، فهي إحدى النعاج الضالّة." وبعدما أخذتني، أنا في حضرتك. إجعَلْ بصلواتك ألا أعود بَعْدُ إلى أماكن التعذيب تلك التي رأيتها للتو.»

٣٦. الإنسان الجديد

عندها قال الرسول للجمع المحتشد: «لقد سمعتم، يا إخوتي، ما روته هذه المرأة. هذه العقوبات ليست الوحيدة؛ ثمة أخرى بَعْدُ أدهى. وإذا لم تتحوّلوا نحو الله الذي أُبشِّر به، وإذا لم تُقلِعوا عن صنائعكم الماضية والأعمال التي قمتم بها من دون إدراك، فسوف تجدون نهايتكم في هذه العقوبات. آمنوا إذاً بربّنا يسوع المسيح؛ منذ اليوم يغفر لكم الخطايا التي ارتكبتموها حتى الآن، ويوماً ما يطهِّركم من كلّ الرغبات الجسدية التي تبقى على الأرض، ويشفيكم من كلّ الذنوب التي تلحق بكم، وترافقكم أو تتقدّمكم في هذه الدنيا. والحال هذه، ليعرّي كلٌّ منكم الإنسان العتيق، ويلبس الجديد. دَعوا هنا دروبكم القديمة ومسلككم القديم. ليكفّ السارقون عن السرقة، إنما ليكسبوا خبزهم بعملهم وعرَقهم؛ ليكفّ الماجنون عن الإستسلام

للمجون، خوفاً من أن يسلِّموا أنفسهم بأنفسهم للعقوبات الأبدية؛ لأن الفجور هو بين كلّ الشرور أبغضها عند الله. أَقلِعوا عن البخل، عن الكذب، عن إدمان الخمر، عن النميمة، عن مقابلة الشر بالشر؛ لأن كلّ هذه الأمور متناقضة وكريهة عند الله الذي أُبشِّر به. بل عيشوا بالإيمان، باللطف، بالقداسة وبالرجاء، التي هي فرح الله، لتصبحوا أبناءه وتحصلوا على الخيرات التي لا يمنحها إلا لعددٍ ضئيل.»

٣٧. شهرة الرسول

وآمن الشعب كلّه إذاً، وأظهروا نفساً وديعةً لله الحيّ يسوع المسيح، واضعين فرحهم في صنائعه المباركة وفي الخدمة المقدّسة التي كان الرسول يؤديها باسمه. وكانوا يحملون إليه مالاً كثيراً لتعزية الأرامل؛ فقد كان منها عدد كبير متجمّع في المدن، وكان يُرسِل إليها كلّها، بواسطة خدّامه، الأمور الضرورية، ثياباً وطعاماً. لكنه لم يكن يتوقّف عن التبشير؛ وكان يقول لهم ويبرهن لهم على أن يسوع المسيح هو حقاً الذي تنبّأت به الكتب المقدّسة، مبشِّرةً بأنه سوف يأتي، وسوف يُصلَب ويقوم في اليوم الثالث من بين الأموات. وكان يعلِّمهم، ويشرح لهم، راجعاً إلى الأنبياء، كلّ ما يتعلّق بيسوع المسيح، مُثبِتاً أنه كان ينبغي أن يأتي وأن به تتمّ كلّ النبوءات التي كان موضوعها.

وذاعت شهرة الرسول في كلّ المدن وكلّ الأصقاع؛ وكلّ الذين كان لديهم في عائلاتهم مرضى أو ممسوسون، كانوا يأتون بهم إليه، وكان يشفيهم؛ والذين كانوا يضعونهم على الطريق التي عليه أن يمرّ بها، كان يشفيهم أيضاً بقوة الربّ. عندها كان يقول كلّ الذين شفاهم بالإجماع وبصوتٍ واحدٍ: «المجد لك، يا يسوع، الذي تمنح الجميع

بالتساوي الشفاء بواسطة توما، خادمك ورسولك! إننا نسألك، وقد عدنا إلى الصحة والفرح، نعمة الانتساب إلى قطيعك، وأن نُحسَب بين نعاجك. إستقبلنا إذاً، يا ربّ، ولا تُلصِق بنا السّقطات والذنوب التي صنعناها، عندما كنا في الجهالة.»

٣٨. شكر المسيح

وقال الرسول: «المجد لابن الآب الوحيد، بكر إخوة كُثُر! المجد لك، أيها المدافع عن الذين يأتون ليلوذوا بك وحاميهم! لك أنت الذي تسهر أبداً لتوقظ الذين هم نياماً، الذي يحيا ليُعيد الحياة إلى الذين هم راقدون في الموت؛ يا الله، يا يسوع المسيح، يا ابن الله الحي، يا محرِّرنا وعوننا، يا ملاذ كلّ الذين يتألّمون لخدمتك وراحتهم، يا معزّي الذين يحتملون، لمجد اسمك، وطأة النهار وصقيع الليل؛ إننا نشكرك على النِّعَم التي أغدقتها علينا، على العون الذي منحتنا إياه في محبّتك، وعلى عطيّة ذاتك التي قدّمتها لنا، بحلولك فينا.

«أتِمّ إذاً حتى النهاية تدبيرك فينا، لنجد يقيننا فيك؛ أَخفِضْ عينَيك صوبنا، فمن أجلك رحلنا عن موطننا، من أجلك أصبحنا غرباء في كلّ مكان، وذلك من دون أسفٍ ولا انزعاج. أَخفِضْ عينَيك صوبنا، وعامِلْنا وفق مراحمك، لتُغفَرْ لنا كلّ خطايانا ونتمكّن من التمتُّع بمجدك.»

أعمال بولس

ظل الاعتقاد سائداً بأن أعمال بولس وتقلا التالية ترجمتها، ورسالة بولس إلى الكورنثيين واستشهاد بولس، وهي نصوص منحولة، كتابات ثلاث مستقلة. لكن ك. شميدت (C. Schmidt) اكتشف في بداية القرن العشرين نبذات قبطية وترجمة يونانية تؤكّد العلاقة الوثيقة بينها.

إستناداً إلى ترتوليانوس، واضع النص كاهن من آسيا الصغرى عُزِل لهذا السبب، وكان ذلك قبل العام ١٩٨ م. لم تصل إلينا مطلع هذه الأعمال. وتُعزى الترجمة الراهنة إلى باسيليوس، أُسقف سلوقية الذي كان يعيش في بداية القرن الخامس م.

كما في أعمالٍ منحولة كثيرة، يُثير القديس بولس غضب الخُطّاب والأزواج مبشِّراً بالعفة، التي تُبعِد النساء عن العلاقات الزوجية، فيُقاد إلى السلطات التي تُلقيه في السجن. وهو يجسِّد المسيح على صعيد رسالة إنقاذ البشر من

إغراء العالم. تلعب النسوة دوراً كبيراً في النص، وعلى رأسهن تقلا. الكلام على نهاية العالم غالب، وكذلك الرجاء بقيامة الجسد.

إن بولس المغبوط كان في البدء يهودياً ومضطهداً الإيمان؛ لكنه كرّس نفسه للتبشير، وقد تلقّى العماد المقدّس، ورُفِع إلى رتبة رسول، كما يُخبِرنا القديس لوقا. وقَدِم إلى مدينة إيقونيوم، جائباً العالم من أجل خلاص المُشرِكين، وتعليمهم ودعوتهم إلى الربّ، ليبشّر فيها أيضاً بالحق. وهي مدينة من أعمال ليقاوْنية، غير بعيدة من الشرق، إنما قريبة أكثر من آسيا، وموقعها في بلاد الپيزيديين والفريجيين.

١. جوار تقلا

وإذ توقّف الرسول في هذه المدينة، استقبله بكثير من الود أُونيسيفورس، الذي استضافه بكثير من الاحترام، وحدث أنه ألفى نفسه جار العذراء تقلا، ليس بملء إرادته، وليس من جراء محاولة ما جرت لهذا الهدف، بل لأن الروح القدس قاده إلى هناك، من أجل أن ينقل بولس الإيمان إلى العذراء، بتأثيرٍ من هذا الجوار، ويحمل إليها نور الإيمان، عندما كانت في ظلمات الضلال والجهالة.

كانت من عائلة نبيلة، وأهلها يشغلون مقاماً رفيعاً جداً؛ وكانت ثرواتها وجمالها تُلفِت النظر إليها في كلّ مكان؛ وسبق لها، إذ أدركت، أن سبّبت نزاعات ومشاجرات بين شبّان أثرياء تحرّكهم منافسة ضارية والرغبة في الفوز بامرأة بهذا الكمال زوجةً. وكانت أُمها، تيوكلية، تحثّها على أن تلاحظ خصوصاً واحداً اسمه تاميريس، متفوّقاً على كلّ الآخرين الذين كانوا مميَّزين في تلك المدينة، والذي

كانت ثروته ومزاياه تضعه في مقام رفيع؛ وحتى أن زمان زواجهما قد حُدِّد، عندما جاء بولس وسكن عند أُونيسيفورس، وكان عدد كبير من المؤمنين يجتمع لسماع كلامه. واقتربت تقلا من نافذة كانت مفتوحة، فسمعت موعظة الرسول التي استمعت إليها بلهفة كبرى (يسوع المسيح قاصداً الأمر هكذا، لتؤسَر على هذه الصورة)، ولبثت إلى تلك النافذة، كما لو كانت موثوقة بسلاسل حديدية، مستمعة إلى بولس بتلهُّف.

٢. العقيدة الجديدة

وهذه كانت أقوال الرسول: «أنتم الذين اجتمعتم لسماعي أُعلِن أموراً جديدة، يجهلها الناس، سوف أعرض لكم عقيدة جديدة فعلاً، إنما في الوقت نفسه إلهية وخلاصية؛ لم أتلقاها من أحد، إلا من كلمة الله الذي نقل إلينا وصايا الحياة الإنجيلية والسماوية هذه، مولوداً في الشكل والطبيعة البشريتَين، ونازلاً على الأرض: طوبى للذي هو المتأمِّل الحقيقي للألُوهة، والذي احتفظ بنفسه طاهرةً، مستقيمة ومحرَّرة من كلّ اضطراب في الشرور التي تتعرّض لها حياة الإنسان! طوبى للذي لم يُسلِم جسده للذّات نجسة، بل الذي أتمّ واجباته بأمانة، صائناً نفسه دوماً في حضرة الله! طوبى أيضاً للذي، وقد وُلِد تحت سيادة القانون العام، يتصرّف كأنه لم يولد، والذي يعيش حياة نقية ومنزّهة من كلّ دنس، مستخدماً كلّ مواهبه، ليس لأمور فاحشة ومخالفة لإرادة الله، بل للتي هي مَرضِيَّة عند الربّ، وموافقة للاستقامة. أقول إن من المناسب جداً والصالح للإفضاء إلى السعادة التي أتحدّث عنها التزوّج ودخول المخدع الزوجي (وفق إرادة الله) ليُرزَق المرء أولاداً يمكنهم أن يخلفوا أهلهم.

«طوبى لهم أكثر بَعْدُ الذين يكرّسون أنفسهم لبكارة دائمة، عائشين في خوف الربّ واحترامه، وحافظين أنفسهم في طهارة الجسد والنفس، مقتدين، على الأرض، بحياة الملائكة! إنني أعتبرهم الأسعد كلّ الذين احتفظوا بهبة البراءة العمادية التي تلقّوها، بكراً وكاملة، والذين لم يدنِّسوا بأي لطخة، سواء بالأعمال، وسواء بالأقوال، ثوب يسوع المسيح، بل الذين حفظوه، حتى النهاية، كما تلقّوه. إنني أعتبرها خصوصاً مُشتهاةً حال الذين ينالون من الربّ، وقد سهروا على التخفيف من بؤس الفقراء والمتسولين، رحمةً تعادل تلك التي أبدَوها. من أجل كلّ ذلك، ينبغي امتلاك إيمان وحبّ ليسوع المسيح لا يهتزّان ولا ينقصان، بل يبقيان راسخَين وثابتَين. إن الذي ينهد أبداً إلى بلوغ ذروة هذه الفضائل، ولا يدع نفسه تتحوّل عن طريق السماء، يشارك في ملكوت الربّ، ومجده وراحته؛ وينال الأكاليل الإلهية والمكافآت الخالدة. طوبى للذي ينالها! إنما هو مدعاة شفقة، الذي لن يكون جديراً بها، والذي يستحق على العكس عذابات الجحيم!»

٣. ملتصقة إلى النافذة

كان بولس المغبوط يتحدّث بهذا الشكل إلى المواطنين الذين كانوا مجتمعين؛ وكان يُلهِب كلّ مستمعيه، رجالاً ونساءً، برغبةٍ عنيفة في التكرُّس للورع؛ وكان الجمع يهرَع لسماعه، ناسياً المشرب والمأكل، ومتوانياً عن الشؤون العامة والخاصة، حتى يتفرّغ فقط للذّة سماع بولس. ولبثت العذراء تقلا في بيتها، كما لو انها ملتصقة بنافذتها، لكن حياء سنّها، والعادة التي كانت تفرض على العذارى وجوب عدم الخروج، كانا يمنعانها، حابسَين توثُّب روحها السَمِح، ومُرغمَينها على البقاء في بيتها، الأمر الذي كانت تتحمّله بألم وأسفٍ حادٍ.

لم تكن تستطيع رؤية بولس، وكانت تسمعه بصعوبة، ولم تكن تستطيع الابتعاد عن النافذة، حيث كانت تحسد على حظّهم اولئك الذين كانوا قادرين على تأمّل الرسول، وعدم تفويت شيء من أقواله؛ ما عادت اهتمّت بتناول مأكل أو مشرب، وكانت تُهمِل كلّ زينتها، كافّةً عن التفكير باللبس بأناقة، وإراقة عطور على جسدها، وترتيب شعرها، كما هي العادة بين العذارى.

٤. خوف الأُم

وكان ذلك، لأُمها تيوكلية، باعثاً كبيراً للألم والتخوّفات، عندما رأت ابنتها ناسيةً هكذا كلّ مباهج الحياة وكلّ ضروراتها، ومتعلّقةً فقط بكلام غريب.

وعلى الفور اتصلت بتاميريس، ظانّةً بأنه وحده يستطيع ثني العذراء التي خُطِبت له، وإعادتها إلى مشاريع الزواج التي وضعاها، وكلّمته بهذا الشكل:

«إن الحياء والدموع تخرساننى، يا تاميريس العزيز، وأخجل قبل أن أتحدّث إليك وأقول كلّ الأمور التي عليّ إعلامك بها في خصوص ابنتي. ومع ذلك استمعْ إليّ عندما سأروي لك، على رغمي حقاً، المصائب التي تصيبني. إن حبيبتك تقلا، محطّ أمانينا كلّها، تلك التي وضعنا فيها أملنا، تتخلّى عنا وتحتقر أمّها؛ إنها ما عادت تفكّر بك أنت الذي يجب أن يكون زوجها؛ إنها ما عادت تفكّر إلا بغريبٍ وبخدّاع، ماكر، يقطن إلى جوار مسكننا ويُمسِكها سجينةً، مُهمِلةً كلّ اهتماماتها. عجِّلْ، يا تاميريس، وانتزِعْها من يدَي ذلك الغريب، وأَعِدْها إلينا، واحفَظْ لعائلتينا بهجتهما القديمة؛ وامنع أن نصبح موضوع سخرية وأن نوفّر الفرصة لأسوا الأقاويل. وجِّهْ إليها كلمات

ملاطفة وناعمة؛ ليِّنْ بالإطراء، كما بالزيت، فظاظة نفسها؛ إن قلباً قاسياً وحانقاً يقاوم القوة، لكنه يستسلم لرقّة الملاحظات وللطيبة. أَعِدْها إلى حياتها السابقة، إلى التواضع والطاعة اللذين يليقان بالصبايا والعذارى.»

٥. أسى الخطيب

وغدا تاميريس، وقد سمع تيكولية تعبّر هكذا وتنوح، كمَنْ اسره دوار؛ فاضطرب نظره، واسودّت أفكاره، عندما رأى نفسه ينتقل هكذا من فرح هائل إلى ألم فائق. واقترب من العذراء بمظهر حزين وقانط، ساكباً دموعاً ويكاد لا يستطيع التنفُّس بسبب أساه، ووجّه إليها هذه الكلمات:

«لا أدري كيف سأبدأ بالتحدّث إليك، أيتها العذراء الغالية جداً عليّ. لقد رميتني، كما أُمك، في اليأس وفي أعظم اضطراب. إن أفعالك تبعد في شكل خطير عن الطبع الذي نعرفه لك وعن الأدب الذي تقيّدت به دائماً؛ أعتقد بأن ذلك هو نتيجة إغراء جنّيٍّ شرير ما يجهد لتحويلك عن الأفكار المستقيمة وتدمير السعادة التي كانت تتمتّع بها عائلتك؛ فارضةً علينا جميعاً علامة عار بدلاً من المجد الذي كان يرتبط باسمنا. عودي إلى تاميريسك، فأنا لك استناداً إلى وفاء الوعود المعقودة بيننا، وإنْ لم يتمّ زواجنا. إبتعدي عن هذه النافذة؛ كُفّي عن الإصغاء إلى ذلك المتشرّد الغريب، النازل بهذه المدينة، لا أدري بأي صدفة مشؤومة؛ لا ينبغي إمكان القول إن ابنة تيوكلية، وهي امرأة من بين الأكثر احتراماً، إن خطيبة تاميريس، المشهورة جداً في المدينة، تتخلّى عن ثروتها، عائلتها، وإلى ذلك، مبادىء تربيتها، لتتعلّق بغريب؛ تلك التي كانت تمثّل زينة المدينة تصبح هكذا موضوع

سخرية للشعب؛ ترفض توسُّلات أُمها ورجاءات خطيبها لتستسلم لإغراء كلمات ذلك المتشرّد الخادعة ولا تشاء الاستماع إلا إليه. يا عزيزتي تقلا، لا تعرّضي نفسك لتلك الملامات وتلك الافتراءات؛ لا تستمعي بَعْدُ إلى صوتٍ خدّاع وضعي كرامتك وسمعتك فوق لذة مضلِّلة وتستحق اللوم. أُهجري هذه النافذة، باعتبارها موضعاً غير جدير بعذراء مهذّبة في شكل لائق ويُسقِطك في العار. إذا نظرت إلى ما أقوله لك بغيضاً ومزعجاً بالنسبة إلى عذراء، فاقبلي بالزواج المتَّفَق عليه بيننا والذي هو محط أمانيّ كلّها.»

٦. حزن في المنزل

جهد تاميريس هكذا، بهذه الكلمات وبأخرى كثيرة مماثلة، في التأثير على تقلا، وبذلت تيوكلية أقصى جهدها، وقد انضمّت إليه، لاستدراج ابنتها إلى المشاعر نفسها؛ وأرتها صدرها الذي أرضعها وشعرها الأبيض، وتوسلت إليها ألا تُحزِنها بالاستمرار في عنادها. لكن العذراء لبثت جالسة، غير مستسلمة مطلقاً لما يقولان، غير مستمعة إلا إلى صوت بولس، ومن دون أن تنظر إلى تاميريس، من دون الإصغاء إلى تأنيبات أُمها، كانت منشغفةً برغبتها في التعرُّف إلى يسوع المسيح.

عندها استسلم الجميع للحزن؛ وامتلأ المنزل بصيحات وبكلّ علامات الألم، وهرع تاميريس إلى الخارج، متوجّهاً إلى عند أُونيسيفورس ليدنو من بولس. إلا أنه توقّف وقد التقى ديماس وهرموجينس، اللذين لم يكونا رجلَين فاضلَين، على رغم تظاهرهما بأخلاقٍ سامية، ليس لأنه لم يعرف ما كانا عليه في الواقع، لكنه كان يحتملهما قربه رأفة، آملاً بأن يصبحا أفضل.

٧. الحاقدان

وسألهما تاميريس عمَّن يكون بولس، من أين يأتي وماذا يريد. فأبصرا غضبه واحتداده (الأمر الذي لم يكن صعباً لأن تاميريس كان مملوءاً حنقاً)، وتحدّثا إلى تاميريس على هذه الصورة، معتقدَين بأنهما وجدا الفرصة لنفث سُمّ الحقد والغيرة الذي أخفياه بعناية حتى ذلك الحين :

«يا أكرم الرجال (ونعطيك هذا اللقب لأن عينَينا وأُذنَينا تُظهِر لنا بجلاء مَنْ أنت، فالميزة تبدو في رائعة النهار بوضوح العيب)، استمعْ إلى جواب صحيح في شأن الأمور التي تسألنا عنها. إننا لا نَدري مَنْ هو ذلك الغريب الذي تتحدّث عنه، لكننا نعرف أنه دجال هائم من دون أن يكون له مسكن ثابت، قالباً ما هو موافقٌ القواعد المألوفة؛ إنه يثابر فوق كلّ شيء على التحويل عن الدرب التي رسمتها الطبيعة للجنس البشري، والتي تتمثّل في إدامة النسل بالزواج؛ إنه لا يفكّر إلا بتدميره وإبادته. إنه يعمل على قلب ما أنشأته الطبيعة بعقائد جديدة وغريبة؛ إنه ينصح بالتبتُّل ويمجّد البكارة. إنه يبشّر ويعلّم أن الأجساد المدفونة والتالفة ستقوم، وهو أمر محال ولم يعلّمه أحد أبداً، فيما القيامة الحقيقية تتمّ في الطبيعة نفسها وتحصل كلّ يوم. وهذه الأخيرة تريد أن تستمرّ سلسلة الكائنات، فيولد الآباء ثانيةً من أبنائهم ويظهر الموتى ثانيةً في الأحياء.»

٨. مهاجمة بولس

وإذ تحدّث ديماس وهرموجينس على هذه الصورة، حنق تاميريس أكثر فأكثر، ومعتقداً بأنه وجد طريقة هجوم على القدّيس بولس، كيح

لبرهةٍ غيظه، ودعاهما إلى المجيء وتناول طعامهما عنده؛ ومنحهما هكذا طعاماً فاخراً ثمناً لوشاياتهما التي أشاعاها ضدّ بولس؛ وكاد لا ينتظر غياب الشمس، وأسرع يهاجم بولس مع قوم من الشعب وأشقياء معتادين الإقدام على كلّ شيء. وكلٌّ من الذين كانوا يتبعونه تناول أسلحةً، إما أدوات عمله المعتاد، وإما أول غرض وضعه الحنق بين يدَيه. وكانوا يصرخون بصوتٍ عالٍ: «لنقتُلْه، لنطرُدْه، لنقُدْه إلى أمام المحكمة، هذا الدجال المجرم، مخترع قوانين جديدة ومتعارضة مع الطبيعة؛ إنه آتٍ ليصب على المدن أعظم المصائب؛ إنه يهاجم الزواج القائم لمصلحة العفّة ومن أجل إنجاب أولاد شرعيين ويرفضه؛ وبحجّة تعظيم البكارة، يسنّ قوانين تشجّع الفجور.»

٩. أمام الحاكم

وعندما كانوا يُطلِقون هذه الصيحات، انضمّ إليهم رجال آخرون كثر، عنيفون ووقحون، هائجين أيضاً ضد بولس. كانت المدينة كلّها ملأى ضجيجاً، ضوضاء، تأوّهات، كما لو ان أعداء اجتاحوها وحملوا إليها الخراب. وهرع تاميريس إلى المحكمة، مقتاداً بيده بولس إلى المحاكمة؛ وإذ وصل إلى أمام الحاكم، أفصح بهذه الكلمات:

«أعتبر نتيجة رأفة الآلهة، وإثباتاً للنجاح الذي يرافقك، أن هذا الرجل المنحرف والنجس، الآتي إلى مدينتنا ليحمل إليها الاضطراب، قد اكتُشِف، وعومل وفق صرامة القوانين. إن واجبات وظيفتك وحسّ العدالة تفرض عليك دعم الامبراطورية القائمة، والسهر على الحفاظ على القوانين، وتدارك الأخطاء التي يمكن أن تهدّد الجنس البشري. سوف أشرح بكلمات قليلة كيف عليك الوفاء بهذا الواجب. إن رجلاً اقتيد إلى أمام محكمتك. ليس عليّ أن أقول مَنْ هو، ولا من أين يأتي؛

إنه غريب، لا يعرفه أغلبنا، وهو يبشِّر بعقيدة جديدة وفظيعة، قاضية على الجنس البشري بأسره، لاجئاً إلى خدعة وورع متصنّع؛ إنه يرفض الزواج، المعترَف به أصلاً لطبيعتنا، ومنشأً ومَنبعاً لها؛ من هناك ينبثق الآباء، الأُمهات، الأولاد، العائلات، المدن، البلدات، الحقول؛ من هناك تأتي الملاحة، الزراعة وفنون الأرض كلّها، كما الحكم، الجمهورية، القوانين، القضاء، الأحكام، الجيوش؛ من هناك تتفرّع الفلسفة، البلاغة والعلوم الشريفة كلّها؛ وما هو أهم بَعْدُ، الهياكل، الشعائر المقدَّسة، القرابين، الطقوس، الأسرار، النذور، الابتهالات. كلّ هذه الأمور وأخرى كثيرة أُغفِلها، لئلا أُطيل خطابي، يؤديها البشر، والإنسان لا يوجد إلا بالزواج.

«إن هذا الغريب، كما قلت الآن، يرفض الزواج، يفتري عليه، ويجهد لتحويل مستمعيه عنه، ويُقال إنه يكيل مدحاً عظيماً لبكارةٍ لن أُحسِن كيف أصفها. سمعت أنه يعظِّم التبتُّل، ناصحاً بالإحجام عن زواج شرعي، وراغباً في أن يعيش الرجال منفصلين عن النساء، والنساء مبتعدات عن الرجال. أَليس ذلك طلب إزالة العائلات كلّها، الأُمم، المدن، الزراعة، الفنون، الدراسات، وبكلمة كلّ ما يوجد على الأرض؟ أَليس ذلك النصح بوحدة كاملة في الكون؟

«إذا رُسِّخت مبادىء كهذه في أذهان كلّ البشر، فسرعان ما يكفّ الجنس البشري عن الوجود. لقد ذكرت في اختصار ما أراد فعله؛ يبقى عليك، أيها القاضي، أن تقوم بواجبك، بمعاقبة مَنْ أذنب بأعظم الجرائم. بالنسبة إلينا، الذين أكبر أمانينا الفوز بزوجة، وإيقاد مشاعل الزفاف، وترك أبناء من بعدنا وأبناء أبنائنا، تعال لنجدتنا، واحمِ الزواج، أجمل الأمور كلّها، ذاك الذي كان من شأنه أنك أتيت إلى هَذه الحياة، وأن لك عائلة. إذا فعلت ذلك، وإذا لم تدَعْ هذا

الغريب يفلت من العقاب الذي يستحق، فسوف ترى وراءك نسلاً كثيراً جديراً بالاحترام من كلّ النواحي، وسيكون لك أعقاب خليقون بالفوز بك أباً وجدّاً.»

وإذ تحدّث تاميريس على هذه الصورة، تناول الكلام ديماس، الذي لم يكن بعيداً عنه، وقال له، بصوت رقيق وسريع: « لقد عبّرت بحكمة، ووقار وعدل بالنسبة إلى بولس هذا، لكنك نسيت، في خطابك، حالاً، وهي خطيرة جداً، فهو مسيحي، الأمر المناقض تماماً للقوانين، والذي يجلب عليه الفرض المباشر للعقوبات الأقسى.»

١٠. ردّ بولس

وبعدما أفصح ديماس هكذا، سأل القاضي بولس عمّنْ هو، من أين يأتي، وماذا يفعل. «سمعت، قال، ما يتّهمك به تاميريس، ماذا عندك تقوله؟»

فردّ بولس هكذا: «أيها الحاكم، يا أفضل الرجال؛ لستُ صاحب عقيدتي ولا مخترعها، تلك التي يحتجّ عليها هؤلاء الرجال؛ إن صاحبها الحقيقي وأستاذها هو الله الذي أرسلني مع آخرين كثر، وقد أشفق على الجنس البشري، وتأثّر بمصائبه، بشيراً لمراحمه، من أجل أن نقتلع ونستأصل كلّياً الشر الذي يفيض فينا بجهل الأزمنة القديمة، وضلالها وتضليلها، ومن أجل أن نتمكّن من كشف شرور الوثنية الكامنة خلال مجرى أعوام كثيرة وإبانتها، بتدمير الأسرار وذبائح البشر والحيوانات التي خدعت طويلاً الجنس البشري المُضَلَّل بخرافات، والتي ملأت العالم في كلّ اتجاه إلحادات لا متناهية وجرائم بغيضة، لن يكون سهلاً عدّها ولا إعلانها.

«لقد أخذ البشر، تقودهم خرافات الوثنية وسخافاتها إلى جهل الله، الخالق الحقيقي لكلّ الأشياء ومدبّرها، يعبدون شياطين من كلّ

نوع، أرضية، جهنمية، صاخبة، نجسة، بغيضة، شرسة، محبَّةٌ أعمال القتل والجرائم، متعطِّشةٌ دوماً إلى الإجرام، والدخان والدم، مجتاحةً كالطاعون الأرض بأسرها التي تحت الشمس ومثيرةً إياها بقسوة. لقد أدخلوا العادات الأدنى والأفظع، فتحت ستار تلك الخرافات، احتُفِل بالزِّنا، وارتكاب المحارم، والفجور الأسفه بتكريم إلهي وتلقّت عبادة دينيّة. ألَيس لهذا السبب احتُفِل بغرام مارس وڤينوس، جوپيتر وجونون، ولدينا غانيميد، البجعة وليدا، الثور وإيو؟ أَمِنَ الضروري التذكير بأن ثيراناً، نعاجاً وحتى هررة، حِدْآتٍ وتماسيح أُحلِّت في عداد الآلهة؟ أَلَمْ نخجل بتأليه بشرٍ ونقلهم من الأرض إلى السماء؟ ألَيس العدد الوافر من تلك الآلهة المزعومة موضوع استغراب مستمر؟

«إن الله أشفق بسبب كلّ الشرور التي أحدثها كثير من الإلحاد، كما قلت ذلك، على الطبيعة البشرية التي كان خالقها ومبدأها؛ وأرسلنا، نحن، رسله، متقلّدين سلطان ابنه الوحيد، لنجوب العالم بأسره، مطهّرينه من كلّ الشرور وكلّ الرجاسات التي ذكرتها لك الآن وواضعين مكانها الإيمان، معرفة الله، والورع، الذي يعبّر عنه ويكشفه فوق كلّ شيء ثالوث الآب، والإبن والروح القدس الفائق القداسة والروعة، الألوهة غير المخلوقة وذات الجوهر الوحيد، الأبدية، الثابتة، التي لا تُضاهى، غير المنفصلة، غير المحصورة، التي فوق الزمن، فوق العالم، ولها الإكرام نفسه، العرش نفسه، التي تخضع لها كلّ الأشياء، وتنشأ منها كلّ الأشياء، والتي لا ينفصل عنها شيء.

«وتلقّينا بعد ذلك الأمر بالتبشير بمجيء كلمة الله لدى البشر بالجسد، هو الذي، باعتباره إلهاً وموجوداً أبداً مع الربّ، وُلِد بالجسد وفقاً للناموس العام للطبيعة البشرية، لكنه وُلِد من عذراء منعتقة من كلّ اتصال شهواني؛ وُلِد، ليحفظ الإنسان الذي خلقه وكان صنيعته،

ولإعادتنا إلى الحرية بانتزاعنا من تسلُّط الشياطين العاجز، ولاقتيادنا أيضاً إلى صرامة السلوك وإلى الاعتدال، بإعطائنا وصايا الطهارة، والبتولية والتعفُّف المقدَّس.

«كان ينبغي إذاً أن يتبع البشر، المتنبّهون للاستماع إلى كلمة الله، باستمرار درب الفضيلة التي تقود إلى الله، متصرّفين هكذا باستعدادٍ، وليس كما على رغمهم. فلم يلجأ الربّ أبداً إلى العنف أو إلى التخويف للإيصال إلى الفضيلة. إن الأمور تحتاج، لتكون جميلة ومُرضية، إلى أن تكون طوعية وليس أن تكون فعل الضرورة.

«إن الله منح الجنس البشري الزواج علاجاً وعوناً، واقياً من الشَّبَق، ونبعاً كوّنه الله لإدامة الجنس البشري الذي هو خالقه؛ إنه مُعَدٌّ للخلاص، للمحافظة على حياة الإنسان وامتدادها. إنهم يخلفون بعضهم بعضاً ويتعاقبون من دون أن ينقرض النسل أبداً، وسيكون الأمر كذلك إلى أن يأتي زمن انقضاء الدهر والقيامة ويدمّر صورة هذا العالم ويستبدلها بحالٍ أكمل ووضعٍ أكثر إلهية. فينبغي أن يكتسي ما هو مائت بالخلود؛ ينبغي أن يكتسي ما هو قابل للفساد بعدم الفساد؛ وينبغي أن نعود جميعاً إلى الموطن الأصلي الذي الله خالقه، أي إلى السماء. ها هو ما أُبشِّر به، ما أُعلِّمه، ولهذا الهدف أجوب مناطق العالم كلّها؛ ولهذا أتيت إلى هنا: لذلك يمكن اتهامي إذا شئتنا وإدانتي. إنني حاضر لكلّ نوع من الجهاد ولتعريض نفسي من أجل الحقيقة.»

١١. بولس في السجن

وإذ ردّ بولس هكذا على تاميريس وأثار بين مستمعيه إعجاباً عظيماً، بسبب الوضوح والعزم اللذين دافع بهما عن الإيمان، لم يجد

الحاكم في بولس شيئاً مستحقاً اللوم، على رغم ضوضاء الشعب وصراخه وعلى رغم اتهامات تاميريس؛ كان يجد في ما قاله الرسول أموراً يؤيّدها وأخرى تبدو له سخيفة؛ وخطاب كهذا كان بالنسبة إليه جديداً وخارقاً، وكان يريد أيضاً إقصاء الصعوبات وسورات الغضب التي أثارها بسبب بولس؛ وهكذا أمر بأن يوضع في السجن، مرجئاً سماعه إلى مرة أُخرى.

١٢. جسارة تقلا

وإذ تمّت هذه الأمور هكذا، واستكانت تلك العاصفة العظيمة، العذراء تقلا التي كانت ملأى قلقاً حيال معلّمها والتي لم تكن تجهل شيئاً مما حدث، لأن الشهرة حملت إليها سريعاً نبأه، دبّرت خطتها ونفّذتها بتصميمٍ أكثر مما لدى صبيّة، وبشجاعة أكثر مما لدى امرأة، وبحميّة وجسارةٍ أكثر مما لدى مسيحيةٍ عادةً. وإذ جرّدت نفسها من كلّ أغراض زينتها، التي كانت كثيرة وباهظة الثمن، تخلّصت من عقودها، وأساورها والأغراض الأخرى المبتكَرة بغباء لزينة جنسها، وحصلت في المقابل على رؤية بولس.

ودفعها حماس الرحمة إلى إعداد محاولات جريئة وتنفيذها، فقد خرجت من منزلها، مرتجفةً، خافقة القلب ومتبدّلة لون الوجه، راشيةً عبداً كان معهوداً إليه بحراسة الباب، وواهبةً إياه أساور للحصول منه على الامتثال لإرادتها؛ وحاولت مغامرةً جسورة وغير عادية من صبيّة، فقصدت السجن، مستفيدةً لهذه الزيارة الخفيّة من الحسنات التي كان يقدّمها لها الوقت، لأن الليل كان حالكاً، دامساً ومانحاً الكثير من الأمان للصوص والهاربين.

١٣. موعظة الزنزانة

وإذ أغرت كذلك، بهديّة وافية، حارس السجن، ودفعت إلى فتح الأبواب من دون أن تشكّل عوائق لها، دخلت وهرعت نحو بولس، وكلّ الذين كانوا حاضرين استولى عليهم الفزع وامتلأوا انذهالاً؛ وذُعِر بولس نفسه وهو يرى أنها فعلت ما لم تجرؤ عليه صبيّة أبداً، لكن الإيمان الذي كان بيسوع المسيح عضده، ومنادياً تقلا، أجلسها إلى جواره، وحدّثها في الأمور الإلهية والسماوية التي كانت في حاجة إليها؛ وكان خطابه بحيث علّقها بيسوع المسيح، وجعلها تتّخذه عريساً لها؛ وكان، على ما اعتقد، في العبارات التالية:

«بسببك، أيتها العذراء، أنا مقيَّد بالسلاسل، كما ترين، وقد اتهمني خطيبك تاميريس. كنت حزيناً لذلك، ليس بالتأكيد لأنني اعتُقِلت في السجن (وأستبعد فكرة أن أفقد ذكرى ما تألّمت وما عليّ أن أتألّم من أجل يسوع المسيح!)، بل لأنني كنت أخشى كثيراً أن أفقد فائدة علاقاتي، وأن أُرغَم على مغادرة هذه المدينة من دون نتيجة أو منفعة، ومن دون أن أكون قد تمكّنت من كسب أحد ليسوع المسيح؛ إنما ها إنني رأيتك، آتيةً لا أدري من أين، فأنقذتني من كلّ تلك الخشية. إنني أرى الآن حصاداً يظهر ويكافئني لما سبق أن عانيت بسببك وسوف أُعانيه ربما بعد؛ أنت التي أعتبرها هذا الحصاد الذي يُنبيء بسنابل ناضجة ووفيرة من الورع والإيمان.

١٤. الغلبة على الشيطان

«إن شرارة كلماتي الضعيفة والباهتة في البدء ألهبتك إلى حد أنك، محتقرةً أُمك، ثرواتك، عائلتك، وطنك، وخطيبك، المشهور بأكثر

من صفة، أمسكت بالصليب، متأهِّبةً لاجتياز درب الإنجيل؛ أي فرحٍ لم تنثريه في السماء على القوات السماوية ويسوع المسيح نفسه! كم يجب أن يكون حنق الشيطان، الذي كان يعتبر نفسه، وملؤه الجرأة، المسيطر الشرس على الطبيعة البشرية، والذي يجد نفسه مُجابَهاً ومغلوباً على يد صبيّة بعمرٍ غضٍّ كعمرك! لم يبقَ لك سوى أمر واحد تفعلينه: لا تدعي، يا ابنتي، أي ذعر يُسقِطك؛ لا تجعلي أي خداع يوقعك في الخطأ؛ لا تسمحي لأي رغبة في الأمور الأرضية بأن تُضلِّك؛ لا تُتيحي للنار، للحديد، للوحوش المفترسة أن تحوّلك عن الإقرار ببسالة بيسوع المسيح. عليك أن تتصرّفي من الآن فصاعداً بشجاعة رجل وليس كامرأة؛ وبعد أن تكرّسي نفسك لملك السماوات، لا تعودي لترهبي أي طاغية؛ لا تخشي الشيطان وإنْ اكثر حولك التجارب، وإنْ أعلن عليك الحرب من أعلى السُّحُب، وإنْ تسلّح ضدك بكلّ أدوات الكفر، بكلّ سهامه، بكلّ شباكه. سوف يحاول ضدك عدداً لا متناهياً من الهجمات، وسيستخدم ضدك الكلمات، الأفعال، الوعود، الضربات، الملاطفات، النار، الوحوش المفترسة، القضاة، الشعب، الجلادين والعذابات. إنما إذا وجد لديك ثباتاً لا يتزعزع وقوة مستندة إلى يسوع المسيح، فسيهرب فوراً بعيداً عنك، ومُفلِتاً بسرعة أكبر من الكلمة، سيغادرك أسرع بَعْدُ من مغادرته أيوب، الذي اضطُرَّ إلى الاعتراف به منتصراً عليه، على رغم أنه هاجمه بألف طريقة.

١٥. صفات العدو

«تشجّعي، يا ابنتي، وعلى رغم أنني مسجون في زنزانة، سوف أصف لك هذا العدو، لتتعرّفي إليه بسهولة. إنه يبدو رهيباً للبشر، وهو بالفعل جريء، سفيه، جسور، ملؤه المكر، مُحِبٌّ الفتنة والحرب؛

غالباً ما يغيِّر شكله، وهو سريع جداً وماهر جداً في تحضير كلّ نوع من الخداع والغشّ؛ إنما، من جهة أخرى، هو خجول، عاجز، بلا قوة، وتهديد بسيط يكفي لطرده. إذا لاحظ رجلاً مُهمِلاً، مائعاً، متعلِّقاً بالحياة أكثر منه بالله، عندها يهاجم بعنف، ولا يوجد أي نوع خداع لا يُعِدُّه ضده؛ إنه يهاجم إما بالشهوات، وإما بالعذابات، ويقوم بكلّ شيء لينتزع ذلك المسكين من الأمل والإيمان، ولإلقائه في الهاوية، التي هي مقامه المناسب. لكنه إذا عاين رجلاً حازماً، موهوباً مقدرةً حقيقية، غارقاً في أفكار سامية ومزوّداً بأسلحة الإيمان، يستخدم في البدء التملُّقات والملاطفات، ويستعمل المكر، متظاهراً بالورع؛ ويُغريه شيئاً فشيئاً من دون صخب، ومُضِلاً إياه بفِتَنه، ساعياً إلى إهلاكه بملذات الحياة، وإلى إسقاطه من وضعه، لانتزاعه من الورع بعد حرمانه شجاعته. وإذا رأى أن خصمه لا يستسلم في شيء ولا يرضخ إطلاقاً، ويقاوم ببسالة وحزم، يهاجمه بأسلحة أكثر فأكثر قوةً، يسعى إلى إخافته بظهورات أشباحٍ وأجسامٍ رهيبة، يستلُّ السيف، يُشعِل النار، يُثير القضاة، يحرِّضُ الشعب، يسلّح الجلادين، يهيج الحيوانات المفترسة. وإذا قاوم جندي يسوع المسيح الوفيّ كلّ هذه التجارب، وإذا أظهر أنه مستعد لاحتمال الموت، يهرب ويُقِرّ بهزيمته. وشهيد يسوع المسيح هو المنتصر عليه، وهو بالنسبة إليه موضوع ذعرٍ واضح.

١٦. "سيري إلى الفوز"

«ضد عدو كهذا عليك القتال، يا ابنتي. إنما، كما قلت لك، لديك ملكاً، مدافعاً وعريساً، يسوع المسيح؛ إن قرارك يستحق كلّ ثناء؛ سيري إلى الفوز، إنتصري واملكي. فسوف تملكين، أعلم ذلك جيداً،

على رغم كلّ المكائد التي ستقف ضدك. وسوف تتغلّبين على كلّ الأمور على عدو الجنس البشري؛ سوف تنتصرين عليه ليس فقط بك، بل أيضاً بآخرين كثر، لأنك ستعلّمين عدداً كبيراً من البشر، وسوف يقودك عريسك على مثال بطرس، يوحنا، وكلّ الذين هم رسل من بيننا، ولدي اليقين بأنك يجب أن تكوني في عدادهم.»

١٧. إكتشاف اختفاء تقلا

وإذ قال بولس في سجنه هذه الأمور وأخرى مماثلة، وعلّم هكذا تقلا، التي كانت تستمع إلى تعاليمه بطيبة خاطر، إذا بتاميريس يأتي مجدداً ليهاجم بولس بعنفٍ أكبر بَعْدُ من المرة الأولى، لأنه شعر بحنق جديد ضد الرسول، بسبب فرار تقلا. وإذ أقبل النهار وبدأت أشعّة الشمس تلمع، كانت خادمات تقلا، اللواتي اعتدن النوم أمام غرفتها، ينتظرن كالعادة، أن تنهض سيِّدتهن، وتطلب منهن ما تحتاج إليه، كما تفعل السيِّدات عادةً حيال خادماتهن، وكن مستعدات لتنفيذ أوامرها سريعاً. ولم تنادي تقلا، وقد علت الشمس فوق الأفق، ولم تُعطي أي أمر وكانت الخادمات يتساءلن في ما بينهن: «ماذا يعني ذلك؟ ألا تزال سيِّدتنا نائمة، أم أن أمراً ما مؤسفاً حدث لها؟ أهي مريضة، أم أن الموت استولى عليها فجأة؟»

كان الوقت يمرّ، ولما لم يكن ذلك التأخير يُنبىء بشيء سار، دخلن الغرفة كلّهن معاً، وإذ لم يجدن العذراء، أخذن يُطلِقن صيحات عظيمة؛ ووقعت تيوكلية على الفور، وقد علمت سبب تلك الضوضاء، مسلوبة الشعور والصوت؛ وامتلأت المدينة فوراً اضطراباً وصراخاً؛ وكان السكان كلّهم يركضون من هنا وهناك، مستعلِمين عما آلت إليه تقلا، وباحثين عنها، فقد اعتُبِر اختفاؤها كارثة عامة.

١٨. وصول تاميريس

وفيما كان ذلك يحدث، كانت تقلا جالسةً عند قدمَي بولس، وتتمتّع بعقيدته الإلهية بذهنٍ حازمٍ وجريء. وأثناء ذلك وصل تاميريس فجأةً، وقد علم بواسطة أحد العبيد أن تقلا كانت قرب بولس. واندفع ملؤه غضبٌ يصل إلى الجنون، لأنه كان يعتبر العذراء فاقدةً العقل، بسبب سحر بولس، ومخطوفة على يده مثل فريسة.

كانت قد هربت وكانت جالسةً عند قدمَي بولس، كما موثقة إليه، مما كان يثير بين الحضور شكوكاً إلا أنها مجرّدة من كلّ أساس. لكن شهود تلك الأمور لم يكونوا يعرفون بولس ولا تقلا، وكانوا يجهلون الأسباب التي كانت تجعل العذراء تجلس هكذا عند قدمَي بولس؛ وكان يحدِّثها في شؤون يمكن للجهلة والعقول المنحازة اعتبارها محالاً ونجسة.

وإذ رأى تقلا هكذا وحيدةً مع بولس، أخذ تاميريس يرتجف مثل رجل أصابه دوار، وأصبح على وشك فقدان الرشد وحتى الحياة، بسبب شدة ألمه. وعندما يستولي حنق الحبّ والغيرة على قلبٍ، يقود إلى غضبٍ يظهر بلا مواربة وإلى هذيان حقيقي.

١٩. القبض على بولس

وقابضاً على بولس بواسطة عبيده والجنود المرافقين له، ساقه إلى مقرّ القضاء، غير مُهمِلٍ شيئاً ضده مما يمكن للغضب أن يشير به أو للغيرة أن تنصح به. وكان سيستيلّيوس (كان ذلك اسم الحاكم) مهيّأً للعفو عن بولس، لأنه تأثر بكلامه، وأصابه الورع الذي كان يسود في ما كان يقوله الرسول، لكنه كان يخشى تاميريس والذين يدعمونه

بصيحاتهم، ويطلبون أقصى العقوبات في حقّ بولس، متّهمينه بحرف عذراء من مقامٍ كريمٍ عن كلّ واجباتها، وبإقناعها بالانخراط بأعمالٍ مُخجِلة جداً ومملوءة عاراً، وقد كفّت عن أن يكون لها أي اهتمامٍ بالشرف.

كان سيستيلّيوس يريد إذاً الحكم على بولس بجَلْدٍ خفيفٍ وبطردٍ من المدينة، ظاناً هكذا بأن ليس عليه أن يعاقبه في شكلٍ أقسى. واقتيدت تقلا إلى حضرته، تتبعها أُمها، التي كانت تطلب بصيحاتٍ عظيمةٍ أن يُعاقَب بولس في شكلٍ قاسٍ جداً بسبب الجريمة التي ارتكبها. واستولى على الحضور كلّهم الإعجاب لمرأى العذراء التي كان جمالها خارقاً؛ وتأثّر القاضي رأفةً، وأخذ يذرف دموعاً.

٢٠. كلام الحاكم

وكانت تقلا لابثةً حازمةً وجريئة، أبيّة المظهر ووقورته، وغير متأثّرةٍ إطلاقاً بما كان يجري. وكلّمها الحاكم بهذه العبارات: «أعتقد، أيتها العذراء، بأنك لا ينقصك أيٌّ من مواهب الطبيعة، أيٌّ من حليّ النفس والجسد؛ أنت موهوبةٌ المزايا الأثمن، وكلٌّ من الذين يرَونك، كما أنا أولاً، يستطيع الاقتناع بذلك بسهولة. لا يمكنني أن أقول ما هي الأسباب التي تدفعك إلى الامتناع عن الزواج، وهو أمرٌ جميلٌ، شريفٌ ويتفق البشر والآلهة بالإجماع على امتداحه. هو الذي يعمّر الأرض بالبشر وبكلّ الكائنات الحيّة الأخرى؛ هو الذي يملأ الفضاء بالطيور، والبحر بالمخلوقات التي عيّنت لها الطبيعة مسكناً. هو الذي يجعل أحياء يحلّون محلّ الذين قضى عليهم الموت، بحيث يبقى جنسنا خالداً، فتخلف أجيال جديدة تلك التي توارت.

«إن انحرافات الفجور يدفعها زواج شرعي، وهكذا تُصان الروابط العائلية وتنتقل الأموال بالإرث إلى الذين يجب أن تعود إليهم. لِمَ إذاً تهربين من الزواج؟ إن والدك اختار رفيقةً كرّمها، وحصل على ابنةٍ ذات جمالٍ فائق؛ إن الزواج ما قاد كلاً منا إلى الحياة. إن خطيبك، تاميريس، جميل ونبيل؛ وليس من المعيب أن يضمك القران إليه. إنه من عائلة مشهورة؛ ثرواته ضخمة، وما من أحد يملك في المدينة نفوذاً أكثر منه. أنت ترين ما هو حبّه لك، وكم يفضّلك على كلّ الأمور، وأن ليس له من أمل آخر سوى أن يتزوّجك؛ لا تُضِرّي به وبنفسك، برفضك زواجاً سعيداً، يمنحك ذريّةً، زينةً لوطنك وعائلتك، وتخلّد، بعد موتك، بهاءَ اسمك. وإذا كان هذا العجوز قد ألقى عليك خطباً، فاحتقريها باعتبارها خرافاتٍ وحماقات، ولا تشاطريه شذوذه؛ لا يحق لعمرك الحكم على عقائد كهذه، ثابري بالأحرى على الحياكة وأشغال الإبرة، فهي الواجبات التي فرضتها الطبيعة على النساء. أنصِتي إليّ؛ أَقلِعي عن دَجَلٍ عابثٍ: اتخذي قراراً أحكم؛ تزوّجي تاميريس؛ كوني لنا جميعاً مبعث ابتهاج، فرحٍ، مرحٍ صاخب. أريد أنا بنفسي أن أقود الرقص في عرسك؛ سوف أقدِّم، لكِ ولزوجك، إكليلَين يليقان بكلّ الأماني، وأرغب بشدة في أن أتمكّن كذلك من المشاركة في الاحتفالات التي ستواكب زواج أولادكما.»

٢١. لبثت ساكتة

كان الحاكم يجهد هكذا، بكلماتٍ ناعمةٍ وعذبةٍ، ليحوّل تقلا عن المشروع الذي وضعته؛ لكنها لم تُجِبْ بكلمة واحدة، مرتئيةً أن من غير اللائق بشرف امرأةٍ وأدب عذراء أن تُسمع صوتها علانيةً، وأن تتحدّث في المسرح في حضور الشعب الذي تجمّع هناك. وبالفعل، لا

يناسب النساء شيء أفضل من الصمت والسكينة. ولبثت ساكتةً كحملٍ أمام الذي يجزّه، غير آتيةٍ بأي جواب، ولم تكن تهتم بما كانت تستطيع أن تجيب، لكنها كانت تقف فكرها على العذابات التي ستُدعى إلى تحمّلها من أجل يسوع المسيح، مُبديةً صبرها وجَلَداً هادئاً وسط المضايقات والآلام.

٢٢. تدخُّل الأُم

وإذ رأى سيستيلّيوس أنّ تقلا كانت مصمِّمة على التزام الصمت، احتار جداً في ما عليه القيام به، وكان الشعب مُعجَباً بصلابة الصبيّة، وفجأةً صاحت تيوكلية، مضطربةً للغاية: «ماذا تنتظر، أيها القاضي؟ لِمَ تُرجىء معاقبة عدوة القوانين والزواج هذه؟ لتهلك تلك التي تعيش حياة امرأةٍ عديمة الأخلاق وعبدةٍ بائسة، رافضةً زواجاً شرعياً؛ تلك التي ترفض زوجاً ينصح به كلّ شيء، وتتعلّق بمتشرّد غريب ودجّال؛ تلك التي هي مبعث عارٍ لوطنها، لعائلتها، لجنسها ولي أنا خصوصاً، التي ولدتُها لقاء أوجاعٍ كثيرة.»

٢٣. المحرقة ويسوع

وإذ أوضحت تيوكلية فكرتها على هذا النحو بكثيرٍ من الحدّة، تأثّر الحاكم؛ وكان يخشى تاميريس الذي كان نافذاً جداً، وحانقاً من انتزاع خطيبةٍ ذات جمال بهذا الكمال منه؛ وكان ينظر أيضاً بحذرٍ إلى مبادىء المسيحيين، فحكم على تقلا بأن تُحرَق. وهو ما حدث لتظهر قدرة يسوع المسيح، وليُشعّ بألَقٍ فضل الشهيدة، ولئلا يبقى عمل بولس عقيماً. وتلقّت العذراء الأمر بالصعود إلى تلك المحرقة المشتعلة، وقد جيء بالحطب من كلّ صوب، وارتفع اللهب حتى السماء.

وكانت تنظر إلى النار بفرح ورضى، مستعدّةً للقيام بذلك بطيبة خاطر، بوجهٍ خالٍ من الاضطراب ومليء حبوراً، فإذا بيسوع المسيح يظهر لها في هيئة بولس، مقوّياً شجاعتها، مُنعِشاً تصبُّرها، فابتسمت تقلا، معتقدةً بأنه بولس مَنْ تراه، وقالت في سرِّها: «ها إن بولس يراقبني وينظر إليّ، خوفاً من عدم إشهاري بإقدامٍ إيماني بيسوع المسيح، فاقدةً الشجاعة، والخوف مستولٍ عليّ. لكن، ياعزيزي بولس، أُقسِم، بالربّ الذي عرّفتني إليه، بأنني لن أخون قضية الدين ولن أكون لعقيدتك مبعث عار. قِفْ قربي، يا معلّمي، وتضرّعْ إلى يسوع المسيح، ليُنعِش اضطرام هذه النار بعَصفِ روحه، ويسند بمعونته ضعف طبيعتي.»

٢٤. سرير النار

وتقوّت بإشارة الصليب، وقد قالت هذه الكلمات، أو بالأحرى اتخذت بنفسها شكل الصليب، شابكةً ذراعَيها فوق صدرها، ووثبت إلى المحرقة، مستسلمةً لألسنة النار ببسالةٍ وتصميمٍ يوازيان ما يمكن أن يبذله رجل يعرِّض نفسه لخيوط أشعة شمسٍ حادة. وقامت النار مقامَ سرير للعذراء، ناسيةً طبيعتها، ومستسلمةً لقدرة الصليب، منطويةً حولها لإخفائها عن الأنظار الفاحشة. وكما أسكن الله ألسنة النار بالنسبة إلى الأطفال الثلاثة الذين أُلقوا في الأتون في بابل، كذلك وقى العذراء منها. وأظهرت الأرض نفسها استياءها من الظلم المُرتكَب في حق تقلا، مُسمِعَةً صوتاً عظيماً. وهطل من السماء مطر غزير من دون أن تبدو أي غيمةٍ. وكان الله يريد الأمر هكذا ليُعين الشهيدة ويُكرِمها. وبعد ذلك سحق بَرَدٌ هائلٌ، ساقطٌ مع ذلك المطر، عدداً كبيراً من سكان إيقونيوم، معاقباً إياهم على جسارتهم حيال تقلا ومُنقذِاً إياها من النار.

٢٥. العودة إلى بولس

وفيما كانت تحدث هذه الأمور، انزوى بولس خارج المدينة، في قبر، مع أونيسيفورس، وقد أصاب الخوف والذهول سكان المدينة كلّهم، وتاب الذين هاجوا ضد تقلا مكفِّرين وهم يبكون بمرارة؛ ولبث صائماً وساجداً على البلاط، قلقاً مما سيحدث، متضرّعاً إلى يسوع المسيح لصالح العذراء. وبما أنهما لم يكونا مزوّدَين بطعامٍ ولا بشراب، لأن هربهما كان سريعاً للغاية ليتمكّنا من حمل أي مؤونة، طلب أولاد أُونيسيفورس من بولس، يعذّبهم الجوع، الإذن بالعودة إلى المدينة للتزوُّد بما هو ضروري لهم. وإذ حصلوا على الإذن وأخذوا قليلاً من المال، مضَوا. ومن جهتها، كانت تقلا وقد أُنقِذت من النار، وكانت قلقةً جداً في شأن بولس، تجوب المدينة، فصادفت أُولاد أُونيسيفورس، الذين تعرّفوا إليها وقادوها إلى بولس؛ ووجدته ساجداً وسائلاً الله، وهو يذرف دموعاً، ما سبق أن تمّ.

وصاحت الشهيدة على الفور: «يا الله، ملك الأشياء كلّها وخالقها، أبا ابنك الوحيد، المعبود، أشكرك لأنني وُقِيت من عنف النار، ورأيت ثانيةً بولس، معلّمي ومرشدي؛ هو الذي بشّرني بقدرة سلطانك، وعظمة قدرتك، وثبات أُلوهتك في الثالوث، والوجود الوحيد والمتساوي لقدرته ومساواته؛ لقد علّمني سرّ تجسُّد ابنك الوحيد وفعالية الروح القدس؛ وملّكني موهبة الإيمان الخلاصية والصادقة، درب معرفة الله الحقيقية، وعربون مكافأة السعادة الآتية.»

٢٦. إرتفع عن الأرض

وإذ سمع بولس صوت العذراء ارتفع عن الأرض كما بفعلِ آليةٍ وقال، متأثِّراً تماماً حبوراً ودهشةً: «يا ربّ، من الصعب جداً تقديم

آياتِ شكرٍ لائقةٍ لك على الخيرات التي تمنحنا إياها. فأي تعابير يمكنها أن تبادل رأفتك، عذوبتك، قدرتك، حكمتك؟ مَنْ يمكنه أن يقول بأي طريقةٍ تحمي كلّ الأشياء التي خلقتها وتديرها. باسطاً عنايتك فوق كلّ ما يهمُّنا؟ إنني أحمدك، مقدار ما تسمح به المواهب البشرية، لأنك وقَيت خادمتك تقلا في شكلٍ رائع جداً وغير مؤمَّلٍ جداً؛ ولم تشأ أن يبقى تعبي وآلامي محرومةً من الثمر. إن الأحزان، والقيود، والضربات التي كان عليّ احتمالها تقودها إلى جوارك تلميذةً، شهيدةً، مبشِّرةً مقبلةً بالإنجيل. بتأثيرٍ من إرادتك العطوفة ازهرت سنبلة العذرية هذه، وسوف تُنتج عدداً لا متناهياً من عذارى أُخريات. إن هذه الحبّة الشريفة جداً والممتازة جداً هي خصبة فعلاً، وهي تليق بمخزنك.»

٢٧. رفيقة بولس

وامتلأ أُونيسيفورس، وعبيده وتقلا فرحاً، وقد تكلّم بولس على هذا النحو، واستسلموا جميعاً لحبورٍ روحيٍّ كامل. وتناولوا بعد ذلك الطعام الذي كان ضرورياً لهم، وخاطبت تقلا بولس بهذه العبارات:

«لقد وُقِيت بوساطتك، وأُهِّلت لاقتبال الإيمان والعيش ليسوع المسيح، لكنني لا أعتبر آمناً الانفصال عنك وسكني هذه المدينة حيث يسود كفرٌ ووقاحةٌ كنتَ الشاهد عليهما. لذا أنا مصمِّمة على مرافقتك، وقد قصصت شعري، وبتنكرٍ يُخفي، أظن، ما يمكن أن يوجد من جمالٍ فيّ، ويخدع مَنْ يريدون ترصُّدنا. ـ أريد ذلك، أجاب بولس، لكنني أخشى الزمن الذي نعيش فيه، وأخشاك خصوصاً، لأن زمننا مليء فجوراً، وأنت، جميلة جداً وفي عمرٍ طريٍّ جداً. سوف يكون علينا احتمال حربٍ رهيبة، ولا سيما أن في إمكانك الندم على

ما باشرت به، بسبب ضعف جنسك الطبيعي، والأسف لعزوفك عن نمط الحياة الذي ينفتح أمامك. ـ لا تَخَفْ، ردّت تقلا، أن يحدث أمرٌ كهذا. إن الله، الذي أعانني فوق المحرقة، سوف يمنحني أيضاً مساعدته في أخطار أخرى؛ وإذا نصب لنا الشيطان مكائد أكثر فأكثر، فسوف تزوّدني، يا معلّمي، لمقاومته، بالوسائل التي يضعها يسوع المسيح في تصرُّفنا؛ لن أخشى شيئاً، مجهَّزةً بأسلحةٍ كهذه، ولن أخاف شيئاً، وسأتفوّق على كلّ تجربة وكلّ هجوم من جانب العدو. أَعطِني فقط، أسألك ذلك، علامة يسوع المسيح. ـ ليتمّ ما هو مقرّر في شأنك، أجاب بولس؛ سوف تكونين رفيقة سفري، وبعد أن تنتظري قليلاً من الوقت، سوف تنالين نعمة العماد المقدّس، التي هي، للذين يؤمنون بيسوع المسيح ويضعون فيه ثقتهم، معين لا ينضب من الخلاص والثبات، وسند حصين كذلك.»

٢٨. إسكندر الفاجر

وانطلق بولس، وقد تكلّم هكذا وصرف إلى المدينة أُونيسيفورس وعبيده، وإذ غادر إيقونيوم، ترافقه تقلا، وصل إلى أَنطاكية، وهي مدينة جميلة جداً وعاصمة سوريا؛ وحدث إذاك ما توقّعه الرسول، فما كادا يصلان إلى أبواب المدينة حتى بدا جمال تقلا لعيون الذين التقوهما وفعل فيهم كالصاعقة؛ وإذ رآهما المدعو إسكندر استولى عليه شغفٌ عنيفٌ إلى حد أنه غيرُ قادرٍ على كبحه، ولا حبسه لحظةً، انقضّ على العذراء، مثل كلب كَلِبٍ أو رجلٍ يعذّبه شيطان. وكان إسكندر هذا سوريّ الجنسية، نبيلاً وثرياً، وكان يتمتّع في أَنطاكية بنفوذٍ مُطلَقٍ، غير ممتنع عن شيء مما يمكن أن يساعد في ملذّاته ويُشبِعها. وشعب أنطاكية متلوّن ومتغيّر، صديق كبير للذّات، والعروض وكلّ ما يمكن أن يُغري العيون، مولع جداً بالمجد الباطل.

وإذ ألقى إسكندر على تقلا نظرات اشتهاء، خاطب بولس، الذي كان يعتبره معلّم هذه العذراء، ووجّه إليه التماسات حادّة وقدّم له وعوداً كبرى، غير مُحتملٍ أي نظرة، وغير مراعٍ أي لياقة. وأراد اغتصاب الصبيّة وقد خاب انتظاره، لأن بولس كان يُنكِر امتلاك أي نفوذ على تقلا، وأمسكها بحنقٍ، لكنها أخذت تصيح: «يا للجريمة، يا للطغيان الجامح، يا للمجون المُخزي والمتجاهل كلّ حياء! لقد لجأت إلى هذه المدينة، كما إلى مرفأ وباعتبارها مقرّ الاعتدال، فوجدت فيها شهوات فالتة. وعلى رغم أنني غريبة ومجهولة، لست بلا وطن أو من أصلٍ وضيع. أنا من إيقونيوم، عائلتي مشهورة، وثروتي هائلة؛ وقد نُفيت من مدينة مولدي عازفةً عن الزواج وعن خطيبي تاميريس، حبّاً بالعذرية والتعفُّف، لأخدم يسوع المسيح من دون أي عائق. لست، كما تعتقد، متشرِّدةً مستسلمةً لعلاقاتٍ فاجرةٍ تناسبك، متاجرةً بجمالي ومكرِّسةً نفسي للفسق؛ هذا خطأ، ولن أرتكب أبداً إهانةً مماثلة لله، حاميّ؛ لن أنسى أبداً الوعود التي قطعتها له، والعهود التي أبرمتها معه بوساطة بولس. لا تغتصِبْ إذاً غريبةً، خادمة الله.»

٢٩. العذراء تنتصر

وعلى رغم الصيحات، والتوسُّلات ومقاومة الشهيدة، كان إسكندر يجهد لاستعمال العنف معها؛ عندها هاجمته العذراء بدورها، مُظهِرةً تصميماً يفوق تصميم امرأة؛ فمزّقت دثاره، وثيابه الرائعة والفاخرة؛ وانتزعت الإكليل الذهبيّ البديع الصنع الذي كان على رأسه؛ وجعلت منه شعار غَلَبَة في نظر الجميع. وتحتفظ الكنيسة المكرّسة للعذراء في ذلك المكان نفسه بصورته وتُعلِن ذلك الانتصار، وكلّ انسانٍ يدنو منها يتذكّر فوراً ما حدث ويفكّر بتقلا الغالبة وبإسكندر المغلوب.

٣٠. تقلا عند تريفينة

كان إسكندر مستسلماً لشهوتَين متناقضتَين، الحب والكراهية، ثائراً للإهانة التي لحقت به وخائباً في أمله، ولبث متردِّداً، تجذبه تارةً واحدةٌ، وتارةً الأخرى. وأخيراً، مسرعاً نحو المحكمة، طلب مقاضاة تقلا، غاضباً أكثر لرؤية مشاريعه الفاحشة مُحبَطة منه ثائراً لتغلُّبِ امرأةٍ عليه. كانت صلابة العذراء التي لا تُقهَر وشجاعتها تزيدان كراهية العدو الذي تصدّت له وعاملته في شكلٍ مهين. وكانت تقلا، التي اقتيدت لمقاضاتها، تغتبط، وقد رأت في ما عليها أن تتألّمه نصراً جديداً واستمراراً لمعارك شهادتها. وخائفةً أن يأتي إسكندر ويعتدي على عِفّتها حين تصبح في السجن وبلا مساعدة، طلبت فقط من القاضي، لا أن يُعفى عنها من جهة العذابات التي يمكن أن تُفرَض عليها، بل فقط أن تُحفَظ عِفّتها نقية وبلا عيب. كانت تحتقر الخطر كلّياً، إنما كان لديها الاهتمام الأكثر حدّةً بالمحافظة على عذريتها.

وحدث بفعلٍ من العناية الإلهية أن من بين النسوة اللواتي كُنّ حاضرات (لأن الصيت الذي التصق باسم تقلا جذب عدداً كبيراً منهن)، وُجِدت واحدة، تُدعى تريفينة، مشهورة بقرابتها من السلالة الملكية، تملك ثرواتٍ عظيمةً ومثابرة بأكبر غيرةٍ على الفضيلة واستقامة الأخلاق؛ طلبت ونالت تسليمها تقلا. كانت تتصرّف هكذا، في جزءٍ شفقةً على العذراء التي كانت تراها تُعامَل بطريقةٍ استبدادية جداً وظالمة جداً بسبب عفّتها، وفي جزءٍ لأنها كانت تعتمد على أن تجد فيها رفيقةً تعوِّضها فقدان ابنتها، المدعوة فالكونيلا والمتوفاة حديثاً.

٣١. خضوع اللبوءة

وفي الغد، حُكِم على تقلا، بطلبٍ من إسكندر، بأن تُلقى للوحوش، ولم تستطع تريفينة أن تمنع تنفيذ هذا العقاب على التي كانت تريد الدفاع عنها. وطرأ إذاك أمرٌ يستحق الإعجاب وينبغي أن تُرى فيه أُعجوبة باهرة. فقد فقدت لبوءة من الأشرس، هائجةً ضد تقلا، وحشيةَ جنسها، وكما لو انها رضعت تماماً مع العذراء، جلست عند قدمَيها، مداعبةً إياها بذيلها ومقدِّمةً دلائل الخضوع والتعلُّق المألوفة لدى كلب.

وأُصيبت المدينة بأسرها بالذهول، ولم يكن الحاضرون يستطيعون، بسبب دهشتهم، التلفُّظ بكلمة واحدة. ولم تتأخّر النسوة عن كسر الصمت ورفع الصوت ضد المعاملة التي كانت تُخضَع لها تقلا، ليس لأنهن كُنّ يعتبرنها شهيدةً، بل لأنهن كُنّ يملكن حيالها مشاعر الشفقة والتعاطف الواجبة لشخصٍ من جنسهن يُعاقَب، ضد كلّ عدالة، لأنه أراد المحافظة على عفّته. وإذ توقّفت صيحات النسوة ولم تقم الوحوش المفترسة بأي إذية للعذراء، أعادت تريفينة تقلا إلى منزلها، متأثّرةً كلّياً بأُعجوبة كهذه.

٣٢. رحمةً بالإبنة

وكانت تريفينة على وشك الاستسلام للنوم، وقد حلّ المساء، حين ظهرت لها فالكونيلا وخاطبت أُمها بهذه العبارات: «كُفّي عن هذا الحداد الشديد الذي تستسلمين له بسببي، لا تذرفي دموعاً عديمة الجدوى ولا تمزّقي نفسك مسترسلةً هكذا في الألم؛ على هذا أحضُّكِ، يا أُمي. إن حزنك لن يُعزّيني في شيء وسوف يُهلكك. انما صلّي

لتسكن تقلا معك؛ إنها تقوم لكِ مقام ابنةٍ مكاني، وسوف تتضرّع إلى الله لأتمكّن من الحصول على رحمته والنجاة من مثوى القوم الظالمين.»

وبدت فالكونيلا تطير، وقد تكلّمت هكذا؛ وعلى الفور غادرت تريفينة سريرها، ملؤها الفرح وذارفةً دموعاً في الوقت نفسه (تبعاً لتفكيرها بالفتاة التي فقدتها أو لما كُشِفَ لها في شأن تقلا)؛ ونادت العذراء، التي كانت ترقد في غرفتها نفسها وقالت لها: «يا ابنتي، أيتها الطفلة العزيزة التي وهبني إياها الله، الربّ مَنْ قادك إلى هنا ليُلقيك في ذراعَيّ، من أجل أن تعزّيني في كلّ مصائبي وتصالحي مع يسوع المسيح نفسَ ابنتي فالكونيلا؛ وما أعوزها من جهة الإيمان، تعوِّضينه بتوسُّطك؛ إذهبي وصلّي إلى الملك يسوع المسيح أن يمنح ابنتي، إكراماً لك، الراحة والحياة الأبدية. هذا ما تؤكّده فالكونيلا نفسها التي ظهرت لي هذه الليلة.»

ورفعت العذراء، الحاضِرة دائماً للتوسّل إلى الربّ، نحو السماء يدَيها المقدَّستَين والطاهرتَين وتلفَّظت بالصلاة التالية، وقد تكلّمت تريفينة على هذا النحو: «يا يسوع المسيح، ملك السماء، وكلّ ما في السماوات وما وراء السماوات، ابن الأب الأسمى والكلّي القدرة، الذي منحتني نعمة الإيمان بك، الذي أضاء من أجلي مشعل الحق ورأى أنني أهلٌ للتألُّم من أجلك، إمنَحْ خادمتك تريفينة إتمام الأماني التي تعقدها من أجل ابنتها؛ إجعَلْ نفسها مُدْرَجةً في عداد أنفُس الذين سبق أن آمنوا بك، ولتتمتَّع بملذّات النعيم. يا ربّ، رُدّ إلى تريفينة كلّ الخير الذي صنعته لي. تعلم أنها كانت حارسة عذريتي؛ هي، بعد بولس، التي أعانتني، وانتزعتني من هيجان إسكندر المجنون، ودفّأتني إلى صدرها بعد تعذيب الملعب الشعبي؛ وعلى رغم أنها ملكة، نزلت

نحوي بعطفٍ، مرتديةً محبّتك ومخافتك. ومقابل كلّ هذه الحسنات، تطلب، وترغب في أن تنال ابنتها الوحيدة والعزيزة بعض راحة.»

وإذ تلفّظت تقلا بصلواتٍ كهذه، استسلمت تريفينة لألمٍ إلى حد أنها لم تعانيه أبداً منذ فقدان ابنتها، لأنها كانت ترثي لمصيرِ تقلا، هي الموهوبة جمالاً عظيماً جداً وكلّ ميزات العقل، والتي عليها أن تهلك في شكلٍ وحشيٍّ جداً في عمرٍ لا يزال طريّاً.

٣٣. إلى المدَّرج مجدداً

وجاء إسكندر يطلب العذراء ليقودها إلى المدَّرج، المليء شعباً غفيراً كان يهيج ضوضاءً ويتذمّر من التأخير. «الحاكم، قال، جالسٌ والشعب عيل صبره؛ ينبغي أن تصارع الوحوش المفترسة.» وصاحت تريفينة، يُثقِلها الألم: «آهٍ كم أنا بائسة! كم من كوارث قاسية أكثر فأكثر تتتابع لإذلالي! أظل وحيدة ومحرومة من العون! متروكة للترمُّل، من دون أولاد، من دون عائلة، محاصَرة بأنواع القلق من كلّ صوب. إلا أن لديّ ملجأ وسط المصائب التي تحيط بي وتبدو غير تاركةٍ لي أي مخرج. سوف أتوجّه إلى الله وإلى مخلّص تقلا. يا ربّ، لقد بشّرتني بقدرتك، وفتحت لي الطريق الصحيحة والقويمة لتعاليمك وللورع؛ أَظهِرْ نفسك اليوم لخادمتك تقلا، أَعِنْها في أخطارها، أَثبِتْ بطريقة ساطعة أنك تضمنها بحمايتك.»

كانت تريفينة تتكلّم على هذا النحو حين وصل بغتةً جنود أرسلهم الحاكم بأمر اقتياد تقلا بالقوة. ولم تكن تريفينة، العاجزة عن مقاومتهم، تستطيع سوى الاستسلام للعنف، لكنها وقد أمسكت بيد العذراء، رافقتها، باكيةً إياها كما لو انها قد ماتت، مالئةً الفضاء بصيحات ألمها وقائلةً: «يا مكر الشياطين! كم من الكوارث ترميها

عليّ! لقد فقدت ابنتي التي كنت أُحب، وها إنني أرافق إلى الموت تلك التي كانت تقوم عندي مقام طفلتي. رأيت وضع فالكونيلا في القبر، وسأرى تقلا حيّةً تماماً تمزِّقها الوحوش، على رغم أنها لم تفعل شيئاً يستحق العقاب ولأنها أرادت صيانة عِفّتها والمحافظة على طهارة جسدها ونفسها. أيها الطغيان الفظيع! يا مدينة أنطاكية، كيف يمكنك احتمال جُرمٍ كهذا؟»

٣٤. ألم وصلاة

ولم تتمالك تقلا نفسها، متأثِّرةً بهذه الكلمات، من الإحساس بألمٍ حادٍّ، وخاطبت الله بهذه العبارات ذارفةً سيلاً من الدموع: «يا ربّ، يا إلهي وحاميّ، لقد وضعت فيك كلّ ثقتي؛ من أجلك تركت وطني؛ ونبذت أُمي، وامتنعت عن الزواج؛ ألقِ أنظارك عليّ وتأمّلْ ما يحاولون ضدي؛ إنتزعني من تلك الوحوش الرهيبة، وكما سبق أن صنتني من النار، كافىء المشقّات التي تكبّدتها خادمتك تريفينة من أجلي. أنت ترى أنها تكرِّس نفسها لك؛ إنها تحافظ على عذريتي، وتعرِّض نفسها من أجلي للإهانات والمعاملات السيئة. الفضل لحنوّها ومعونتها في فوزي بالحفاظ على طهارتي، في تغلُّبي على الهياج الذي كان يحرِّك إسكندر ضدي ووصولي إلى الصراع، وقد انقذتُ عذريتي العزيزة عليك، غير قلقةٍ من شراسة الوحوش، إنما واجدةً في السماء حامياً فيك، وعلى الأرض صديقةً في تريفينة. فلتمنَحْني عنايتك مرفأً يكون لي ملاذاً، وسط هذه الأمواج الهائجة.»

٣٥. إنقسام النسوة

وإذ أنهت العذراء تضرُّعها، سُمِعت ضوضاء عظيمة من بعيدٍ مردها إلى الصيحات التي كانت تُطلِقها الوحوش المفترسة، وصخب

الشعب وصراخ النسوة اللواتي كُنّ موجودات على المسرح الشعبي ويتجادلن في ما بينهن في شأن القرار الصادر ضد تقلا؛ واللواتي كان سوء السيرة مألوفاً لديهن كُنّ يغتبطن للإذية المُصَمَّمة ضد العذراء، فيما اللواتي كُنّ يحببن الطهارة واستقامة القلب كُنّ يستسلمن للأسى ويحزنّ كما لو ان مصاباً عاماً ضرب المدينة؛ وكُنّ ينبذن بقوة البربرية التي كانوا يُظهِرونها ضد عذراء بهذه الطهارة، وكان منهن مَنْ كُنّ مشفقاتٍ إلى حد أنهن كُنّ يُرِدن التمكّن من الموت مع تقلا.

٣٦. اللبوءة تحميها

وسط الترقُّب العام ، والنظرات المنجذبة نحو عرضٍ بهذه النّدرة، أُدخِلت تقلا، منتزَعةً بقوة من ذراعَي تريفينة ومجرَّدةً من ثيابها، لتشعر الأسود ضدها بهياجٍ أقوى بَعْدُ، لأن للأجساد الفائقة الجمال فرادة جَذْبِها نحوها في شكلٍ خاص نظرات الحيوانات المتوحشة وإثارة حنقها. إذاك أُفلِتت في وجهها ثانيةً لبوءة جعل مظهرها المسرح يمتلىء صياحاً ودموعاً؛ وانقضّت تلك اللبوءة في البدء بهياجٍ، إنما كلما كانت تقترب من العذراء، كان غضبها يهدأ، وحمتها من الوحوش الأخرى، راقدةً عند قدمَيها، من دون أن تصيبها بأي إذية. ومزّقت دبّة ثائرة كانت تريد مهاجمة تقلا؛ وصارعت بضراوة أسداً كان يريد الانقضاض على العذراء، وهلكا معاً. وتملّك المشاهدين ألم حادّ وهم يرَون نقل جثة اللبؤة، وكانوا يعتبرون صراعاتها مع الحيوانات الأخرى معجزةً أكبرَ بَعْدُ من اللطف الذي أبدته حيال تقلا.

٣٧. عماد الشهيد

وأَفلت الحاكم، غاضباً من أن تقلا حُمِيَت هكذا، عدداً كبيراً من الحيوانات عليها. وكانت العذراء تصلّي على هذه الصورة في قلبها، غير مهتمّةٍ بصيحاتها وهياجها: «إنني أُقدِّم لك شكراناً عظيماً، أيها الربّ يسوع المسيح، على ما أمرت به حيالي؛ لقد قدتني إلى نور الإيمان، بوساطة بولس، عندما كنت لا أزال في عزلة منزلي الأُمومي، مشغولةً بأعمالٍ نسائية ومُعَدَّةً للحصول على تاميريس زوجاً؛ أردت أن أتألّم من أجلك متاعبَ وعذاباتٍ؛ وأسلمتني هدفاً لأنظار الشعب، مع سهرك على خلاصي ومنحي فرصة إظهار إيماني بك؛ ورأيت أنني أهلٌ لأن أُعاني عذاباتٍ وآلاماً من أجلك. لكن الأخطار تزداد؛ وحنق أعدائي يكبر؛ أُعْضُدْ، يا ربّ، ضعف الطبيعة؛ لا تسمح بأن تَهِن عزيمتي في الصراعات التي عليّ اجتيازها؛ لا تقبَلْ بأن أخسر الإكليل الذي أتوق إليه وأُقصى عن ملكوتك؛ إمنَحْني عماد الشهيد؛ أَنقِذْني هكذا من تجارب المضطهدين وضَعْني في منأى من حنقهم.»

٣٨. بركة وعطور

وإذ تكلّمت على هذه الصورة، نظرت العذراء حولها ورأت بركةً مملوءةً ماءً كانت تسبح فيها فقمات وحيوانات بحرية عدوة للإنسان؛ فتوجّهت إلى يسوع المسيح وقالت: «يا ربّ، لقد تعمّدت باسمك في هذا اليوم الأخير»، ووثبت إلى ذلك الماء، تُحرِقها الرغبة في بَذْلِ نفسها مائتةً من أجل يسوع المسيح. وأطلق الشعب صيحاتٍ عظيمةً وهو يرى أمراً بهذا الرعب. لكن الربّ لم يتخلّ عن الشهيدة؛ فأحاط بها نورٌ سماويّ، حاجباً جسدها، وفقدت الحيوانات البحرية شراستها فوراً.

وكان إسكندر يلازم غضبه، لابثاً بلا خوفٍ ولا خجل، وكان يريد استقدام حيوانات مفترسة أخرى، معتقداً في غضبه الكافر بأنه يستطيع التغلُّب على الله، الذي لا يُقْهَر؛ لكن النسوة اللواتي كُنَّ في المسرح الشعبي، متأثِّراتٍ بشفقةٍ حيال تقلا، ومتصرِّفاتٍ بدافع إلهي، ألقَين كميةً كبيرةً من العطور والدهون التي أحدثت، وقد سقطت في النار، دخاناً جعل قسماً من الحيوانات يهرب وأغرقت الأخرى في نومٍ عميقٍ، بحيث بقيت تقلا وحيدة ومحرَّرة من الأعداء.

٣٩. إحتراق الثورين

إلا أن إسكندر لم تَهِنْ عزيمته وقال للحاكم: «لديّ ثوران متوحّشان وضاريان للغاية؛ وإذا أمرت بأن توثق هذه المرأة إلى جسدَيهما، فسرعان ما سوف نشهد نهاية عذابها.»

وأعطى الحاكم، وإنْ أسفاً، الأمر بذلك، ووجهه يُبدي الأسف الذي كان يعانيه. ومبتغياً أن يزيد من ضراوة الثورَين، ثبّت إسكندر إليهما مشاعل موقَدة؛ لكنه تخطّى هكذا الهدف الذي كان يقصده، لأن النار أهلكت الثورَين وأحرقت القيود التي كانت تربط تقلا، ولم تعاني أيّ ألم. ولم تنتظر تريفينة حتى ذلك الحين، يُضنيها الألم والقلق؛ فقد نُقِلت إلى خارج المسرح الشعبي فاقدةً الوعي.

٤٠. طلب طرد تقلا

وملأت هذه المعجزة الجديدة أهالي أَنطاكية ذهولاً وسبّبت للقاضي بفزعٍ هائل. وسقط إسكندر ووجهه إلى الأرض. مندهشاً ومذعوراً، ووجّهَ إلى الحاكم هذه الكلمات: «لقد غلبتني هذه المرأة ولا أدري إنْ هي مخلوق بشري، أم إلهة، أم جنِّيَة شريرة؛ عبثاً أردت أن أُفلت

عليها هياج الحيوانات الأشرس؛ فقد سيطرت على هياجها إما بسحرها، وإما بقوة فائقة الطبيعة. فلتُطرَدْ من مدينتنا، ولتذهَبْ إلى مكان آخر حاملةً بعيداً شهادات عقلها الجريء والمتكبّر. إن خوفاً مشروعاً اجتاح هذه المدينة؛ وتريفينة ربما على وشك الموت. فإذا ماتت، فسوف ينتقم قيصر، الذي هي قريبته، لها منا؛ عندها يُقضى عليّ، يُقضى على أنطاكية، وسوف تجد نفسك أيضاً عرضةً لأفدح المخاطر. صدِّقْني، لنتخلَّصْ من هذه الآفة ولنسهَرْ على أمننا.»

٤١. حماية الله

واستدعى الحاكم تقلا، متأثِّراً بهذا الخطاب ومبتهجاً لعدم اضطراره إلى إصدار حكم بهذا الظلم، وسألها مَنْ هي وبأي مهارةٍ أخضعت الحيوانات المفترسة. كان يظن، تبعاً لعادة البشر الذين يُنكِرون قدرة الله، بأنها كانت تستعين بالسحر، لتحقيق المعجزات التي فاعلُها الله. فأجابته تقلا بهذه العبارات:

«أنا، كما ترى، امرأةٌ بعمرٍ طريٍّ جداً، محرومةٌ من الأصدقاء؛ إنما لديّ لحمايتي والدفاع عني الله الكلّي القدرة وابنه الوحيد، الموجود مع أبيه قبل كلّ الدهور، والذي، وقد نزل على الأرض، أنبأت به البشارات وأعمال عدد كبير من التلاميذ وخصوصاً بولس، معلّمي. بمعونة يسوع المسيح الذي به اؤمن انتصرت على شهوات إسكندر الدنسة ونجوت من كلّ الحيوانات المفترسة الهائجة عليّ. أي شخص يكون قد وضع فيه ثقةً صادقةً، ينال منه منافع شبيهة بالتي حصلت عليها، وحتى أعظم. هو غاية الخلاص، أساس الحياة الأبدية، ملاذ الذين غلبتهم العاصفة، راحة الحزانى، سند الذين في اليأس؛ مَنْ لا يؤمن به مآله الموت الأبدي.»

وأمر الحاكم بإعطائها ملابس لائقة بجنسها ومقامها، مُعجَباً بحزم العذراء وتصميمها، متأثِّراً كذلك بحكمة كلماتها ورصانتها وشاعراً حيالها باحترامٍ أكثر منه بشفقة. فارتدتها تقلا بفرح وقالت: «إن الله الذي أنجدني عندما أُسلِمْت لهياج الحيوانات المفترسة ألبسني سطوع نوره عندما كنت عارية؛ وهو الذي كساني بمجده عندما كنت في حالٍ ملؤها العار؛ إنني أسأله أن يمنحك مقابل ما تفعله من أجلي نعمة القيامة وأن تُقبَل في ملكوته: إنني أُصلّي له ليُعطيك الخيرات الأبدية مقابل الحاجات الأرضية التي تُنعِم بها عليّ.»

٤٢. دفاع الحاكم

وخاطب الحاكم بعد ذلك شعب أَنطاكية وألقى عليه هذا الخطاب: «يا أهالي أَنطاكية، إن مواطننا إسكندر اتّهم هذه الصبيّة بجرائم لا دليل عليها إطلاقاً ولا تبدو صحيحة. ليس من العدل الحكم على حياةٍ ومسلك استناداً إلى اتهامات كهذه مستوحاة من الشهوة؛ ينبغي بالأحرى أن تستند إلى المعجزات التي كنا عليها شهوداً كلّنا والتي قامت لإثارة إعجابنا. لم يكن لها أن تعاني غضبها، وقد عُرِّضت للحيوانات الأكثر هياجاً؛ أَليس ذلك برهاناً على أن إلهاً صارع من أجلها، من أعلى السماء، حامياً إياها بسبب طهارة أخلاقها وفضيلتها؟ لقد رأيتموها بذهول وذعر تبسط يدَيها نحو السماء وتوقف هكذا الحيوانات المتوحشة الثائرة عليها والتي كانت تأتي وتسقط عند قدمَيها، وتداعبها وتحرسها. إن معجزةً ساطعةً كهذه أُعلِنت للمدينة بأسرها بالصيحات التي دوّت في المسرح الشعبي. ينبغي إذاً الاعتراف بها شخصاً وَرِعاً، طاهراً ويحبُّه الله الذي يحميها بآياتٍ باهرة. تشجّعي، أيتها العذراء؛ لن تتألّمي في شيءٍ بَعْدُ

بيننا. زِدْ أنك في منأى من كلّ ما يمكن أن يحاوَل ضدك، مكسوّةً بوقائك الماسي الذي لا يُخرَق. إمضي إلى حيث تشائين، وتصرّفي بحيث يكون إلهك متعاطفاً معنا ومؤيِّداً لنا.»

٤٣. إغتباط تريفينة

وأظهر الشعب فرحه بصيحات عظيمة، وقد سمع الخطاب، وحملت نسوةٌ، مسارعات إلى تريفينة، خبر وقاية تقلا من هياج الحيوانات وأنها قادمة إليها. واستردّت تريفينة صحتها، وقد علمت بهذه الأمور، ونظرت مسارعةً، لتلمح تقلا؛ وإذ رأتها، ضمّتها في ذراعَيها، مقبِّلةً إياها وذارفةً دموع فرح، وكلّمتها بهذه العبارات:

«إنني أغتبط، يا ابنتي، لرؤيتك ثانيةً معافاةً وسليمةً قربي، خلافاً لكلّ توقُّع، وبعيدةً عن شرورٍ كثيرة؛ وأغتبط خصوصاً لأنني أجد هكذا البرهان على صحة كلّ ما قلتِيه لي. إن الطريقة العجائبية التي نجوتِ فيها من الموت تمنحني الثقة بأن فالكونيلا، إبنتي الوحيدة والحبيبة، نالت بصلواتك ما كان ضرورياً لها. تعالي إذاً وكوني وريثة كلّ أملاكي؛ لقد أنلتِني الخيرات السماوية، فكيف لا أتخلى لك عن خيراتٍ أرضية وزائلة؟ تعالي وخذي، من كلّ الوجوه، مكان فالكونيلا.»

٤٤. أين بولس؟

وإذ تكلّمت تريفينة هكذا، أخذت تقلا تعلِّم الأشخاص الكثيري العدد الذين كانوا متجمِّعين عندها؛ ولقّنتهم الإيمان بيسوع المسيح، وقادت إليه كلّ عبيد تريفينة وعدداً كبيراً من أهالي أنطاكية، وكذلك جنوداً. إنما وسط الفرح الذي كان يسود منزل تريفينة، كانت العذراء لا تزال قلقة ومضطربة في شأن بولس، الذي كانت تتحدّث عنه بلا

انقطاع وترغب بشدّة في حضوره. «أين بولس؟ كانت تقول. مَنْ يعيد إليّ مَنْ أعطاني إياه يسوع المسيح ليقودني إلى الإيمان ومَنْ علّمني تنظيم حياتي تبعاً لوصايا الله؟»

وعلى رغم الشهرة التي جلبتها لها المعجزات التي كانت موضوعها، لم تكن تقيم وزناً أقل لمعلّمها، لكنها كانت تكنّ أكثر فأكثر إحتراماً للذي ضمّها إلى يسوع المسيح. وأخيراً، من فرط ما استعلمت وسألت في شأن بولس، علمت أنه كان في ميرّة، وهي مدينة جميلة جداً من أعمال ليسية؛ فرحلت فوراً من أنطاكية، متنكّرةً في لباس رجل، لتُخفي جمالها تحت ذلك التنكُّر. فكلّ ما تألّمته، جاعلةً من جمال نفسها أبهى أكثر فأكثر، لم يشوّه جمال وجهها. ومع أن ميرّة على مسافة كبيرة من أَنطاكية براً وبحراً، سرعان ما بلغتها، وقد حالت رغبتها في رؤية معلّمها ثانيةً، وكذلك عبيد تريفينة وخادماتها الذين كانوا يرافقونها، دون شعورها بعناء السفر.

٤٥. لقاء وشكر

وإذ دخلت المدينة، وجدت بولس سريعاً مثابراً على أعماله المعتادة، معلّماً، واعظاً ومبشّراً بالإيمان الكفرة، الذين كان عددهم كبيراً في ليسية، رجالاً كما نساءً. وعندما ظهرت، ملأت الحضور كلّهم ذهولاً إلى حد أنهم لم يكونوا يستطيعون الكلام، وبولس نفسه خاف، لأن ما علمه من الآلام التي عانتها تقلا أقلقه كثيراً. وقد قادها إلى خارج حضرة الذين كانوا هناك، خشية أن ينشَدِه بجمالها بعضٌ من بينهم وتنتج من ذلك خلافات خطيرة، وسائلاً إياها عما حدث، سمع سريعاً قصته الصحيحة. وأُعجِب بحزم تقلا وشجاعتها، وشكر الربّ على العون الذي منحها إياه؛ وصلّى أيضاً لتريفينة التي كانت عضداً

كبيراً للعذراء. وخاطبت تقلا بعد ذلك بولس بالعبارات التالية، وملؤها الفرح:

«لن أُحسِن، يا معلِّمي، التعبير في الشكل المناسب عن كلّ ما نلته منك. فأنت الذي عرّفتني إلى الله، ملك الأشياء كلّها، ويسوع المسيح، ابنه الوحيد، المالك مع الآب وخالق كلّ الأشياء، والروح القدس المالك بالشراكة مع الآب والابن والمقدِّس كلّ الأشياء. عبرك تعرّفت إلى أسرار الثالوث الأقدس الفائق الوصف والجدير بالعبادة. أنت مَنْ علَّمني سرّ ولادة يسوع المسيح، المولود من عذراء لبثت عذراء؛ ولقّنتني آلامه، وموته، وقيامته، وصعوده إلى السماء، التي سيعود منها ليحاكم كلّ البشر. عبرك عرفت سعادة الملكوت السماوي الأبدية والخالدة، كما عذابات جهنّم التي ليس لها انقضاء. أنت الذي علّمتني فضيلة العماد المقدَّس ونعمة الطهارة والعذرية. أنت الذي كشفت لي حسنات العِفَّة والخضوع، ومزايا الصيام، والصلاة والصّدقة. أنت الذي قال لي ما هي الأكاليل المخصّصة للذين يجاهدون ويتألّمون من أجل يسوع المسيح.

«وأخيراً، لأختصر بكلمة، علّمتني ما هي المكافآت الموعودة للذي ينظِّم حياته تبعاً لشريعة يسوع المسيح وما هي الانتصارات التي ستُمنَح له. وإذا بقي لديك شيء ما تلقِّنني إياه، فتكرَّمْ وزوِّدْني به. لقد دنا وقت ابتعادي عنك وعودتي إلى إيقونيوم، موطني. لا تكفَّ عن الصلاة من أجلي، لأعبر بلا تردُّد درب الورع حتى نهايتها وأبلغ بعد ذلك الملكوت السماوي، متّحدةً بيسوع المسيح ملكي وعريسي، الذي من أجله عانيت كلّ الذي كان عليّ مكابدته حتى الآن والذي من أجله لا تزال لدي ربما تجارب أخرى عليّ اجتيازها، ونضالات أخرى عليّ

خوضها، وانتصارات أخرى عليّ إحرازها. يا معلِّمي، لا تكفَّ أبداً عن تقديم صلواتك لله لصالح ابنتك، لأنك ولدتني ليسوع المسيح عندما كنت في السجن.»

٤٦. إختيار الربّ

وأجابها بولس: «لقد أبديت، أيتها العذراء، حجة رائعة؛ إن ثبات إيمانك تألّق في كلّ الأمور، وأنهيت شوط الأعمال الرسولية؛ ما من شيء ينقصك للوصول إلى اكتمال الخدمة الرسولية والتبشير بالكلمة الإلهية. هيّا إذاً، وعلِّمي كلمة الله، وأكملي مدة التبشير وتعالي نوبي عني جزئياً في أعمالي من أجل يسوع المسيح. إن الربّ اختارك بوساطتي لتقومي، أنت أيضاً، بوظائف الرسول، ومنحك مقدرة تلائم تعاليم الديانة المسيحية، والمواهب التي نلتِها يجب أن تتضاعف بكثرة.»

٤٧. العودة والجهاد

وإذ تكلّم بولس هكذا، سلّمت الشهيدة الرسول، ليوزِّعها على الفقراء، الكنوز التي تلقّتها هبةً من تريفينة، وهي كمية كبيرة من المال والثياب الثمينة جداً، وبعدما رجت بولس أن يوصي الله بها، سلكت ثانيةً درب إيقونيوم. وإذ وصلت إلى هذه المدينة، أهملت أُمها، أهلها ومنزلها بالذات، وتوجّهت إلى عند أُونيسيفورس، تُنعِشها ذكرى أول شعاع من الإيمان الذي نوّرها في ذلك المنزل ومحبّته. وعندما عاودت رؤية المُوضع الذي كان فيه بولس جالساً ليعلِّم، سجدت وقبّلت الأرض وهي ترويها بدموعها وتلفّظت بهذه الكلمات:

«يا ربّ، أنت الذي تكرّمت بكشف نفسك لي في هذا المكان بالذات بسببٍ من رحمتك حيالي والذي أفهمني عقيدة بولس، أنت الذي رآني

أهلاً للجهاد مع النار، مع القيود ومع الحيوانات المفترسة، أنت الذي كسوت بنورك جسدي العاري من الثياب، أنت الذي منحتني نعمة العماد المقدّس، أنت الذي أنعمت عليّ برؤية بولس ثانيةً لأتقوّى مجدداً بكلامه، أنت الذي، بعد أسفاري الطويلة، أعدتني إلى موطني وإلى منزلي العزيز جداً عليّ، إمنحني، كما كلّ الذين هم هنا، ألا نفعل شيئاً في المستقبل لا يكون مقبولاً لديك ولدى ابنك؛ لا تسمح بأن أحيد أبداً عن الديانة التي كشفتها لي وعن الإيمان الذي علينا الدفاع عنه، حتى لو كان علينا الجهاد ضد النار، والحيوانات المفترسة وكلّ العذابات التي اخترعها مضطهدونا؛ أَعطِني قوة احتمال كلّ أصناف التعذيب والموت؛ إجعَلْني أُرى أهلاً للتألُّم من أجلك ومن أجل اسمك وأن أُشارك بعد ذلك في ملذّات النعيم والأفراح التي تخصِّصها للذين هم أعزاء لديك.»

٤٨. قمة العبادة

وبعدما تكلّمت على هذا النحو، كانت للعذراء محادثات مختلفة في موضوع الإيمان ومسلك الحياة المسيحية مع أُمّها تيوكلية. وكان تاميريس قد مات قبل عودتها، وتوجّهت بعد ذلك إلى سلوقية. وهذه المدينة هي عاصمة إيسّورية، وهي تقع عند مدخل الجبال من جهة الشرق؛ إنها قريبة من نهر كاليدنوس الذي يروي مناطق شاسعة، آتياً من داخل البلاد، ويجتاز مدناً كثيرة قبل أن يصل إليها. واختارت تقلا لإقامتها قمة جبل قرب تلك المدينة، كما اختار إِيليا ويوحنا المعمدان إقامةً لهما، واحد الكرمل والآخر الصحراء؛ وواجهت الشيطان ساربيدون الذي كان يتمركز في وسط الأمواج الثائرة دوماً على ذلك الشاطىء، والذي أبعد الأهالي عن الإيمان، بأضاليله وبوحي

كاذب؛ وفعلت مثل ذلك ضد مينرفة، حارسة القلاع والمشرفة على الحرب، والتي كان تمثالها، مزوّداً بالتّرس، موضع عبادة البشر الجهلة والمضلّلين.

٤٩. دخلت حيّة الأرض

وبعدما بشّرت طويلاً بكلمة يسوع المسيح، معلّمةً وصايا الإيمان عدداً كبيراً جداً من البشر ومجنّدةً إياهم في عداد جيش الربّ، وبعدما حقّقت معجزات كثيرة (كالتي صنعها بطرس في أنطاكية وروما، وبولس في أثينة وعند الأمم كلّها، ويوحنا اللاهوتي الممتاز في أفسس)، لم تمت بالطريقة العادية (كما تُخبِر شهرتها)، بل دخلت حيّةً تماماً الأرض التي انفتحت، بفعلٍ من إرادة الله، لاستقبالها في موضع بُنيَت فيه مائدة الليتورجية المقدّسة، ومحاط بأعمدة ساطعة من الفضّة.

من هناك تتدفّق، كما من قناة رِفْقِها العذريّ، ينابيع أنعام وخيرات للذين يتضرّعون إليها ويجدون في ذلك شفاء أمراضهم وعاهاتهم، طرد الشياطين والمعونات التي يحتاجون إليها. وإذا سمح الله بذلك وإذا ساعدتنا المغبوطة تقلا، فسوف نروي في كتاب آخر هذه المعجزات الجديرة جداً بالإعجاب.

أعمال برنابا

هذا النص، الذي يَزعم أن يوحنا مرقس وضعه، يروي أسفار برنابا وتلميذه في بلدانٍ مختلفة ويسرد استشهاده في سالامين القبرصية. ربما يعود إلى النصف الثاني من القرن الخامس م.

بعد مجيء مخلِّصنا يسوع المسيح، الراعي الرحوم والطبيب المُعين، بعد هذا السرّ المقدّس، الجدير بكلّ مديح، والذي لا يستطيع تفسيره أي قول، انتشر الإيمان بين المسيحيين الذين وضعوا بتقوى رجاءهم، ودُمِغوا بإشارة يسوع المسيح؛ وقد تأملّت، ورأيت هذه الأحداث العظيمة، وسارعت إلى تكريس نفسي لخدمة الربّ، وفكّرت بأن من الضروري أن أروي الأسرار التي رأيت وسمعت.

١. رؤيا العماد

إذاً، أنا يوحنا، الذي تبع الرسولَين برنابا وبولس، كنت قبلاً في خدمة الكاهن كيرلُس. لكنني شاركت في نعمة الروح القدس بوساطة الرسول بطرس، وبرنابا وبولس، وهم رجال فاضلون دعاهم الله إليه، ومنحوني العماد. وبعدما رُشِشت بماء العماد، مَثَل أمام نظري رجلٌ يرتدي ثوباً أبيض، وقال لي: «تشجَّعْ جيداً، يا يوحنا؛ سوف تغيَّر اسمك لتُدعى مرقس، وسوف يُعلَن مجدك في العالم، والظلمات التي دخلت في البدء عقلك ستُطرَد منه، وقد أُعطيتَ الذكاء الذي يجعل أن في استطاعتك فهم أسرار الله.»

عندما رأيت ذلك، ارتجفت بجسدي كلّه، ولجأت إلى قدمَي برنابا، وأنبأته بما رأيت، وبالأسرار التي سمعتها من ذلك الرجل. كان الرسول بولس غائباً في اللحظة التي نقلت فيها هذا النبأ إلى برنابا، وعندها قال لي برنابا: «إسهَرْ على عدم كشف هذه الرؤيا لأحد، واعلَمْ أن الربّ ظهر لي في هذه الليلة بالذات، وقال لي: "تشجَّعْ جيداً، لقد عرّضت نفسك للموت من أجل اسمي، وعانيت الانفصال عن أُمّتك؛ خُذْ هذا الخادم الذي قربكما، فقد كُشِفت له أسرار إلهية." احتفِظْ إذاً في داخلك، يا بُنَيّ، بما رأيت وبما سمعت؛ سيأتي وقت يحمل تفسير الأمور.»

٢. عناد بولس

وبعدما طمأننا هكذا بهذه الكلمات، لبثنا أياماً عدة في أُورشليم، وجئنا إلى أَنطاكية، ومنها قصدنا سلوقية، وبعدما مكثنا هناك ثلاثة أيام، أبحرنا إلى جزيرة قبرص. ورافقتهما في تجوالاتهما عبر الجزيرة بأسرها. وإذ غادرنا قبرص، أُوصِلنا إلى بِرْغا، وهي مدينة من أعمال بمفيلية، حيث أقمت نحو شهرين. وأردت التوجُّه نحو مناطق الغرب، لكن الروح القدس لم يسمح لي بذلك. وعلمت، وقد عدت إلى قبرص، أن الرسولين كانا في أَنطاكية؛ فقصدتها، ووجدت فيها بولس يُرهِقُه تعب أعماله وأسفاره. واقترح برنابا على بولس الذهاب معاً إلى جزيرة قبرص، وقضاء الشتاء فيها، والتوجُّه بعد ذلك إلى أُورشليم للأعياد؛ وحدث نقاش طويل بينهما في هذا الصدد.

ورجاني برنابا أن أتبعهما، أنا الذي تعلّقت بشخصهما منذ البداية ورافقتهما في جزيرة قبرص بأسرها. ولم يكن بولس يستحسن رأي برنابا، وكان يقول إن من غير الممكن أن أذهب معهما. والإخوة الذين

كانوا هناك كانوا يقولون إن عليّ إن أتبعهما، بما أنني وعدت بمرافقتهما إلى أقاصي الأرض. وكان بولس يؤكّد العكس، وقال لبرنابا: إذا كنت تريد أن يكون معك يوحنا الملقّب مرقس، فاسلُكْ طريقاً غير التي سأتبعها، لأنه لن يأتي معنا.»

عندها فكّر برنابا وقال: «مَنْ خدم قضيّة الإنجيل وسار معنا لا يجب أن يُقصى عن مكارم الله؛ إنْ سمحت بذلك، فسوف آخذ، يا بولس، مرقس معي، وأنطلق من ناحية أخرى.» عندها قال بولس: «إمضِ بنعمة الله، تماماً كما سنمضي يؤازرنا الروح القدس.»

٣. وداع برنابا

وجثيا وصلّيا إلى الله وبكى بولس وناح، كما برنابا، الذي قال لبولس: «كان من المناسب بعدما عرّضنا معاً حياتنا أن نستمرّ إلى النهاية بين هؤلاء الرجال؛ وبما أنك ارتأيت خلاف ذلك، يا بولس، صلِّ إلى الله من أجلي، ليعطيني القوة لإتمام هذا العمل على الوجه الأكمل، ويمنحني بعد ذلك الراحة، لأنك تعلم كيف كرّست نفسي لخدمتك وخدمة النِّعَم التي وضعها الله فيك. إنني راحل إلى جزيرة قبرص، وأقصدها بهدف ملاقاة الشهادة، وأعلم، يا بولس، أنني لن أراك ثانيةً أبداً.»

وبكى بمرارة، وقد ارتمى عند قدمَي الرسول. عندها قال بولس: «إنّ الربّ ظهر لي هذه الليلة، وقال لي: "لا تمنَعْ برنابا من الذهاب إلى قبرص، لأن القدرة الإلهية ستعمل بحيث يهدي أشخاصاً كثيرين هناك بمواعظ الإيمان. أما أنت، فاذهب إلى أُورشليم، تعضدك النعمة التي أُعطيت لك، لتسجد لله في المكان المقدّس، وسوف يُكشَف لك في

أي موضع يجب أن يتمّ استشهادك.". وتبادلنا السلام بعد ذلك، وقادني برنابا معه.

٤. سيامة أسقف

وإذ خرجنا من مدينة اللاپيتيين، اجتزنا جبالاً، وقدمنا إلى قصر يُسَمّى لامپاديستوم، حيث كان تيمون؛ ووجدنا هناك هِرَقليون، فارتحنا بالقرب منه. كان من مدينة تمارية، وقد جاء لرؤية أهله. وتعرّف إليه برنابا، إذ نظر إليه، لأنه سبق أن صادفه في مدينة السيتيين، عندما كان هناك مع بولس؛ فقد منحاه الروح القدس، وأبدلا اسمه باسم هِرَقليون؛ وسِمْناه أُسقفاً في جزيرة قبرص، وأسّسنا كنيسة في كهف كان قرب تاماتوم، وبشّرنا بكلمة الله الإخوة الذين اجتمعوا فيها.

واجتزنا بعد ذلك الجبل المدعو كيونودِس، أي «المُغَطّى بالثلج»، وقدمنا إلى مدينة پافوس القديمة، حيث وجدنا المدعو رودون، خادم الهيكل، الذي تبعنا، وقد اهتدى إلى إيمان يسوع المسيح. وصادفنا بعد ذلك يهودياً اسمه بار ـ يشوع، كان قادماً من مدينة پافوس، ورأى في ما مضى برنابا مع بولس، وتعرّف إليه. ولم يدعنا ندخل پافوس؛ فعدنا إذاً إلى موضع يُدعى كوريوم.

٥. إنهيار جبلي

ورأينا من هناك احتفالاً بعيدٍ كريه، على جبل كان قريباً من المدينة، فقد كان جمهور من رجال ونساء يركض في حال عُري، واستدار برنابا، وقد رأى ذلك، وعبّر عن غضبه، فانهار على الفور الجزء من الجبل الذي كان إلى ناحية الشرق، وجُرِح قوم كثيرون، وقُتِل عدد

كبير؛ وهرب الآخرون إلى هيكل أپولون الذي كان قريباً من هناك. ولم يُطِقْ عدد كبير جداً من اليهود الذين أهاجهم بار ـ يشوع دخولنا الموضع المدعو كوريوم. فقضينا الليل تحت سنديانة قربه، وارتحنا هناك.

وفي الغد قدمنا إلى قصر كان فيه أرسطوخيوس؛ وكان أبرص، وإذ شفاه بولس وبرنابا في أنطاكية، رسماه أُسقفاً، وأرسلاه إلى قبرص إلى حيث كان قصره، وحيث كان الكثير من الوثنيين. ولبثنا قربه يوماً، أمضيناه في كهف، يقع على الجبل. ومن هناك قدمنا إلى أَماتونت، ووجدنا عدداً كبيراً جداً من المُشركين، رجالاً ونساءً عديمي الأخلاق، يريقون الخمر في هيكلهم، تكريماً لإلههم.

وتوجّه بار ـ يشوع ذاك إلى هناك أيضاً، وأهاج اليهود ضدنا، فلم يريدوا أن ندخل المدينة؛ لكن أرملة فقيرة، عمرها ثمانون عاماً، لم تكن تشارك في أخطاء الوثنيين، استقبلتنا في منزلها، فأمضينا ساعة فيه. وحين خرجنا منه، نفض برنابا غبار قدمَيه، لاعناً ذلك الهيكل حيث كان يُحتفَل بطقوس كريهة.

وإذ هبطنا إلى لاوديسية، وجدنا هناك سفينة منطلقةً إلى جزيرة قبرص، فأردنا الإفادة منها؛ لكننا والريح معاكسة، لم نستطع أبداً الوصول إلى حيث كنا نريد الذهاب. وقدمنا إلى كورسيتيوم، وإذ بقينا على الشاطىء، في موضع فيه نبع، ارتحنا هناك خلال ساعة، ولم نُظهِر أنفسنا لأحد، لأن ما من أحد في ذلك الموضع كان يعرف أن برنابا انفصل عن بولس. ومن هناك، قدمنا إلى إيسَورية، وبعد ذلك إلى جزيرة اسمها پيتيوزة. وتوقّفنا هناك ثلاثة أيام، وقد هبّت عاصفة، واستقبلنا في بيته رجل اسمه أُوفيموس.

٦. ثوب المسيحية

وقدمنا بعد ذلك إلى مدينة تُدعى أَنيمِفْريوم، وحين دخلناها، سألنا مُشرِكان مَنْ نحن، فأجابهما برنابا: «إطرحا الثوب الذي عليكما، فألبِسَكُما ثياباً لا تتمزّق أبداً، وتظلّ بهيّة دوماً.» ودهشا جداً لهذا الكلام، وسألانا ماذا هو ذلك الثوب الذي سنعطيهما، فقال برنابا لهما: «إذا اعترفتما بخطاياكما، وإذا تصالحتما مع الربّ يسوع المسيح، تنالان ذلك الثوب الذي يظل دوماً منزّهاً من الفساد.»

وانطرحا عند قدمَي برنابا، وقد مسّهما إذاك الروح القدس، وقالا له: «نتوسّل إليك يا أبتاه، أن تعطينا هذا الثوب.» فأنزلهما إلى النبع على الفور، وعمّدهما باسم الآب، والابن، والروح القدس، فتحقّقا من أنهما كانا يرتديان ذلك الثوب المقدّس الذي حدّثهما عنه برنابا. وقدّما له أموالهما التي وزّعها فوراً على الفقراء، وكان ذلك مكسباً كبيراً للبحارة. وعندما نزلنا إلى الشاطىء، حيّيناهما، وعلّمناهما الأمور الإلهية، وصلّينا من أجلهما، وباركناهما؛ وكان أحدهما، واسمه اسطفان، يريد اللحاق بنا، لكن برنابا لم يسمح بذلك.

٧. إلى قبرص

وأبحرنا ثانيةً بعد ذلك، ووصلنا إلى جزيرة قبرص، ودخلنا موضعاً يُدعى كروميا سياتة، ووجدنا هناك تيمون وأَرسطون، خادمَي الهيكل المقدّس، فاستضافانا. وكان تيمون يعاني حمّى شديدة، فلمسناه مباركَين، وإذ دعونا لاسم يسوع، شفي حالاً. وكان برنابا قد تلقّى من متى المغبوط الكتاب المحتوي رواية أقوال يسوع وأعماله. وكان يضع هذا الكتاب على كلّ المرضى، فيُنقذهم فوراً من كلّ

آلامهم، بفضيلة النعمة الممنوحة لنا. ومضينا بعد ذلك إلى مدينة اللاپيتيين، وإذ كان يُحتفَل بباخوسيات في مسرح الأوثان، لم يُرِد السكان أن يدعونا ندخل مدينتهم، لكننا ارتحنا قليلاً عند الباب، وقَدِم تيمون معنا، وقد شفي من مرضه.

وقَدِمنا إلى مدينة السيتيين، مغادرين ذلك المكان، مجتازين صحاري؛ وكان يرافقنا تيمون ذاك الذي تحدّثنا عنه، وكان جمع كبير يستسلم هناك للصخب.

٨. تعليم اليهود

وعبرنا إلى ما وراء المدينة، نافضين غبار أقدامنا؛ ولم يستقبلنا أحد، ولبثنا ساعةً نرتاح، غير بعيد عن باب المدينة، إلى جانب مجرى ماء. وقدمنا بعد ذلك بحراً إلى مدينة سالامين، وبلغنا الموضع المدعو الجُزُر. وكان سكّان تلك البقعة غارقين في عبادة الأوثان، ويقيمون ذبائح تكريماً لآلهتهم. ووجدنا هناك ثانيةً هِرَقليون، وعلّمناه التبشير بغيرةٍ بإنجيل يسوع المسيح؛ وعملنا على تأسيس كنائس، وإحلال خُدّام فيها مثابرين على الخدمة الإلهية. وإذ دخلنا مدينة سالامين، مضينا إلى معبد يهودي مجاور اسمه بيبليا، وأخذ برنابا يشرح الكتاب الذي تلقّاه من متى المغبوط ويعلّم اليهود.

٩. إحراق برنابا

وبعد يومَين قَدِم بار ـ يشوع، وكان قد علّم الكثير من اليهود، فجمع كلّ جمهور اليهود، ملؤه الغضب، وطلب برنابا ليسلّمه للحاكم هيپاتيوس. فأمسك اليهود إذاً بالرسول؛ وقيّدوه بأغلال وكانوا ينوون

اقتياده إلى الحاكم؛ لكنهم وقد علموا أن المدعو جيبوساوس، قريب الامبراطور نيرون، كان على وشك الوصول إلى جزيرة قبرص، جرّوا خلال الليل برنابا إلى خارج المعبد اليهودي في الريف، وأحرقوه؛ بحيث أن عظامه حتى استحالت رماداً، وإذ أخذوا هذا الرماد، لفّوه بكفن، وضعوه في إناء من رصاص قاصدين إلقاءه في البحر.

١٠. ودفنه في كهف

وأنا يوحنا، الملقَّب مرقس، وقد وجدت ليلاً برهةً مواتية، أتيت مع تيمون ورودون، وحاملين ذلك؛ الرفات الثمين، قصدنا الجبال، وإذ عثرنا على كهف واقع في موضع خفيّ جداً، وضعناه هناك مع الكتابات التي تلقّاها الرسول من القدِّيس متى. كانت تلك الساعة الرابعة ليلاً، ثاني يوم من السبت، اليوم السابع عشر من شهر پايني، بحسب المصريين، العام مئة واثنين، واليوم الحادي عشر من حزيران بحسب الرومان.

١١. مغادرة الجزيرة

ولبثنا مختبئين بعض الوقت في ذلك الموضع؛ لكن اليهود اهتموا كثيراً بالبحث عنا، وإذ نجحوا أخيراً في العثور علينا، بعد بذل مشقّة كبيرة، لاحقونا حتى قصر يُدعى ليدرانوم؛ واكتشفنا قرب هذا القصر كهفاً آخر، حيث لجأنا، واستطعنا هكذا الإفلات من أعدائنا، ولبثنا مختبئين في هذا الكهف خلال ثلاثة أيام، وعندما انسحب اليهود، خرجنا منه وغادرنا ذلك الموضع. وقَدِمنا إلى قصر يُدعى ليمنيت؛ ومعنا أَرسطون ورودون، ووجدنا هناك سفينة مصرية صعدنا إليها؛

وأبحرنا إلى الإسكندرية، وإذ وصلنا إليها، أقمتُ فيها، معلّماً كلمة الله الإخوة الذين لجأوا إليها، موضّحاً لهم ومبشّراً بما علّمني إياه رسل يسوع المسيح عندما منحوني العماد باسم الآب، والابن، والروح القدس وعندما أعطوني، وقد غيّرت اسمي، إسم مرقس ساكبين عليّ ماء العماد، الذي آمل بأن يُقاد إليه رجال كثيرون بنعمة الله ولمجده؛ له التكريم إلى أبد الآبدين. آمين.

رسالة بولس الثالثة إلى الكورنثيين

هذه الرسالة كانت، في الأصل، جزءاً مكمِّلاً لأعمال بولس. عُثِرَ حديثاً على نصٍّ يوناني منها يعود إلى القرن الثالث م. فيما كانت ترجمتها إلى اللاتينية، والسريانية والأرمنية متوافرة منذ زمن طويل. اعتبرتها الكنيستان السريانية والأرمنية شرعية خلال قرون. محتواها مرافعة مهمّة ضدّ الغنوصية، تشهِّر بسمعان وإِلوبيوس.

رسالة الكورنثيين إلى بولس

من أَغناطيوس والكهنة الذين معه، نيميسوس، أُوبالوس، تيوفيلوس ونومِسون، إلى الأخ بولس، سلام. إن رجلَين، يُدعيان سمعان وإِلوبيوس، جاءا إلى كورنثية، وهما يعكِّران ببراعةٍ الإيمان بأقوالٍ مُقنِعةٍ ومُفسِدة، يجب أن تُجيبَ عليها، لأننا لم نسمع أقوالاً مماثلة منك، وأقلّ بكثير من الرسل الآخرين. إننا لا نعلم إلا ما سمعناه منك ومن الآخرين (الرسل)، ونتقيّد به بأمانة. إنما، في هذا الصدد، أشفق الله علينا، بما أنك لا تزال بالجسد معنا. إننا نريد أن نسمعك مرةً اخرى: أُكتُبْ إلينا سريعاً الحقيقة، أو تعال شخصياً لزيارتنا. إننا نؤمن بالربّ، وبأنه سوف يظهر، وبأنّه سوف يُنقذنا من الشيطان

إن أقوال هذَين الرجلَين خاطئة، لأنهما يقولان إن قراءة الأنبياء ليست واجباً، ويقولان أن الله ليس كلّي القدرة، ويُنكِران قيامة الجسد، ولا يقولان إن الإنسان خليقة الله؛ ويُنكِران أن يسوع المسيح ولدته العذراء مريم بالجسد ولا يقولان إن العالم صنيعة الله، بل ملائكةٍ ما. هكذا، أيها الأخ، أُكتُبْ إلينا سريعاً أو تعال زُرْنا، لتظل كنيسة كورنثية منزّهة من العار، ويُشاع جهل هذَين الرجلَين أمام الجميع لخزيهما العظيم.

رسالة بولس إلى الكورنثيين

من بولس، المُكبّل في سبيل يسوع المسيح، والتائه بسبب جروحه المتواصلة، إلى إخوة كورنثية، سلام. إنني لا أدهش أن يسير رسل الشر بهذه السرعة، لكن الربّ سيضربهم عند مجيئه، لأنهم يُفسِدون أوامره وقلّما يقدِّرونها. لقد علّمتكم منذ البداية ما تعلّمته من الرُّسل الذين كانوا يسيرون دوماً مع الربّ.

والآن أقول لكم إن الربّ وُلِدَ من العذراء مريم التي من نسل داوود، كما بشّر بذلك الروح القدس. لقد أرسله إليها الآب من السماء، ليتّحد يسوع بالعالم ويخلِّص كلّ جسدٍ بجسده، ويقيمنا من بين الأموات. وأبان شخصه ليكون ثمة مثال ظاهر على أن الإنسان خلقه الآب، وأن الإنسان لم يُترَك في هلاكه، بل ابتُغي، ليُبقى في الحياة بيدِ التبنّي. لأن الله الذي هو أبو ربّنا يسوع المسيح والذي يسود في كلّ الأمور أرسل أولاً إلى اليهود أنبياءَ ليكفّوا عن الخطيئة ويدخلوا عدل مَنْ كان يريد تخليص بيت إسرائيل؛ وأعطى الرُّسلَ الروحَ القدس، ليبشِّروا بعبادة الله ومولده في هذا العالم.

رسالة بولس إلى اللاوديسيين

في الرسالة إلى الكولوسيِّين (٤، ٦)، إشارة إلى رسالة من بولس إلى اللاوديسيين، واعتُبِرَت التالية هذه الرسالة، بما اننا نجدها في مخطوطات عدّة للكتاب المقدّس باللاتينية. إلا ان مصادر اخرى لا تعيدها إلى ما قبل القرن الرابع م. وتراها تستعيد بضع جُمَلٍ من الرسالة الشرعية. ويقول بعض الباحثين إنها إنْ لم تكن لمرقيون، الغنوصي الشهير، فهي على الأقل لأحد تلاميذه.

من بولس، الرسول المختار لا من البشر أو بواسطة إنسان، بل من يسوع المسيح، إلى إخوته الموجودين في لاوديسة، لتكن النعمة والسلام لكم برأفة الله الآب، وبسيِّدنا يسوع المسيح.

اشكر يسوع المسيح في كلّ صلواتي على انكم أُمناء ومثابرون في مزاولة أعمالٍ صالحة، في انتظار المكافأة التي تتلقَّونها عنها في اليوم الأخير.

لا تدعوا أنفسكم تتزعزعون بالخِطَب الباطلة للذين يأتون إليكم في مظاهر خادعة، ليحوِّلوكم عن حقيقة الإنجيل التي أُعلِنها لكم.

لكن الله يسمح بأن الذين هم حقاً تلاميذي يبلغون أخيراً كمال الإنجيل ذاك، ويثابرون في ممارسة الأعمال الصالحة التي تجعلهم يمتلكون الحياة الأبدية.

إن الأغلال التي أحملها من أجل اسم يسوع المسيح معروفة من الجميع وتكوِّن فرحي كلّه وعزائي كلّه بما انها تزوِّدني بالخلاص الأبدي.

وهو ما انظر إليه تأثيرَ الصلوات التي صاغها الروح القدس فيكم؛ فسواء عشت، وسواء متّ، حياتي أن أحيا بيسوع المسيح، وسيكون الموت بالنسبة إليّ باعثَ فرح.

آمل بأن يسكب رحمته علينا كلّنا، لنكون كلّنا متّحدين بروابط المحبّة نفسها والروح نفسها.

أنتم إذاً، يا أحبائي، إذا كان الربّ في وسطكم، فلتكن لكم هذه المشاعر ، أُسلكوا بمخافة، فتحيَون أبدياً؛ لأن الله مَنْ يفعل فيكم.

لتكن أعمالكم كلّها منزّهة من الخطيئة؛ إسهروا في كلّ الأمور على أن تغتبطوا بيسوع المسيح ربّنا، وتحاشَوا الإغتناء بأرباحٍ دنيئة ومعيبة.

لتكن طلباتكم كلّها معروفة من الله.

كونوا راسخين في معرفة يسوع المسيح؛ لتكن أعمالكم كلّها كاملة، حقيقية، لائقة، طاهرة، صائبة ومَرْضيّة للربّ.

إحتفظوا في قلبكم بما تعلّمتموه وتلقّيتموه منا، فيكون السلام معكم.

القدّيسون كلّهم يسلّمون عليكم.

لتكن نعمة سيِّدنا يسوع المسيح معكم؛ آمين.

إحرصوا على ان توصلوا هذه الرسالة إلى الكولوسّيين، وعلى أن تقرأوا بأنفسكم تلك التي كتبتها لهم.

مراسلات بولس وسينيك

وُضِعت في اللاتينية نحو العام ٣٨٠ م. مجموعة من ١٤ رسالة (٨ من سينيك و ٦ من بولس)، وغدت سريعاً شعبيةً جداً. بعضها مؤرَّخ خلافاً لبعضها الآخر. يُجِلُّ سينيك، الفيلسوف الرواقي[١]، عقيدة بولس، لكنه ينصحه بتحسين أسلوب كتابته.

فيها حديث عن حريق روما في عهد نيرون، وإيضاحات مهمة عن الدمار الذي أحدثه.

الرسالة الأولى[٢]

من سينيك إلى بولس، سلام،

أعتقد، يا بولس، بأنك أُبلِغتَ أننا تحادثنا أمس مع صديقنا

---

١ ـ **الرواقية** مذهب فلسفي اسّسه زينون القيسيوني الفينيقي الأصل (توفي نحو ٢٦٤ق.م.). يعلِّم الخضوع الحازم والفَرِح للقدر، بحيث يقتبل الحكيم السعادة والبلوى بالصفاء نفسه، عائشاً بتناغم دائمٍ مع الطبيعة، ومشاركاً في انتظام العالم.

٢ ـ يتقدَّم الرسالة الأولى في بعض المخطوطات، التمهيد التالي للقدِّيس إيرونيموس الذي يُعتبَر ضمانة للمراسلات: «لوسيوس أنَيوس سينيك، من قرطبة، تلميذ الرواقي سوسيون وعمّ الشاعر لوكين، سلك حياة عفيفة جداً. لا أُدرِجه في قائمة القدِّيسين، لو لم تدفعني إلى ذلك هذه الرسائل من بولس إلى سينيك، ومن سينيك إلى بولس، التي يقرأها ناس كثر. في هذه الرسائل، يصرِّح بأنه يتمنى أن يحظى بين خاصته بالمرتبة نفسها التي لبولس لدى المسيحيين، على رغم انه معلِّم نيرون، وشخصيته نافذة جداً في عهده. أعدمه نيرون قبل عامَين من تكلُّل بطرس وبولس بالشهادة».

لوسيليوس[١] عن كتاباتك وعن أشياء أخرى مختلفة. كان معي بعض الذين يشاطرونك عقائدك، ولجأنا إلى حديقة سالُوست[٢]، حين انضمّ إلى صحبتنا أشخاص كانوا يمرّون من هناك، وقد رأَوا القوم الذين تكلّمت عنهم. بالتأكيد، تمنّينا أن تكون حاضراً؛ هذا ما أُريد أن تعلمه. حين قُرىء كتابك، أي حين قرأنا أشياء كثيرة في بعض تلك الرسائل التي وجّهتها إلى مدينة ما أو إلى عاصمة مقاطعة، والتي تحضّ في شكل رائع على الحياة الأخلاقية، تشدّدت عزيمتنا تماماً. لا أتصوّر أن المشاعر التي تعبِّر عنها آتية منك، لكنها بواسطتك تصل إلينا، ويقيناً أنها تأتي أحياناً من فكرك. إن عظمتها والسماح اللذين تتوهّج بهما هما إلى حد أكاد لا أستطيع معه أن أُصدِّق أن الأجيال التي عليها أن تُهذِّبها وتُصلِحها قادرة على احتمال بهائها. إنني أتوق، يا أخي، إلى أن تظل في صحة جيدة.

الرسالة الثانية

من بولس إلى سينيك، سلام،

تلقّيت أمس رسائلك بسرور؛ وكنت لأُجيب في الحال لو كان إلى جواري الشاب الذي كنت أُريد إرساله إليك. لأنك تعلم متى وبمَنْ، وفي أي وقت، ولمَنْ علينا الإسرار وتفويض أمرنا. أرجوك إذاً ألا تفترض أنني أُهمِلك، حين أنتبه إلى اختيار الشخص الذي أستخدمه؛ تكتب إليّ أن رسائلي لقيت ترحيباً جيداً لديك وفي موضعٍ معيّن؛ إنني أعتبر نفسي سعيداً بنيل رضى رجلٍ بهذا الإجلال. أنت، ناقدٌ

---

١ ـ المُرسَلة إليه «الرسائل إلى لوسيليوس»، أهمّ كتب سينيك.

٢ ـ أقامها سالّوست وامتلكها الأباطرة وسكنوا فيها. عرفت ذروةً في القرن الرابع م.

ورواقي، ومربّي أمير له على الناس كلّهم سلطان عظيم، ما كنتَ لتتكلّم هكذا، لو لم تكن تعبّر عن الحقيقة.

أتمنّى أن تحتفظ طويلاً بصحة جيدة.

الرسالة الثالثة

من سينيك إلى بولس، سلام،

لقد رتّبت بعض المجلّدات، وبعدما نظّمتها حسب أقسامها، أنوي قراءتها لقيصر، وإذا حالفنا القدر ويسّر أمرنا بحيث يُعيرنا أُذناً صاغية، ربما حضرتَ ذلك. وإلا عيّنت لكَ يوماً آخر لنحضر معاً هذه المهمّة. إنني لا أستطيع أن أُريه ذلك النص قبل أن أتشاور وإياك أولاً (إذا أمكن القيام بالأمر من دون عاقبة سوء)، لتعلم أنني لا أستطيع الاستغناء عنك. كُنْ في صحةٍ جيدة، أيها الأعزّ بولس.

الرسالة الرابعة

من بولس إلى سينيك، سلام،

في كلّ المرات التي أتلقّى فيها رسائلك، أتشوّق إلى حضورك، ولا أُفكّر بشيء آخر سوى برؤيتك دوماً معنا. وحين يمكنك أخيراً المجيء ونرى بعضنا بعضاً، سوف نرغب في التلاقي ثانيةً بَعْدُ من دون إبطاء. أودّ أن تكون في صحة جيدة.

الرسالة الخامسة

من سينيك إلى بولس، سلام،

لقد آلمنا اختلاؤك الذي طال جداً. ماذا يجري؟ ما هي الأمور التي تستبقيك بعيداً؟ أَهو سخط الامبراطورة[1]، لأنك تخلّيت عن دينك القديم

---

١ ـ بوبية، زوجة نيرون الثانية، التي يبدو انها تهوّدت بحسب المؤرِّخَين تاسيت وفلافيوس جوزف.

وشيعتك القديمة، ولأنك تهدي الآخرين؟ ثمّة ما يدعو إذاً إلى الطلب منها اعتبار ذلك فعلَ التفكير لا الخِفَّة. كُنْ في صحة جيدة.

الرسالة السادسة

من بولس إلى سينيك ولوسيليوس، سلام،

ليس مسموحاً استعمال الحبر والريشة للحديث في الأمور التي كتبت لي عنها؛ أحد تلك المواضيع يشير إلى أمرٍ ما ويعرضه، والآخر يوضحه. إنه رأيي خصوصاً حين أعلم أن بينكم أشخاصاً يفهمونني كما لو انهم كانوا فينا وعندنا. ينبغي تقدير الجميع ولا سيما أنهم أقلّ استعداداً للإمساك بفرصة الحكم بالعدل علينا. إذا أبدينا صبراً حيال هؤلاء الآخرين، فسوف نؤول إلى البقاء غالبيهم من كلّ ناحية، شرط أن يكونوا من أولئك الذين يكفِّرون عن ذنوبهم. كونا في صحة جيدة.

الرسالة السابعة

من سينيك إلى بولس وتيوفيلوس[1]، سلام،

أعترف بأنني تأثّرت كثيراً بقراءة الرسائل التي بعثتَ بها إلى الغلاطيين، والكورنثيين والأخيين[2]؛ لنعِشْ بحيث ننشرها متعاونين، مع الحبّ الإلهي. إن الروح القدس يفيض فيك وعليك مشاعر رفيعة وسامية، جديرة بكلّ احترام. أودُّ إذاً، حين تعبِّر عن أمورٍ فائقة، ألا تغيب أناقة الأسلوب عن جلالها. ولئلا أُخفي عنك شيئاً، يا أخي،

---

١ ـ ليس من تيوفيلوس في صحبة بولس. المقصود ربما تيموتاوس.

٢ ـ ليس من رسالة محدَّدة إلى الأخيين، بل إشارة إلى أخاية في الرسالة الثانية إلى الكورنثيين.

ولئلا تكون لي ملامة على نفسي، أعترف بأن أُوغسطوس[1] تأثّر بمشاعرك. حين قُرىء عليه عرض بدء مسيرتك في الفضيلة، كانت كلماته أنه مندهش بأن رجلاً لم يتلقّ تعليماً منتظِماً[2]، يُحِسّ بمشاعر كهذه. وقد أجبته بأن الآلهة تنطق بفم الأبرياء وليس بلسان الذين قد يسيئون استخدام معرفتهم، ضارباً له مثل ڤاتينيوس، الريفيّ الذي ظهر له في حقول ريات رجلان ثم تبيّن أنهما كاستور وپولوكس. ويبدو على علمٍ كافٍ. كُنْ في صحة جيدة.

الرسالة الثامنة

من بولس إلى سينيك، سلام،

إسمَحْ لي، لا بتأنيبك، بل بإعطائك نصيحة، وإنْ كنت لا أجهل أن قيصر مُعجَب بعقائدنا، لكنه قد يتوقّف يوماً فعلاً عن الإعجاب بها. أعتقد بأنك قمتَ بأمرٍ خطير، حين أردت أن تنقل إلى علمه أفكاراً مخالفة لدينه ومعارفه، فطالما أنه يعبد آلهة الوثنيين، كيف أمكن أن يبدو مناسباً إعلامه بتلك الأمور؟ هذا ما لا أُحسِن فهمه إلا بتفسير تصرُّفك تعلُّقاً مُفرِطاً بي. أرجوك ألا تعود إلى التصرّف هكذا مستقبلاً. ينبغي الاحتراس، في المودّة التي تُكِنّها لي، لئلا تهين المولاة. فإذا ثابر، فلن توقف الامبراطور الإهانة التي تكون قد شعرت بها. وإذا كانت ملكةً، فلن تستسلم للسخط، إنما إذا كانت امرأة، فستجد نفسها مُهانة. كُنْ في صحة جيدة.

---

١ - أي نيرون.

٢ - ردة فعل الثقافة الكلاسيكية امام الجهل الموحى إليه.

الرسالة التاسعة

من سينيك إلى بولس، سلام،

أعرف أنك إذا كنت قد تأثّرت بعملك عبر رسائلي بأنني أريت رسائلك لقيصر، فليس بسببك أنت شخصياً، بل لطبيعة الأمور بالذات التي تحوّل أذهان الناس عن كلّ الاصطناعات والعادات المألوفة. إنني ما عدت أندهش لذلك اليوم، لأن أمثلةً كثيرة منحتني، في هذا الصدد، معرفةً أكيدة. لنعمَلْ إذاً مجدداً؛ وإذا كنت تصرّفت، في الماضي، بتساهل كبير، فإنني أسألك مسامحتي.

أرسلت إليك كتاباً[1]، «في الغزارة اللفظية». كُنْ في صحة جيدة، أيها الأعزّ بولس.

الرسالة العاشرة

من بولس إلى سينيك، سلام،

في كلّ المرات التي أكتب لك فيها وأضع اسمي قبل اسمك، أقوم بأمرٍ يستحق اللوم ولا يناسب عقيدتي الدينية. ان عليّ، كما صرّحت بذلك غالباً، أن أكون كلاً للكلّ، وأُراعي، حيال شخصك، ما أقرّه القانون الروماني[2] لتكريم الشيوخ، أي أن على مَنْ يوجِّه رسالةً إليهم أن يختار المرتبة الأخيرة؛ إنني لا أريد أن أظهر راغباً في التصرُّف طوعاً بدناءةٍ حيالك، وأن أمنع عنك التكريم الذي يعود إليك. كُنْ في صحة جيدة، أيها المعلِّم المخلص جداً.

---

١ ـ لم يصل إلينا. ربما له علاقة بكتيِّب صدر بعد القرن السادس م. ويحمل العنوان نفسه، متضمِّناً مقاطع من سينيك.

٢ ـ قانون مجهول. المقصود عُرف على الأرجح.

الرسالة الحادية عشرة[١]

من سينيك إلى بولس، سلام،

أُحييك، يا بولس، أيها الأعزّ. لو انك اتّحدت بشخصي وبصديقي، أنت الرجل الفائق النبوغ والذي اختير لهذا الهدف، أقول، إذا وددتَ ليس فقط الاتّحاد بي بكلّ الأشكال، بل الامتزاج بي في شكل حميم، فسوف يكون ذلك فائدة كبرى لسينيك. وبما أنك ذروة الجبال الأعلى وقمتها، ألا تريد أن أغتبط إذا كنتُ قريباً ما يكفي منك ليُنظَر إليّ شبيهاً آخر لك؟ لا تعتبر نفسك إذاً غير جدير بأن تُدَوَّن في مطلع رسائلنا، خوفاً من أن تبدو قاصداً اختياري استخفافاً بي، لأنك تعلم جيداً أنك مواطن روماني. أُريد أن يكون مكانك قربي مكاني قربك. كُنْ في صحة جيدة، أيها الأعزّ بولس.

الرسالة الثانية عشرة

من سينيك إلى بولس، سلام،

أُحييك، أيها الأعزّ بولس. أَتتصوَّر أنني لست متألِّماً وأن الأمر ليس مدعاة حداد فرضُ عذابات على براءتك، لأن الشعب كلّه ينظر إليك منحرفاً جداً ومستحقاً جداً العقاب، معتقداً بأن كلّ ما يطرأ من شؤم في المدينة هو من صنعك؟ إنما لنتحمّل المصيبة بعقل حازم، ولنستخدم الحلبة التي تركها لنا القدر، إلى أن تضعَ بهجةٌ لا يمكن التغلُّب عليها حداً لبلايانا[٢]. إن العصور القديمة تحمّلت المقدوني، إبن

---

١ ـ هذه الرسالة تختلف تماماً عن الرسائل كلّها: نبرةً ومحتوى. تبدو صنع يدٍ اخرى. معظم ناقلي المراسلات أحلّوها بعد الثانية عشرة.

٢ ـ الإستسلام الرواقي قريب تماماً هنا من الخضوع المسيحي.

فيليبس، والفارسي داريوس ودُنيس[١]؛ واضطُرّ عصرنا أيضاً إلى تحمُّل كايوس قيصر، واستطاعوا كلّ ما أرادوه. إن إثباتاتٍ واضحة تؤكِّد من أين تأتي الحرائق التي تخرِّب غالباً مدينة روما. وإذا كان الضعف البشري يستطيع أن يقول ما هو سببها، وإذا كان ممكناً الكلام بلا عقاب في هذه الظلمات، لكان الناس كلّهم يرَون الأمور التي تحدث كلّها. إن المسيحيين واليهود يسلِّمون أفواجاً للتعذيب باعتبارهم مُشعِلي الحرائق. إن قاطع الطرق هذا، أيّاً كان، الذي وظيفة الجلاد لذةٌ بالنسبة إليه والذي يقوم الكذب عنده مقام حجاب، مُعَدٌّ ليكون مثالاً لزمنه؛ وكما أن واحداً بين الصالحين يصعقه الموت وسط حشدٍ من المتهمين، كذلك يُدان بالنيابة عن كلّ المذنبين، ويلتهمه الحريق. إن مئة واثنين وثلاثين منزلاً، أربع مجموعات منازل احترقت خلال ستة أيام. وتوقّفت النار في اليوم السابع. أودّ، يا أخي، أن تحتفظ بصحة جيدة.

الرسالة الثالثة عشرة

من سينيك إلى بولس، سلام،

أُحييك، أيها الأعزّ بولس. إن تآليفك ملأى بتعابير رمزية ولغزية. ولذلك ثمة قوة كبيرة جداً في ما تقول وفي العمل الذي تمارسه؛ ويجب أن تُجَمَّل، لا بزينةٍ من كلمات، بل ببعض تحضير. لا تتوقّف عند عذرٍ أذكر أنني غالباً ما سمعتك تعبِّر عنه، أعني أن الذين يتصنّعون أناقة الأسلوب يُفسِدون المشاعر وينزعون العصبَ عن معنى الأشياء. إنني أودّ بالتأكيد أن تمنحني السهر على ليتنتك وتجميلها باستعمال كلمات حسنة الاختيار، حتى يكون إتمام عملك السخيّ مُنَفَّذاً كما ينبغي. كُنْ في صحة جيدة.

---

١ ـ طاغية سرقسطة. صديق أفلاطون ومخترع السجون المحاجر.

الرسالة الرابعة عشرة

من بولس إلى سينيك، سلام،

لقد كُشِفت لتأمّلاتك أمور منحتها الأُلوهة قليلاً من الرجال. لذا أنثر بثقةٍ، في حقل خصب، بذاراً نشيطاً جداً، لا جسماً مادياً عرضةً للفساد، بل الكلمة الثابتة، الإلهية لله، التي تنمو والتي تبقى في الأبدية. إن ما أثبته لك الحذر لن يغيب عنك بعد الآن. عليك أن تعتبر مناسباً تحاشي اعتراضات الوثنيين والإسرائيليين. إنك تجعل من نفسك مؤلِّفاً جديداً، بإظهار نفسك من دون عيب، من جهة البلاغة، في امتداحات يسوع المسيح. وتُلمح لدى ملك من هذا العالم، لدى أهل منزله وأصدقائه الأوفياء، إلى هذه الحكمة التي بلغتها. إن إقناعهم سيكون أمراً صعباً وشاقاً، ولن يرضخ الأغلب من بينهم إطلاقاً لتلميحاتك الممتزجة بها كلمة الله، ذلك العنصر الحيوي الذي يلد إنساناً جديداً، منزَّهاً من الفساد، ويجذب دوماً إلى الله نفوساً تتّجه نحوه. كُنْ في صحة جيدة، يا سينيك، الأعزّ علينا.